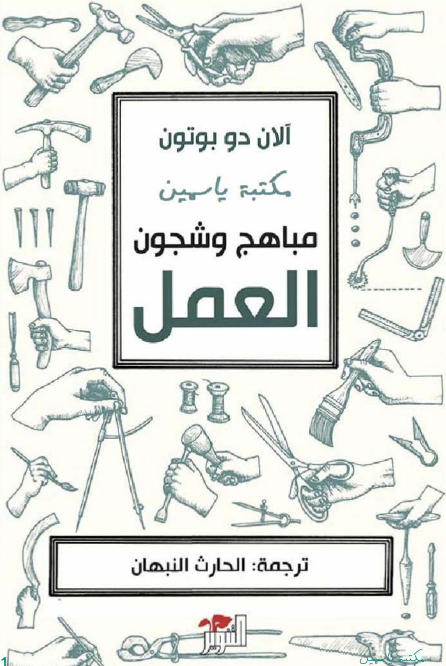

آلان دو بوتون

مكتبة ياسمين

# مباهج وشجون العمل

ترجمة: الحارث النبهان

التنوير


مكتبة ياسمين

الفهرس آخر صفحة

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الكتاب: مباهج وشجون العمل

تأليف: آلان دو بوتون

ترجمة: الحارث النبهان

عدد الصفحات: 304 صفحة

الترقيم الدولي: 7-210-472-614-978

الطبعة الأولى: 2022

هذه ترجمة مرخصة لكتاب:

THE PLEASURES AND SORROWS OF WORK
by Alain de Botton

*Copyright © 2009 by Alain de Botton*
*All rights reserved*

جميع حقوق هذه الترجمة محفوظة لدار التنوير © دار التنوير 2022

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

تونس: 16 الهادي خفشة - عمارة شهرزاد - المنزه 1 - تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي

هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

# الفصل الأول
# مراقبةُ سفنِ الشَّحنِ
## -1-

تخيّل رحلة في واحدة من كبريات المدن في عالمنا المعاصر. على سبيل المثال، خذ لندن في يوم اثنين رمادي في أواخر شهر أكتوبر. طِر فوق مراكز التوزيع فيها، فوق المستودعات والمنتزهات والمقابر. فكِّر في مجرميها، وفي سائحين أتوها من كوريا الجنوبية. انظر إلى مصنع السندويتشات في «بارك رويال»، إلى مرفق تجهيز مستلزمات الرحلات الجوّيّة من طعامٍ وشرابٍ في «هاونسلو»، إلى منشأة شركة DHL في «باترسي»، إلى «جولف ستريمز» في مطار سيتي، وإلى عربات التنظيف في هوليداي إنْ إكسبرس في سماغرلز وايل. اصغِ إلى الزعيق في صالة الطعام في مدرسة «ساوثوارك بارك» الابتدائية، وإلى المدافع الصامتة في متحف «إمبيريال وول ميوزيم». فكِّر في مدرِّبي قيادة السيارات، في قارئي العدّادات، وفي رجال ونساء متردّدين باحثين عن غير زوجاتهم وأزواجهن. قف في قسم الولادات في مستشفى «سينت ميري». انظر إلى طفلة اسمها آشتريتا جاءت إلى الوجود مبكرة ثلاثة شهور ونصف الشهر، محاطة بالأنابيب، غافية في صندوق من البلاستيك مصنوع في كانتون أوبوالدن السويسري. انظر إلى قاعة «ستايت روم» في الناحية الغربية من قصر باكينغهام. انظر معجبًا إلى الملكة جالسة تتناول طعام الغداء مع مئتين من الرياضيين المقعدين، ثم تلقي كلمة -أثناء شرب القهوة- تشيد بعزيمتهم وتصميمهم. وفي البرلمان، تابع وزراء الحكومة يقدمون مشروع قانون يضبط غلو


مكتبة ياسمين

المآخذ الكهربائية في المباني السكنية. فكّر في أمناء متحف «ناشيونال غاليري» عندما يصوّتون من أجل اقتناء لوحة من القرن الثامن عشر للرسام الإيطالي جيوفاني بانيني. استعرض وجوه المؤدّين المحتملين لدور «سانتا كلوز» أثناء إجراء المقابلات معهم في قبو «سلفريدجز» في شارع أكسفورد، واعجب من أسلوب محلّلٍ نفسيٍّ هنغاريٍّ في تقديم محاضرة عن انفصام الشخصية والإرضاع الوالدي في متحف فرويد في هامستد.

في غضون هذا كله، عند النهايات الشرقية للعاصمة، يجري أمر آخر لن يكون له أي أثر باقٍ في المخيّلة العامة، ولن يلفت انتباه أحد غير المشاركين المباشرين فيه، لكنه ليس بأقل من كل ما سبق استحقاقًا لأن يُسجّل. السفينة «*ربة البحار*» ماضية في طريقها صوب ميناء لندن آتية من آسيا. أنشأتها «شركة ميتسوبيشي» للصناعات الثقيلة في مدينة ناغازاكي منذ عشر سنين: سفينة طولها ثلاثمئة وتسعون مترًا مطلية باللونين البرتقالي والرمادي، اسمها مكتوب عليها بوضوح، فيه قدرٌ غير قليلٍ من التحدّي لأن السفينة نفسها لا تكاد تُظهر ما من شأنه استحضار خصال العظمة والجمال التي ينسبها الناس إلى الربّات عادة - سفينة بدينة تزن ثمانين ألف طن، لها جسر ناتئ كأنه وسادة بُولغ في حشوها، وعلى متنها كدس عالٍ من أكثر من ألف حاوية شحن فولاذية متعدّدة الألوان، ممتلئةً سلعًا آتية من بقاع كثيرة، من أماكن ممتدة من مصانع «ممر كوبي» حتى بساتين الحمضيات في جبال أطلس.

ليس هذا الوحش العملاق متجهًا إلى أجزاء النهر الأكثر شهرة، حيث يشتري السائحون الايس


مكتبة ياسمين

كريم ويشمّون روائح محرّكات الديزل، بل إلى موضعٍ مياهه ذات لون بنّي قذر، وضفافه متخمة بالمستودعات وأرصفة المراسي - منطقة صناعية لا يقصدها إلّا قلة من سكان العاصمة، مع أن نظام مجريات حياتهم اليومية وكذلك، على الأقل، إمداداتهم من عصير «تانغو فيزي» ومن خلائط الأسمنت معتمدٌ على العمليات المعقّدة الجارية فيه.

بلغت السفينة «القناة الإنكليزية» في ساعة متأخّرة من مساء اليوم الماضي، ثم سارت على امتداد قوس ساحل «كنت» إلى نقطة واقعة على مسافة أميال قليلة إلى الشمال من «مارغيت»، حيث بدأت عند الفجر المرحلة الأخيرة من رحلتها صعودًا في مصب نهر التايمز: مشهد يبدو كأنه مسكون من حيث إنه يستحضر ماضيًا عتيقًا جدًا ومستقبلًا متشائمًا كالحًا... مكان قد يتوقّع فيه المرء ظهور ديناصور مفترس من خلف هيكل مصنع سيارات محترق مهجور.

عرض النهر الكبير في ظاهره لا ينبيح، في واقع الأمر، إلا ممرًا وحيدًا ضيقًا صالحًا للملاحة. بعد ما ألفته السفينة من حرية اللعب مئات الأمتار في البحار، صار تقدمها الآن حذرًا محترسًا كأنها مخلوق


مكتبة ياسمين

ضخم جيء به من البريّة إلى قفص في حديقة الحيوان. جهاز السونار يطلق سلسلة متّصلة من صفرات خفيضة منتظمة. قبطان السفينة الماليزي واقف على جسرها ينظر في خريطة ملاحية تبيّن كل ضفة وانحناءة في النهر، من جزيرة كانفي حتى ريتشموند، في حين يبدو المشهد المحيط أشبه بـ«الأرض المجهولة» التي كان قدامى المستكشفين يحدّدونها على خرائطهم، حتى مع كثرة ما فيها من شواهد ومبانٍ حضرية. وإلى يمين السفينة وشمالها، يعج ماء النهر بزجاجات البلاستيك وسدادات الفلين والريش وأخشاب صقلها ماء البحر، وأقلام ذات نهايات مطاطية وألعاب حالت ألوانها.

ترسو «ربّة البحار» في محطة الحاويات في «تيلبوري» بُعيد الساعة الحادية عشرة. لعلّها توقّعت استقبالًا فيه قدر من التكريم، وإن يكن قليلًا، بعد ما مرّت به من محن كثيرة في رحلتها، أو جوقةً تنشد لها أناشيد الفرح. لكنها لم تجد في استقبالها غير موظف وحيد ناول فيليبينيًا من أفراد الطاقم رزمة أوراق جمركية، ثم اختفى من غير أن يسأل كيف كان الفجر عند مضايق ملَقّة، أو إن كانت دلافين البحر قد شوهدت قبالة سواحل سريلانكا.

مسار رحلة السفينة نفسه مدهش. قبل ثلاثة أسابيع مضت، انطلقت من يوكوهاما، ثم عرّجت على موانئ يوكايتشي وشن زن ومومباي وإستنبول، والدار البيضاء، وروتردام. قبل أيام معدودة فقط، عندما كان مطر رتيب يهطل فوق السقائف في تيلبوري، بدأت السفينة صعودها في البحر الأحمر تحت فيض من ضياء الشمس، ثم دارت من حولها أسراب من اللقالق آتية من جيبوتي. الروافع الفولاذية التي على متنها تفرغ

الآن حمولات متنوِّعة كثيرًا، من أفران المطبخ ذات المراوح، إلى أحذية الجري، إلى الآلات الحاسبة، إلى مصابيح النيون، إلى أكياس من الكاجو وألعاب صاخبة الألوان على هيئة حيوانات. سوف ينتهي الأمر بما أتت به من صناديق ليمون مغربي إلى رفوف متاجر وسط لندن مع حلول المساء. وعند الفجر، ستصل إلى يورك أجهزة تلفزيون جديدة.

لا تبالي إلَا قلة من المستهلكين بمنشأ الثمار، ولا يبالي إلَا أقل منها بالأماكن التي ضنعت فيها القمصان، أو بمن صمموا الحلقات الواصلة بين الحوض وأنبوب المياه في الدوش. تظلَ أصول السلع التي نشتريها، والأسفار التي اجتازتها، موضع قدر كبير من اللامبالاة، مع أن قدرًا طفيفًا من أثر الرطوبة في قعر صندوق من الورق المقوى أو رمزًا غامضًا مطبوعًا على كابل من كابلات الكمبيوتر قد يكونان موحيين -لأصحاب المخيّلة، على الأقل- بعمليات تصنيع ونقل أعلى شأنًا وأكثر غموضًا من تلك السلع ذاتها، بل أكثر جدارة بالدراسة والتأمَل.

-2-

ليست «*ربّة البحار*» إلّا واحدة من عشرات السفن


مكتبة ياسمين

التي تمخر صعودًا في نهر التايمز في هذا اليوم من أيام شهر أكتوبر. تصل سفينة فنلندية آتية من بحر البلطيق محمَلة بلفافات ورق تبلغ ثخانة الواحدة منها عرض نفق من أنفاق سكة الحديد... ورق متَجه كي يغذّي ثرثرة الصحف التي تُطبع في «وابينغ» و«ويستفيري». سفينة شحن أخرى راسية في المياه على مقربة من محطة الطاقة في «تيلبوري» وعلى متنها خمسة آلاف طن من فحم آتٍ من كولومبيا: وقود كافٍ لتشغيل غلايات الماء ومجفَفات الشعر في شرق إنكلترا كله حتى مطلع السنة الجديدة.

عند واحد من الأرصفة، تفتح سفينة نقل سيارات شدقيْها العملاقين، فتخرج من بينهما ثلاثة آلاف سيارة صالون عائلية أمضت في البحر عشرين يومًا منذ مغادرتها مصنع التجميع في «أولسان» في شبه الجزيرة الكورية. سيارات «هيونداي آميكا» هذه، شبه المتطابقة، الفائحة برائحة البلاستيك والمنسوجات التركيبيّة، سوف تحمل آثارًا باقية من فتات السندويتشات، ومن المشاحنات والمضاجعات وأغاني الارتحال في الطرقات. سوف تُقاد إلى صالونات التجميل. وسوف تتجمّع فوقها أوراق الأشجار في ساحات وقوف السيارات عند المدارس. وسوف يقتل بعضُها مالكيه. إذا استرقنا نظرة إلى ما في داخل هذه السيارات الجديدة التي لم يمسّها أحد بعد، فسوف نرى مقاعدها مغلَفة بورق بئي مطبوعة عليه عبارات بكتابة كورية رشيقة مُلغزة؛ وسوف نشعر بأننا نتطفَل على نوع من البراءة كثيرًا ما يرتبط في أذهاننا بإغفاءة طفل وليد.

على أن الميناء نفسه لا يُبدي إلَا أقل قدر من الاهتمام بهذه الصور والترابطات الشعرية. ففي أنحاء تيلبوري، تعرض شركات الشحن خدماتها من غير تنميق في مقرَاتها ذات الواجهات الزجاجية. حتى تُطمِئن هذه الشركات عملاءها، وحتى تستدرجهم، تحاول الإيحاء لهم بأن رحلات سفنها -حتى تلك المشتملة على الالتفاف حول رأس الرجاء في الشتاء، أو على مواكبة ثلاثين محركًا نفاثًا عبر المحيط الهادي- صارت أمرًا عاديًا لا تميُّز فيه، مثلها مثل الارتحال من محطة على خط المترو إلى المحطة التالية.

مع هذا، لا يستطيع أي رصيف ميناء أن يكون ذا مظهرٍ عاديّ تمامًا، لأن الناس هنا يبدون دائمًا صغارًا متضائلين إن هم قورنوا بالمحيطات العظيمة، ولأن ذكر الموانئ النائية قادر دائمًا على أن يحمل وعدًا غامضًا بأن فيها حياة جارية، قد تكون أكثر نشاطًا وإثارة مما نحياه هنا: ثمة شحنة رومانسية مرتبطة دائمًا بأسماء من قبيل: يوكوهاما أو الإسكندرية أو تونس... أماكن لا يمكن، في واقع الأمر، أن تكون خالية من الضجر ومن ضرورات القبول بتنازلات كثيرة، لكنها بعيدة إلى حدّ كافٍ لأن تقوم عليه


مكتبة ياسمين

أحلام يقظة غير واضحة، حتى إن لم يكن مقيَّضًا لتلك الأحلام أن تعيش طويلًا.

-3-

حقيقة الأمر هي أن هذه السفن كلها ليست متجهة إلى ميناء واحد بعينه، بل إلى سلسلة غير مترابطة من محطات ومصانع متناثرة من غير انتظام على طول نهر التايمز، من غرايفساند إلى وولويتش فيري. إلى هذا المكان، تأتي السفن من غير انقطاع، تأتي في أيام الصيف الرطبة وفي أيام الشتاء الغارقة في الضباب، تأتي ليل نهار حاملة ما تطلبه لندن من حجارة وفولاذ، من فحم وصويا، من حليب ومن عجينة الورق، من قصب السكر من أجل بسكويتها، ومن وقود من أجل مولداتها الكهربائية - منطقة جديرة بالاهتمام مثلها مثل متحف من متاحف المدينة؛ لكن الكتب التي تتحدّث عن المدينة تسكت عنها دائمًا.

مصانع كثيرة قائمة على ضفة النهر نفسها، قريبة من الماء بما يكفي لأن تستطيع غرف المواد الأولية، أو امتصاصها، من على متن السفينة... مصانع منهمكة في إنتاج مكوِّنات لا يحفل بها الناس كثيرًا، مع أنها ذات مساهمة كبيرة في الأداء السلس لمدنيتنا الاستهلاكية: المواد المضافة إلى معاجين الأسنان حتى تظل محافظة على قوامها، وحامض السيتريك الذي يُستخدم كمادة مثبتة في مستحضرات التنظيف، والإيزوغلوكوز من أجل تحلية وجبات الإفطار، والغيليسريل ثلاثي السيترات لصنع الصابون، ومادة زانثان المستخدمة لتعزيز كثافة مرق اللحم.

يتولى هذه العمليات كلها مهندسون نجحوا في التخلّص من الكسل البشري الطبيعي كي يعالجوا


مكتبة ياسمين

مشكلات الكيمياء والفيزياء العويصة... أشخاص لعل الواحد منهم أمضى عشرين سنة في التخصص في تخزين المواد المذيبة القابلة للاشتعال، أو في دراسة العلاقة بين عجينة الورق وبخار الماء. وفي أوقات فراغهم، يتصفَّحون *«نشرة الشحنات الخطيرة»* التي هي المجلَّة الشهرية الوحيدة في العالم كله المقتصرة على النقل الآمن للمواد الكيميائية والمنتجات النفطيَة.

مهما يمكن أن تبدو مرافق الميناء غير بشرية عند النظر إلى ضخامتها واتساعها، فهي ليست في آخر المطاف إلَا صنيعة أهوائنا وميولنا الشخصية. مصنع عند النهر له أنابيب أشبه بمجسَات طويلة تمتد من حول الحاجز الذي يفصله عن الماء، ومن فوقه مدخنة تنفث أبخرة برتقالية. لا ينتج هذا المصنع شيئًا خطيرًا، أو عصيًا على الفهم، فمهمَته مقتصرة على صنع بسكويت جبن التشيدر. ناقلة اجتازت بحر الشمال البني العكر آتية من روتردام حاملة ثاني أكسيد الكربون الذي يضيفونه إلى ليمونادة الأطفال حتى تصير فوَارة. كتلة مصنع كيمبرلي كلارك ذات المظهر الفولاذي الرمادي في نورثفليت، يبلغ علوَها ثمانية طوابق... كتلة تسمح ضخامتها باستيعاب حاملة طائرات، لكنها تنتج صناديق من ورق المراحيض ذي الطبقتين. ميلُنا الجمعي إلى الحلويات والمكسرات، إلى المنسوجات والمشروبات، هو ما يستدعي هذه السفن من قارات بعيدة ويبني نُصُبًا صناعية تنافس كاتدرائية سان بول.


مكتبة ياسمين

غامضةٌ هي العمليات الجارية في أرجاء الميناء؛ ولا يستطيع شخص بمفرده أن يأمل في استيعاب أكثر من شذرة صغيرة من مجموعها. لعل لقبطان واحدة من السفن سيطرة نسبيّة على تحرّك سفينته عبر تعرّجات مصب النهر؛ لكن سفينته لا تلبث أن ترسو، فيصير مراقبًا لاشتغال «هندسة المراسي» ولعمليات التبريد الطويلة للثمار الحامضية -ينتهي اختصاصه على نحو مفاجئ حيث تنتهي صلاحية خرائطه الملاحية-.

مع هذا، ومهما قد تحزننا نهاية عهد العقل التعميمي العارف كل شيء، فسوف يزيل عنا حزننا إدراك أن زماننا يتيح لنا رؤية «معلّمين» في ميادين متخصصة لا سبيل إلى مضاهاتهم: تخزين البيتومين، وإنشاء سيور ناقلة لتحميل السفن -فكرة قادرة في حدَ ذاتها على طمأنتنا، مثلما تطمئننا فكرة وجود أساتذة في الطبّ متخصّصين حصرًا في اشتغال أنزيمات الكبد البشري، أو فكرة أن في العالم (في كل لحظة) بضع مئات من العلماء منكبّون على دراسة الفترة الميروفينية المتأخرة في التاريخ الفرنسي، حتى ينشروا ما يتوصّلون إليه في «Zeitschrift fürArchäologie des


مكتبة ياسمين

Mittelalters»، التي هي مجلة أكاديمية صادرة عن قسم الدراسات الإنسانية في جامعة توبينغن.

إن التوجه الكبير صوب التخصّص موجود على المستوى الميكانيكي أيضًا. فمنطقة الميناء تغصّ بآلات لا يراها عامة الناس، بآلات ليس لها شيء من مرونة وسائل النقل العامة، كالشاحنات وعربات النقل، لكنها خالية أيضًا مما في تلك الوسائل من نقاط ضعف وقلّة حَوْل. هذه الآلات أشبه بحيوانات غريبة المظهر، أكسبتها موائِل عيشها المعزولة قدرات غير عادية -على سبيل المثال، القدرة على امتصاص الحشرات من الوحل عبر أنوفها، أو القدرة على الوقوف مقلوبة رأسًا على عقب فوق نهر يجري تحت الأرض- مع تنازلها عن قسم كبير من القدرة على الانتقال. قد تبلغ السرعة القصوى للرافعة/ الشاحنة R30XM2، التي تصنعها شركة هايستر كوربوريشين في كليفلاند في ولاية أوهايو، خمسة كيلومترات في الساعة، لا أكثر. لكنها تخطر على الأرضيات الأسمنتية داخل المستودعات المزدحمة وتتحرّك بكل ثقة، بل برشاقة جديرة براقصة باليه، وتُنزل لفافات الورق من الرفوف العليا على جانبي ممر طويل ضيّق.


مكتبة ياسمين

قد يبدو أمرًا طبيعيًا أن يثير إعجابنا ما لدى أولئك الذين استثمروا مالًا في بناء «أذرع الصناعة» هذه من صبر ومتانة أعصاب. فعلى سبيل المثال، لا بد من إنفاق مئتين وخمسين مليون دولار لإنزال هيكل ناقلة حاويات قادرة على الإبحار في المحيط الهادي إلى الماء. يُدرك المستثمرون أن ما من شيء غير قابل للاستيعاب، وما من شيء من الغطرسة المفرطة، في أن يضعوا أيديهم على مدّخرات أعمار الممرضات أو سعاة البريد، في الأمة كلَها، كي يوظَفوا تلك الأموال في تمويل إقامة مستودعات في باناما وتشييد مباني مكاتب إدارية في هامبورغ. لا يترددون في ترك أموالهم تختفي عن الأنظار عشر سنين، أو أكثر، واستيداعها بين أيدي القباطنة ومساعديهم، وتركها تجتاز مداريَ الجدي والسرطان، وتبحر مجتازة خليج لونغآيلاند والبحر الإيوني، وترسو في محطات الحاويات في عدن وطنجة، فهم واثقون من أن استثماراتهم سوف تعود إليهم آخر الأمر حاملة معها ثمار صبرهم وحسن تدبيرهم. يدرك أولئك الناس أن توظيف المال هو، في حقيقة الأمر، حصافة تقلّ مخاطرها كثيرًا عن مخاطر ترك المال خبيئًا تحت الفراش على نحو يؤدي آخر الأمر إلى خراب وافتقار.

-4-

إذًا، لماذا تظلّ سفن الشحن ومرافق الموانئ غير ملحوظة على الرغم من كل ما لها من أهمية عملية ووقع عاطفي، فلا يلحظها إلّا من هم على صلة مباشرة بعملها؟

مكتبة ياسمين

ليس السبب في ذلك مقتصرًا على صعوبة العثور عليها، ولا على ما يحيط بها من أسوار كثيرة. إن في مدينة البندقية كنائس لا تقلّ عنها انزواءً وبعدًا عن الأنظار، لكن زائريها ليسوا قلائل أبدًا. ما يجعل السفن والموانئ غير مرئية هو نوع مفاجئ من موقف مسبق يحكم على التعبير الصريح عن مشاعر الإعجاب القوية إزاء ناقلات النفط ومصانع الورق، بأنه سلوك غريب... ومثله الإعجاب الظاهر بأي جانب من جوانب عالم العمل والكدح.

إلّا أن هذا لا يفلح في صرف أنظار الجميع عنها. فعلى نهاية رصيف الميناء في غرايفسند، هناك خمسة رجال واقفون معًا تحت المطر، يرتدون


مكتبة ياسمين

سترات واقية من البلل، وأحذية ذات نعال ثخينة. إنهم صامتون، ينظرون مترقّبين إلى النهر الذي يلفّه الضباب. إنهم يتتبَعون شبحًا يتحرَك أمامهم، شبحًا يعرفون من الجداول الزمنية التي معهم، أنه سفينة «غراند نيجيريا». يعرفون أن هذه السفينة ذاهبة إلى لاغوس، وأنها تحمل قطع تبديل لسيارات فورد تذهب إلى الأسواق الأفريقية. يعرفون أيضًا أن لها محركَين اثنين من نوع «سولزر 900»، وأن طول هيكلها، من المقدمة إلى المؤخرة، يبلغ مئتين وأربعة عشر مترًا.

ما من سبب بعينه يحمل أولئك الناس على مراقبة السفينة. ليسوا مسؤولين عن تهيئة المكان الذي كانت فيه كي يستقبل السفينة التالية، ولا هم منشغلون (كحال العاملين في برج المراقبة القريب) في إعطائها بيانات المسار الواجب اتباعه في رحلة الخروج إلى بحر الشمال. لا غاية لديهم غير الإعجاب بها ومراقبة مرورها. إن في دراستهم حياة الموانئ إخلاصًا تكثر مصادفته لدى من يدرسون الفنون، فمسلكهم يوحي بأنهم مؤمنون بقدرة الإبداع والذكاء على التجلّي في عمليات نقل محاور الآلات من حول الزاوية الغربية للصحراء الكبرى، بقدر ما يتجليان في استخدام الألوان في رسم صورة امرأة عارية. على أن مرتادي المتاحف يبدون، بالمقارنة مع أولئك الرجال، أشخاصًا متقلّبين كثيرًا لأنهم يظهرون أيضًا اهتمامًا كبيرًا بالمقاهي، وانجذابًا إلى متاجر الهدايا، وميلًا إلى الاستراحة على مقاعد الحدائق. فكم يندر أن ينفق شخصٌ ساعتين كاملتين في خضم عاصفة مطرية متأمّلًا لوحة «المستحقة» لرامبراندت من غير أن يكون لديه شيء يقيته غير ترموس فيه قهوة؟


مكتبة ياسمين

يجدر الإقرار بأن مراقبي السفن لا يتعاملون مع المواضيع التي تثير اهتمامهم على نحو شبيه بما يكون لدى من يراقبون الأعمال الفنية من مخيّلة: إنهم يستعرضون الأرقام الإحصائية. اهتمامهم منصبٌ على تواريخ الرسو وعلى سرعات النقل... يسجّلون أرقام التوربينات وأطوال المحاور. يتصرَفون مثلما يتصرَف رجل غارق في الحب، يسأل رفيقته إن كان في وسعه أن يعبَر عن مشاعره بأن يقيس المسافة بين مرفقها وكتفها. لكن مراقبي السفن، عندما يحوّلون حماستهم إلى منظومة من المعلومات، لا يفعلون غير اتباع نهج له تاريخ معروف، نهج تكثر ملاحظته في العالم الأكاديمي حيث قد ينتهي الأمر بباحث في تاريخ الفنون، أثار مشاعره حدَ البكاء ما رآه في عمل من أعمال رسام من القرن الرابع عشر في فلورنسا من رقة وسكينة، بأن يكتب فقرة محكمة بقدر ما هي خالية من المشاعر يتكلَم فيها على تاريخ صناعة الأصبغة والألوان في زمن الرسَام الإيطالي جيوتو. لعل استجابتنا إلى فيض مشاعرنا بأن نتعامل مع المعلومات يظلَ أكثر سهولة من تأملنا في سؤال أكثر بساطة وسذاجة من ذلك: لماذا تحرَكت مشاعرنا، وكيف؟

لكن، ومهما يكن من شأن عدم قدرة مراقبي السفن على التعبير، فهم يظلّون منفتحين، على الأقل، على بعضٍ من أكثر أوجه زماننا إثارة للعجب: يدركون ما في عالمنا مما يستطيع أن يأسر لب طفل أو زائر من المريخ. يجدون متعة في الإحساس بضآلة شأنهم وشدَة جهلهم أمام ما في العقل الجمعي الحديث من ذكاء واسع. يقفون أمام سفينة راسية، رؤوسهم مرتدَة خلفًا حتى ينظروا إلى سواريها الفولاذية المختفية في السماء، ويرين عليهم صمت، عجبٌ


مكتبة ياسمين

راضٍ، كأنهم حجّاج واقفون أمام أعمدة كاتدرائية شارتر وقناطرها.

ليس هؤلاء الناس ممن يخجلهم أن يبدوا غريبين عما هو مألوف، إن كان هذا ما يقتضيه حب الاستطلاع لديهم. يجثون على الأرض حتى يتمكَنوا من رؤية المراوح التي تدفع السفينة. وينامون وهم يفكّرون في النقطة التي قد تكون سفينة ناقلة بعينها قد بلغتها في المحيط. تُذكّرنا شدة تركيزهم بطفلة صغيرة تتوقف وسط مركز تجاري مزدحم وتنحني، في حين ينحرف المارة في سيرهم حتى لا يصطدموا بها، كي تتفحّص قطعة «علكة» ملتصقة بالبلاط، أو كي تتأمّل الزر الذي يغلق جيب معطفها؛ تفعل ذلك بكل ما قد يبديه من اهتمام عالِم لاهوت منكبَ على أوراق مجلّد عتيق. وهم أيضًا أشبه بالأطفال إذ يقلبون الأفكار التقليدية عما يمكن أن يكون عملًا جيدًا لأنهم يضعون قيمة ما في المهنة من إثارة أصيلة قبل قيمة منفعتها المادية النسبية، وينظرون بغين محبَذة إلى وظيفة قائد الرافعة في محطة الحاويات، لأن موقعه يتيح له رؤية السفن والأرصفة كلها... تمامًا مثلما قد يصبو طفل إلى أن يصبح سائق قطار لأن هسيس أبواب عرباته الهيدروليكية يغريه، أو إلى أن يعمل في مركز بريد لأنه يحب وضع لصاقات عبارة «بريد جوي» على المغلفات الممتلئة.

يعود أسلوب مراقبي السفن في تزجية الوقت إلى عادات الرحالة في العصور السالفة، إذ يصلون إلى بلد جديد، فينزعون إلى إظهار اهتمام شديد بمخازن الغلال وقنوات المياه والموانئ والورشات، لأنهم يرون في مراقبة مجرى الأعمال أمرًا قادرًا على إثارة حماستهم بقدر ما تثيرها أشياء معلقة


مكتبة ياسمين

على جدار كنيسة - هذه استراحة من النظرة المعاصرة التي تربط السياحة باللهو ربطًا ضيقًا، فتُبعدنا عن الاهتمام بمصاهر الألومينيوم ومحطات معالجة مياه الصرف، وتفضّل عليها مباهج الاحتفالات الموسيقية ومتاحف الشمع التي يكثر امتداحها.

لقد تحرَّر أولئك الرجال الواقفون عند النهر من تلك التوقّعات وصاروا يعبّرون تعبيرًا حرًّا عن اهتمامهم بحركة الشحن وبهدير السيور الناقلة. وفي حين قد لا يرى متفرّج عادي واقف معهم على الرصيف شيئًا أكثر من ثلاث شاحنات خارجة من باحة مصنع، يرى أولئك المراقبون الرحلة العظيمة التي اجتازتها شحنة من قصب السكر البرازيلي آتية على متن سفينة الشحن فاليريا، قبل أن تتحوّل إلى سكّر وتخرج من مصنع «تيت آند لايل» لتكرير السكر في سيلفر تاون، متّجهة إلى مؤسسة في ديربي مهتمة بصنع الكيك بالزبيب. إن الرضا الذي تجعلهم رؤية الشاحنات يحسّونه شبيهًا بما يعيشه عالِم طيور يلمح في منظاره المقرّب مخلوقًا قد لا يرى فيه معظم الناس شيئًا أكثر من أنه واحد من الطيور ذات اللون الرمادي الضارب إلى الزرقة؛ لكن رؤيته تجعل ذلك العالم فرحًا برؤية أول ظهور ربيعي لـ«عصفور الصفصاف»، إذ بلغ ختام رحلة امتدت أربعة آلاف ميل من موئله الشتوي إلى الأراضي المستنقعية في ساحل العاج.

-5-

ما أجهل أكثرنا مقارنة بمن يقفون ومن حولهم آلات وعمليات جارية لا نكاد نفهم منها شيئًا، نحن منْ لا يعرفون شيئًا عن الروافع الجسرية وناقلات فلزات الحديد الخام، نحن الذين لا يرون في

الاقتصاد إلّا مجموعة أرقام، ويتجنّبون إلقاء نظرة متفحّصة على لوحات مفاتيح التحكّم بالطاقة الكهربائية ومخازن الغلال، ويعفون أنفسهم من أية معرفة وثيقة ببروتوكولات التصنيع الخاصة بكابلات الفولاذ المرنة. ما أكثر ما نستطيع تعلمه من الرجال الواقفين عند آخر رصيف المرسى على أطراف لندن.

هم مبعث فكرة هذا الكتاب، الذي يأمل مؤلفه في أن يكون له بعض الأثر مثل ذلك الذي يكون لواحدة من لوحات مدن القرن الثامن عشر، التي تُبيّن بشرًا منهمكين في أعمالهم إلى جوار رصيف أمام معبد، أو في ردهة مكتب محاسبة... لوحات بانورامية مثل لوحات الرسام كاناليتو التي يستطيع المرء أن يرى فيها، داخل إطار عملاق واحد، عمالًا ينقلون أكياسًا، ومساومات تجري بين التجار في الساحة الرئيسية، وخبازين يقفون أمام أفرانهم، ونساء يعكفن على الخياطة عند نوافذهن، وجماعات من كبار الموظفين في قصر من القصور - مشاهد شاملة تفيدنا في تذكّر الموضع الذي يحدده العمل لكل منا ضمن الخلية البشرية الواحدة.

ولدت رؤية الرجال على الرصيف في نفسي فكرة


مكتبة ياسمين

محاولة تأليف نشيد من أجل ذكاء مكان العمل الحديث، من أجل فرادته وجماله وأهواله، وكذلك من أجل زعمه الكبير بأنه قادر على إمدادنا، إلى جانب الحب، بالمنبع الأهم لمعنى الحياة.

# الفصل الثاني
# الخدمات اللوجستية

# أ: مركز لوجستي

## -1-

قبل قرنين اثنين، كان أسلافنا يعرفون تاريخ وأصل كل واحد تقريبًا من تلك الأشياء محدودة العدد، التي يأكلونها ويمتلكونها، فضلًا عن معرفتهم ما استخدم في صنعها من أدوات، ومن اشتغل بها من أشخاص. كانوا على معرفة بالخنزير، وبصانع السجاد، وبالحائك، والنول، وبمن تحلب البقرات. لعل عدد السلع التي صار شراؤها متاحًا قد شهد زيادة متسارعة كبيرة منذ ذلك الزمن، لكن فهمنا أصول تلك الأشياء تراجع حتى كاد يصير جهلًا تامًا. لقد صرنا الآن أصحاب مخيّلة منقطعة الصلة بصنع سلعنا وتوزيعها بقدر ما صارت تلك السلع يسيرة المتناول علينا... عملية اغتراب سلبتنا فرصًا كثيرة جدًا للعجب والامتنان والإحساس بالذنب.

إن لميدان النشاط المعروف بـ«الخدمات اللوجستية» صلة وثيقة بكلٍّ من افتقار مخيلتنا واغتنائنا من الناحية العملية. كلمة «لوجستيات» مستمدَة من لقب عسكري إغريقي قديم هو «لوجستيكوس»: الشخص الذي كان مسؤولًا عن تزويد الجيش بالطعام والسلاح. واليوم، صار المصطلح مستخدمًا في الإشارة الجفعية إلى نشاطات التخزين والتغليف والجرد والنقل، ذلك القطاع الذي كان من أعظم إنجازاته «الممر المبرّد» بين أفريقيا وأوروبا، أي الممرَ الذي ترتحل عبره الأزهار والورود والخضار، وكذلك مركز «FedEx» في مدينة ممفيس بولاية تينيسي، وظهور الصندوق المصنوع من الورق المقوى المموّج.

-2-

في وسط إنكلترا، على مسافة أميال معدودة جنوب غربي نهر آڤون، على مقربة من قصر الملك جيمس الأول في «هولندبي هاوس»، تنتصب مجموعة من خمسة وعشرين مستودعًا ضخمًا رمادي اللون - إنها من ذلك النوع المألوفة رؤيته في الأمم الصناعية كلها، ذلك النوع الذي يكثر على جوانب الطرق ومن حول المطارات، لكنه نادرًا ما يفصح للناظر عن شيء، فصمته كفيل بأن يصدّ ما يمكن أن يثيره من فضول أو استياء. تشكّل هذه المستودعات معًا واحدًا من أكبر «الحدائق اللوجستية» في أوروبا، وأكثرها تقدمًا من الناحية التكنولوجية. إنها تقع على مقربة من ثلاثة شرايين مركزية، أي من الطرقات السريعة: M1 وM6 وA5؛ ولا تبعد عن ثمانين بالمئة من سكان المملكة المتحدة إلّا مسيرة مسافة أربع ساعات بالسيارة. وفي كل أسبوع، تمرّ عبر هذه المستودعات نسبة لا يستهان بها من إمدادات المملكة المتحدة من مواد البناء، والأغذية، والقرطاسية، والكومبيوترات. يجري أكثر هذا النشاط في ساعات الليل.


مكتبة ياسمين

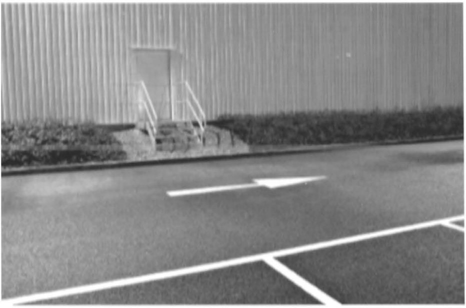

على الرغم مما لها من أهمية كبرى، لا تبدي المستودعات أية رغبة في الإعلان عن نفسها أمام الجمهور. إنها منتشرة على مساحة تخلو خلوًا مقصودًا من أي تلوين. ولا شيء فيها غير تدرّجات هيّنة، وأشجار تزيينيّة، ومساحات من عشب ذي خضرة تبدو غير طبيعية. لا يظهر على المستودعات أي انشغالٍ بمشكلات فنّ العمارة وممكناته. لا تبالي إلّا بالحجم. يرفع المرء رأسه ناظرًا إلى سقوفها التي تشبه سقوف الكاتدرائيات فلا يجد فيها ملائكة، بل امتداداتٌ عمليةٌ اقتصادية من فولاذ، تتخلّله خطوط مصابيح النيون التي تقود عينَيّ الناظر عائدة بهما إلى صفوف من رفوف متوازية، وإلى حركة الرافعات الشوكية التي لا تهدأ أبدًا. قد يثير ما في مظهر هذا المركز اللوجستي من عري وافتقار إلى التلاوين، قدرًا من الريبة في شأن أهمية ما نراه أمام أعيننا. نقبل أن تُقدم المتاحف على تخصيص مبالغ طائلة لاقتناء لوحات شاعرية رقيقة تعود إلى بدايات فنّ الرسم الهولندي، لوحات لا تتجاوز الواحدة منها مساحة كتاب كبير الحجم، لكننا لا نرى إفراطًا أو طيشًا في تكريس مساحات كبيرة من الأراضي في كوكبنا من أجل المصالح الفلحة لرجال من شركة «جونز لانج لاسال» العقارية، لأن لدينا


مكتبة ياسمين

تمنعًا غريبًا عن الإقرار بأننا قد نتأثر داخليًا -آخر الأمر- بمشهد منطقة المستودعات البالغة خمسة كيلومترات مربعة مقتطعة من نورثامبتونشاير، بقدر ما نتأثر داخليًا بالنظرة الحانية للعذراء في لوحة طولها عشرون سنتمترًا في مرسم روجييه فان در ڤايدر.

على أن من شأن الاقتصار على وصف المركز اللوجستي بأنه قبيح أن يكون ضربًا من ضروب الغباء، وذلك لأن فيه كل ما نجده في أماكن العمل في عالمنا الحديث من جماليات مفزعة مفتقرة إلى الروح.

فوق واحد من المنحدرات الواقعة على محيط الموقع، مطعم مطلٌ على طريق سريعة ذات ستة مسارب. مطعمٌ رواده من سائقي الشاحنات ممن انتهوا من إفراغ حمولاتهم، أو ممن هم في انتظار استلامها. وفي وسع كل من يحسّ قدرًا من عدم الرضا إزاء الحياة المنزلية أن يجد السلوى في هذه الكافيتريا المبلّطة، ساطعة الإنارة، التي تفوح بروائح المأكولات المقليّة والوقود؛ وذلك لأنها تبثه إحساسًا مطمئنًا بمكان ليس فيه غير أشخاص عابرين - فهو مكان خالٍ من الجو البهيج، أو الحميم،


مكتبة ياسمين

القادر على فضح ما يحسّه المرء من اغتراب. يقدَم المكان نفسه بوصفه موقفًا مثاليّا لأن يتناول فيه من خذلتهم أسرهم وتخلَت عنهم عشاء عيد الميلاد. هنا، يستطيع الزوار أن يتجولوا بين ممرَات بوفيه الخدمة الذاتية السخيَ، وأن يضعوا في الصواني فطائر السمك مع شطائر البيتزا الغنية بالجبن، أو مع شطائر الهامبرغر بالكاري، من غير أن يجعلهم حجم اختيارهم أو غرابته يشعرون بأي حرج يحول بينهم وبين التوجّه صامتين إلى واحدة من طاولات البلاستيك الصفراء، واختيار موقع عند النافذة مشرف على سيل متواصل من مصابيح السيارات الخلفية الحمراء كالعقيق في الخارج.

تكثر أعمال الإصلاح في هذه المقاطع من الطرق السريعة فتبطئ الحركة فيها إلى ما يقارب السكون، وتسمح لعينَيَ المرء بمتابعة التزايد المتدرَج لشاحنات سكانيا وإيفيكو الحاملة لكميات صناعية من سلع لا ترى العين منها عادة إلَا أشياء في المنزل: ألواح الشوكولاته، وحبوب الإفطار، والمياه المعلّبة، والوسائد، والمارغرين... شاحنات كلّها تمضي بطيئًا في ظلمة الليل، متوجّهة شمالًا. إن في هذا المشهد شيئًا مما تسعفنا به رؤية نهر من مواساة لنفوسنا: قد يفلح التعاقب المستمرّ للظلال والتيارات في انتشال الناظر إلى النهر من مزاج راكد. هي الحياة نفسها تجري أمامنا، تجري بأكثر تجلّياتها اندفاعًا ووحشية وأنانية، مفعمة بتلك الإرادة اللامبالية نفسها التي تسوق انتشار البكتيريا وتكاثر الحياة النباتية في الأدغال.

## -3-

تكون العمليات جارية على أشدَها في المركز اللوجستي خلال الليل؛ وتكون أكثر وضوحًا عندما


مكتبة ياسمين

يظهر القمر، فيتساءل عن مغزى خدمات النقل ذات الكفاءة العالية. يتساءل من وجهة نظر «كوكبية» مثلما يتساءل من وجهة نظر «الأبدية»، برج كنيسة رشيق مبني أواخر القرن الرابع عشر، ظاهر كأنه سهم أسود داكن منتصب خلف الناحية الأخرى من الطريق السريعة.

اعتدنا أن يكون حلول الليل الساعة التي يقرَ فيها بنو جنسنا بمحدوديتهم الجسدية، فيتجمَعون محاولين تخفيف خوفهم من الساحرات والأشباح. على أن المركز اللوجستي لا يبدي أي تنازل أمام هذا الضعف البشري، ولا أمام عالم الأرواح وأولوية إيقاع سير الطبيعة. تضيء المصابيح الكاشفة كي تعوَض عن انسحاب الشمس من السماء، فيغمر المنطقة ضياء ليليَ برتقالي من ذلك النوع الذي نراه في المطارات وفي المواقع العسكرية. قبل الساعة السابعة، ينزل العاملون من الباصات في منطقة الاستقبال المركزية. وفي هذا الموقع، الذي كان في ما مضى حقول قمح وشعير، تنتظر المستودعات شحنات من آلات جزّ العشب، ومقاعد للتمرينات الرياضية، ومشاوٍ للحوم. لا يرى المسافرون بسياراتهم على الطريق إلَا توهَج الإنارة في تلك الباحات آتيًا عبر الضباب، وقد يجوز أن يُغفر لهم تجاوُزهم عن الطبيعة الخبيثة للعمليات الجارية في هذه الساعة المتأخرة.

يعطي العمل الجاري هناك أكثرنا دورًا سلبيًا، دور المتلقي، مع أننا مستفيدون منه من غير أن ندري. نستلقي في أسرَتنا، ونتقلَب يمنة ويسرة، بعض الوقت، ثم نغرق في النوم وتنفتح أفواهنا من غير حول، في حين يكون جاريًا تحميل أسطول من الشاحنات بالقسط الأكبر من حليب الصباح نصف


مكتبة ياسمين

المقشود، الذاهب إلى شمال إنكلترا. تذكَر مشاهدة نشاطات المركز اللوجستي الجارية في الليل بتلك اللحظات في الطفولة، عندما نستيقظ بعد منتصف الليل ونسمع من خلف أبواب غرفنا وقع خطوات تخالطه أصوات أخرى... لعل أباءنا وأمهاتنا يعيدون ترتيب الانية، أو قطع الأثاث. نستمد من هذا شيئًا من القدرة على فهم ما ينطوي عليه النظام النهاري في بيوتنا من عناء.

-4-

أكبر المستودعات في المركز اللوجستي ملك لسلسلة متاجر سوبر ماركت. يتلقى المستودع، على امتداد الليل، شحنات من الإمدادات الغذائية، فيعيد تجميعها من أجل إيصالها في وقت لاحق إلى المتاجر المتوزعة في أرجاء البلاد. عادة ما تضم ممرات أي سوبر ماركت متوسط الحجم نحو عشرين ألف سلعة، أربعة آلاف منها مبرَدة ولا بدَ من استبدالها كل ثلاثة أيام، في حين يتعيَن تجديد ستة عشر ألفًا منها في غضون أسبوعين. هناك خمسون بوابة تحميل على امتداد المبنى، بوابات تفد الشاحنات إليها وتغادرها بمعدل شاحنة واحدة كل ثلاث دقائق.

في الداخل، يدور العاملون بين الرفوف، ويضعون السلع على سيور آلية الحركة تأخذها إلى صفوف من سلال معدنية مرصوفة خلف بوابات التحميل، حيث تنتظر نقلها إلى جملة من وجهات ذات رموز غامضة. يشير الرمز «02093-30» إلى بلدة فيها كاتدرائية صغيرة ومسرح ومخمر جعة. مكان حلَ فيه جيش البرلمان إبان الحرب الأهلية، ولا يزال يحتفظ ببضع الساحات الجورجية الجميلة. بلدة لا ينتبه أكثر أهلها إلى سيارة شاحنة عليها ذلك الرقم

تأتي لزيارتها، عابرة منطقة «بينايِن هيلز» حاملة إليها الجبن الهولندي، والجيلي الأحمر، ومعجنات الأسماك، وأضلاع الخرفان.

تجري مكونات «النظام الغذائي على امتداد البلاد» في أرجاء المبنى محمولة على سيور ناقلة عالية عن الأرض: ثلاثون صندوقًا من الفاكهة ذاهبة إلى «نورثفليت»، وألف ومئتان من أفخاذ الدجاج من أجل «هامز هول»، وستون صندوقًا من الليمونادة من أجل «إلستري». بعد أن كان بنو البشر منحصرين ضمن «فئات غذائية» لا تقل صلابة عن فئاتهم الدينية، وبعد أن كانوا موزعين إلى «شعوب الأرز» و«شعوب القمح» أو «شعوب البطاطس» و«شعوب الذرة»، باتوا قادرين الآن على ملء بطونهم بخليط غذائي لم تكن أذهانهم قادرة على تخيّله.

الزمن هو الجوهر هنا. في أية لحظة بعينها، لا تفصل بين نصف كمية المواد الموجودة في المستودع، وبين موعد تلفها أكثر من اثنتين وسبعين ساعة: مصير يستدعي صراعًا متواصلًا في مواجهة تحدّيات العفن والمسافات الجغرافية. كميات من ثمار الطماطم التي لا تزال متّصلة بعروقها، نضجت وأينعت في حقولها القريبة من


مكتبة ياسمين

باليرمو خلال عطلة نهاية الأسبوع، تخلت الآن عما رسمته لها الطبيعة من مصير، كي تحاول العثور على من يشتريها في أطراف اسكوتلندا الشمالية قبل حلول يوم الخميس.

نفاد صبرٍ مماثلٍ نراه واضحًا في قسم الفاكهة أيضًا. لعل العثور مصادفة على حفنة من ثمار التوت البري تحت أجمة من الأجمات، أواخر الصيف، كان كفيلًا بأن يسعد أسلافنا، وبأن يجعلهم يرون في تلك اللقية إشارة إلى سخاء مفاجئ من خالق عليّ. لكننا صرنا بشرًا معاصرين عندما أقلعنا عن انتظار هبات السماء العارضة تلك، وسعينا إلى الحصول على أي إحساس ممتع من غير تأخير، وإلى جعله متاحًا لنا في أي وقت.

نحن في أوائل شهر ديسمبر، في ممر وسط المستودع: اثنا عشر ألف ثمرة فراولة حمراء كالدم تنتظر في شبه ظلمة. أتت هذه الثمار يوم أمس بالطائرة من كاليفورنيا، فاجتازت الدائرة القطبية الشمالية في ضوء القمر، راسمة في السماء ذيلًا من أكسيد النتروجين في سماء سوداء وذهبية. لن يسمح السوبر ماركت بعد الآن لدوران الأرض من حول محورها بأن يؤخر وصول ما يشتهيه جمهوره من أطايب: ترتحل ثمار الفراولة آتية من إسرائيل وسط الشتاء، وآتية من المغرب في فبراير، وآتية من إسبانيا في الربيع، وآتية من هولندا أوائل الصيف، وآتية من إنكلترا نفسها في أغسطس، ومن حقول واقعة خلف مدينة سان دييغو بين سبتمبر وعيد الميلاد. الفاصل الزمني بين لحظة قطاف هذه الثمار ولحظة بدء ذبولها وظهور العفن عليها لا تتجاوز ستًا وتسعين ساعة. عدد لا يُحصى من بشر راشدين يضطرون إلى التغلب على كسلهم،

إلى نقل الصناديق في المستودعات، إلى الانتظار في شاحنات تزمجر محركاتها في زحمة الطريق حتى ينحنوا مذعنين أمام المتطلَبات الصارمة التي تفرضها عليهم هذه الثمار الرقيقة سريعة العطب.

لولا احتلال المخاوف الأمنية موقعًا متقدمًا في عقول المالكين، لكانت المستودعات قادرة على أن تصير وجهة سياحية ممتازة؛ وذلك أن مراقبة حركة الشاحنات والمنتجات منتصف الليل تشيع جوًا من سكينة متميزة، فهي ذات قدرة سحرية على تهدئة مطالب الذات الأنانية، والوقاية من تحليق خيالات المرء أكثر مما ينبغي لها أن تحلَق. تظلَ حقيقة أن كل واحد منا محاط بملايين البشر الآخرين معلومة جامدة، لا تستحضر أي مشاعر ولا تستطيع تحريرنا من عبء النظرة اليومية المتركزة على الذات... إلى أن نلقي نظرة على كدس من عشرة آلاف من سندويتشات اللحم والخردل، موضَبة كلها في أغلفة متماثلة من النايلون ومحضَرة في مصنع في «هول»، مصنوعة كلها من خبز أبيض كبياض القطن، سندويتشات سوف يأكلها خلال اليومَين القادمَين جمع كبير من مواطنينا. هذه السندويتشات قادرة على أن تستحثنا سريعًا كي نفسح متسعًا لها في مخيلاتنا المفرطة في تركيزها على دواخلنا.

هذه المخازن العملاقة دليل على أننا صرنا، بعد جهد تواصل عدة آلاف من السنين -في العالم الصناعي، على أقل تقدير- الحيوانات الوحيدة التي أفلحت في التخفف من قلق البحث عن مصدر الوجبة التالية، فانفتحت أمامنا مُتسعات جديدة من الوقت، صرنا فيها قادرين على تعلم اللغة السويدية أو إجادة الحساب، أو التفكير في مدى صدق علاقاتنا، لأننا أضحينا قادرين على تفادي الموجبات


مكتبة ياسمين

المرهقة الضرورية، الموجبات التي تحتّم وضع الغذاء في المقام الأول، أي تلك الموجبات التي لا يزال البطريق الملكي وغزال المها العربي رازحين تحت وطأتها.

إلّا أن عالم الوفرة هذا، عالم بحار النبيذ وجبال الخبز، لا يزال بعيدًا عن تلك المنزلة النشطة الفرحة التي كان أسلافنا يحلمون بها في سنوات المجاعة في العصور الوسطى. تُمضي ألمع العقول أعمارها المنتجة كلها في تبسيط وظائف فيها قدر غير منطقي من الابتذال، أو في تسريعها. يكتب المهندسون أطروحات في سرعات آلات التصوير الضوئي، ويمضي الاستشاريون أعمارًا مهنية كاملة في تطبيق مفاهيم الاقتصاد الصغريَ على حركات من يضعون السلع على الرفوف وحركات مشغَلي الرافعات الشوكية. ليست المشاجرات تحت تأثير الكحول، تلك المشاجرات التي تندلع في بلدات الأسواق أمسيات السبت إلّا أعراضًا يمكن التنبؤ بها لحنقنا إزاء شعورنا بأننا محبوسون. هي تذكرة بالثمن الذي ندفعه لقاء ركوعنا اليومي أمام مذبح الحصافة والنظام - وهي تذكرة بالغضب الذي يتراكم بطيئًا من تحت سطح له مظهر فريد من مظاهر الانصياع والالتزام بالقانون.


مكتبة ياسمين

## -5-

تهيمن في الناحية الشرقية من المستودع مجموعة «موسوعية» من ساكني عالم المحيطات. فعلى رفوف في وسط الريف الإنكليزي، أكداس من أسماك ماكاريل المناطق المتجمّدة آتية من أستراليا، وأكداس من كركند الصخور الأحمر من المكسيك، فضلًا عن أسماك الـ«هوكي» من نيوزيلندا، والـ«ماهي ماهي» من الإكوادور، وأسماك «الراهب» من كوستاريكا.

أن نتأمّل تعابير وجوه هذه الكائنات، وجوه نبيلة أو مكشَرة أو قبيحة أو حكيمة أو مخيفة، على التتابع، يعني أن نخرج من مسار اهتماماتنا العادي، وننتبه إلى أن لنا شركاء في ملكية هذا الكوكب: كائنات متميزة حكمنا عليها بأن ينتهي وجودها تحت شرائح الليمون لا لذنب اقترفته، بل لأنها غنية باللحم الخالي من العظام الصغيرة.

كيف وجدت الأسماك طريقها إلى هذا المكان؟ كيف تم اصطيادها؟ من قام بتغليفها؟ وعلى نحو أكثر تحريضًا للمخيلة، ماذا يمكن أن يكتشف الرسام عندما يرسم جلود الماكاريل، أو يمكن أن يعثر عليه المهندس إذا تفحّص مخالب كركند الصخور


مكتبة ياسمين

الحمراء؟ مُتضمّن في هذا السؤال فشلنا العام في تقدير اهتمامات عالم العمل وما فيه من جمال عارض.

ألاحظ رفًا فيه أكداس من شرائح التونة الطازجة. مكتوب على أغلفتها «تم صيدها بالصنارة في جزر المالديف»... زعم بليغ، موجع، مثل نقش على شاهدة قبر. أسماك مستخرجة من المياه تبعد عنا عدَة قارات يمكن أن تصير هنا، في غضون ساعات معدودة، في مستودع في نورثامبتونشاير. هذا دليل واضح على العبقرية اللوجستية القائمة على تضافر معقّد للتكنولوجيا والضبط الإداري والقانوني والتوحيد القياسي على المستوى الاقتصادي.

ما يحيّرني ويستفزّني هو الصمت الذي يكاد يكون صمتًا تآمريًا، في ما هو متصل بهذا الإنجاز. ومع مرور الوقت، تتولَد في نفسي رغبة في أن آخذ سمكة وأتتبَعها رجوعًا إلى المحيط، لكن بخطوات أكثر تأنيًا. بطبيعة الحال، يمكن أن آخذ سلعة أخرى: قد أتتبَع لفافة من صفائح الفولاذ رجوعًا من مصنع سيارات في بافاريا، إلى ساحة خردة في الصحراء الأسترالية، أو أتتبَع بالة قطن من منسج في المكسيك، حتى أصل إلى الحقول المروية في دلتا النيل. مع أن للدروس المستمدة من شرائح التونة تفاصيلَ خاصَة بها وحدها، فإن من بينها دروسًا عامة عن قيمة السباحة رجوعًا بغية مراقبة الرحلات الملحمية المنسية التي تجتازها تلك الصناديق، وبغية الشهادة على حياة المستودعات السرَية بما يخفف وقع ذلك الإحساس المميت، الحديث على نحو فريد، بالانفصال المكاني بين الأشياء التي نستهلكها استهلاكًا طائشًا في مجرى حياتنا اليومية وبين أصولها المجهولة وصانعيها


مكتبة ياسمين

المجهولين.

قرَرت أن أبني قصة رحلتي على الصور، لأن فيها تفاصيل كثيرة من الواضح أن ميدان الخدمات اللوجستية يفتقر إليها افتقارًا كبيرًا. تأتي في ما يلي مقالة مصوَرة لا هدف لها أكثر من إحداث تغيير -حتى إن لم يدم إلَا ثانية أو ثانيتين- في المسار الذي قد تتخذه أفكارنا عندما نرى، في مرَة قادمة، سلعة نُقلت على نحو غامض بسرعة لا يكاد العقل يستطيع تصديقها، نقلت في ظلمة الليل من أقصى العالم إلى أقصاه.


مكتبة ياسمين

## ب: رحلة لوجستية

يصعب تتبع رحلة الأسماك من غير شيء من الشعور بالإذلال. لا يرغب أحد في فتح الأبواب أمام الكتّاب الذين لا يأتون بالمال، فضلًا عن احتمال تسبّبهم في إثارة المشكلات. فحتى في زمن تزايد الشفافية السياسية، تظل الشركات غير راغبة في أن يأتيها مراقبون من خارجها. إن من شأن المحاولات الرامية إلى تتبّع كيفية وصول أسماك المياه الدافئة إلى موائدنا -ناهيك عن رؤية هذه العملية أو تصويرها- قادرة على أن تثير في هذا القطاع قدرًا من الشكوك يشبه كثيرًا ما كانت تواجهه محاولات استطلاع خبايا الإتجار بالعبيد في ثمانينيات القرن الثامن عشر. تواصلت مع خمس عشرة شركة تستورد مأكولات بحرية. كانت في ردهات مداخل ثلاثٍ منها تماثيل لأسماك المارلين. رفضت تلك الشركات كلّها مناقشة شيء مما يخصّ شبكاتها اللوجستية.


مكتبة ياسمين

بدا لي أن ما من سبيل أمامي غير أن أيمّم وجهي صوب المحيط الهندي أملًا في العثور على ضالتي هناك. وصلت مع المصوّر إلى عاصمة جزر المالديف، ماليه، ونزلنا في فندق «ريلاكس إن» حيث وجدنا أننا غير قادرين على طاعة تعليمات من يديرونه. لم نستطع التوصّل إلى شيء خلال الأيام الخمسة الأولى. وحتى نقتل الوقت الفاصل بين موعد عقيم وموعد عقيم آخر، تجوّلنا في المدينة، وزرنا المساجد والنصب التذكارية الوطنية. اكتشفنا خلف «مقهى النورس» مقبرة صغيرة مخصصة لمن ماتوا أثناء قضاء عطلاتهم هنا. كان أكثرهم من النرويج وألمانيا وإنكلترا. لم تبق جثامينهم هنا لأن بلدانهم لم ترحّب بها، بل لأن أقرباءهم أرادوا لهم قضاء حياتهم الآخرة في أرض أكثر لطفًا من بلادهم المتجمّدة التي يلفّها الضباب. تحتفي المقبرة بمن أفلحوا في الموت هنا، لكنها تحتفي أيضًا بعدد غير صغير ممن تمنّوا كثيرًا أن يحذوا حذوهم، لكن الأمر انتهى بهم إلى أن يرقدوا في أماكن أخرى حيث قد تكون حياتهم قد انتهت على يد واحد من الفيروسات الكثيرة التي تستوطن سهوب أوروبا الغارقة بالمطر أواسط الشتاء.

مكتبة ياسمين

بمساعدة من حلاق ذي صلات واسعة، ابتسم لنا الحظ واستطعنا تأمين موعد مع وزير الأسماك نفسه، عبد الله نصير، الذي عاد إلى البلاد مؤخرًا بعد زيارة رسمية إلى المملكة المتحدة. استقبلنا الوزير، الذي كان ينتعل حذاء من جلد التمساح، استقبالًا وقورًا فيه إدراك واضح لسلطاته الواسعة، لا على حياة الأسماك وحدها، بل على حياة من يصطادونها أيضًا. استمع إلى قصتنا بكل صبر، ثم صاح ملقيًا أوامره على موظفيه في الغرفة المجاورة، وعرض علينا ترتيب لقاء مع واحد من مصدَري الأسماك، فضلًا عن جماعة من الصيادين في الجزر الشمالية.

في طريق خروجنا من مكتبه، ناولنا الوزير عددًا من بطاقاته الشخصية، سامحًا لنا بأن نشهرها في وجه من قد يتسبَب في أية عرقلة لجولاتنا في أرجاء إقطاعته على الجزيرة التي تحرسها الشرطة حراسة مشدَدة. لم أدر كيف أعبر له عن امتناني، فاقترحت عليه أن نشرب الشاي معًا عندما يزور لندن مرَة أخرى.


مكتبة ياسمين

ارتحلنا إلى جزيرة مرجانية تامّة الاستدارة قطرها كيلومتر واحد وهي الجزيرة الثانية من الناحية الشمالية من سلسلة جزر المالديف. عندما تنظر إليها من الجو، يسهل كثيرًا أن تظنها موقع منتجعات سياحية. لكنك لا تلبث أن تلقي نظرة قريبة، فترى أنها خالية مما يستلزمه ذلك من فيلات على شاطئ البحر ومنتجعات وأزواج آتين من بادن فيرتمبرغ بغية تجديد عهود زواجهم. ليس في الجزيرة شيء غير أكواخ مبنية من اللّبن المجفّف، وخزانات مياه احتياطية مقدمة من منظمة اليونيسيف، وذباب، ومدرسة مكوّنة من غرفتين تولّى تمويل إنشائها مسجد في المملكة العربية السعودية، ومتجر واحد. قالوا لنا عند وصولنا إن وصول مجموعة الصيادين التي سنرافقها سوف يتأخر لأن الزورق قد تعطّل في البحر. نتيجة هذا، أمضينا ثلاثة أيام طويلة طولًا يصعب تصديقه في كوخ صفيحي شديد الحرارة مجهز بسريرين معدنيين قابلين للطي وصنبور مياه، وفي التفكّر في أحوال حياة الجنادب وفي حزن الجزر الصغيرة. كثيرًا ما كنا نجثم تحت شجرة في أرض الجزيرة القاحلة، حيث تبلغ الحرارة خمسًا وثلاثين درجة في الظل، ترقبنا صورة رئيس المالديف، مأمون عبد القيوم، الدكتاتور، الشاعر،


مكتبة ياسمين

السياسي الإسلامي الذي تنتصب صوره، بقوة القانون، مراقبة كل شخص في جزر البلاد المأهولة البالغ عددها مئتي جزيرة... رئيس يشبه مظهره أبي الراحل، يشبهه على نحو غريب.

عندما تأتي أوقات تناول الطعام، يختفي السكان المحليون في بيوتهم كي يقلوا أنواعًا من الأسماك في جوز الهند والبصل. ولما كنا من غير التجهيزات الضرورية لإعداد الطعام، فقد اعتمدنا على ما هو متوفَّر في المتجر المحلي بشكل أساسي -المتجر الذي صاحبه صديقنا الوحيد-، لأن العثور على «أرواح شقيقة» مهمَّة صعبة في المجتمعات الصغيرة. بسكويت بالشوكولا وقت الفطور، ومايونيز مع الطعام المعلَّب على الغداء، وذرة حلوة مع الكاتشب لوجبة العشاء.


مكتبة ياسمين

تم آخر الأمر إصلاح المحرك، وانطلقنا خارجين إلى البحر. مركب الصيد بقيادة القبطان إبراهيم رشيد البالغ ثلاثة وثلاثين عامًا، وله خمسة أطفال تعتمد حياتهم على قدرته على معرفة كيفية العثور على خمس عشرة سمكة تونة كبيرة وضربها بالهراوات حتى الموت خلال الساعات الأربع والعشرين التالية. لم يدخل معجون الأسنان جزر المالديف إلَا في وقت متأخر. لكن عادة تنظيف الأسنان ترسّخت هناك على النحو الذي يتمناه مديرو شركة «كولجيت بالموليف»، وكان ذلك عائدًا في جزء منه إلى حملة إعلانية تلفزيونية تُظهر سمكة قرش لامعة الأسنان. أنبوب معجون الأسنان جاثم على رف في واحدة من قمرات الزورق فيها مطبخ ومرحاض. جاء وقت الإفطار فانضممنا إلى طاقم القمرة الرئيسية وتناولنا معهم وجبة طازجة، كانت أول وجبة حقيقية نتناولها منذ أيام كثيرة، أذرع الأخطبوط. ذعينا بعدها إلى مشاركتهم مضغ أوراق نخيل الاريكا.


مكتبة ياسمين

بعد وجبة الإفطار، جاءت سلسلة من ألعاب الورق. لا تزال أمام أسماك التونة التي تحتنا بضع ساعات قبل أن تفارق حياتها على هذا المركب. لا يجوز الافتراض انطلاقًا من هذه الصورة أن الكاتب ليس من محبّي معاشرة الناس ومودّتهم، ولا أنه غير قادر على اتخاذ موقعه رجلًا لرجل (هذا ما يظنّه الناس بالمثقفين أحيانًا)، بين بحارة المحيط الهندي الجهلة الذين يتبادلون نكاتًا بلغة إندو- سنسكريتية غير مفهومة. كل ما في الأمر هو أنه في حالة انشغال ذهن بالضرورة التي تتطلب تلك النظرة البعيدة والتركيز الشديد، اللذين كثيرًا ما يصاحبان محاولات كبت الإسهال الناجم عن التهاب معوي.

تجولنا في البحر ساعات من غير أمل. ثم ظهر بُعيد الساعة الحادية عشرة صباحًا -أي وقت الفجر

مكتبة ياسمين

في المستودع وسط إنكلترا- سرب من أسماك التونة ذات الزعنفة الصفراء تقترب من ناحية الشرق، سابحة في تشكيلة تشبه حرف V: الأسماك الأكبر سنًا، الأكثر ثقة، على الجانبين الخارجيّين، والأسماك الأصغر سنًا في الداخل. يتحرَك السرب بسرعة خمسين كيلومترًا في الساعة في طريقه إلى الصومال قادمًا من سواحل إندونيسيا. لما كانت أسماك التونة من غير المثانة الهوائية على غرار بقية الأسماك، فلا خيار أمام هذه المخلوقات التعيسة غير متابعة الحركة من غير انقطاع. لا تستطيع التوقّف والانقطاع وترك التيار يحملها معه مثلما تفعل أسماك الهامور لأنها ستغرق، إن فعلت ذلك، وتموت في قاع المحيط. ثم إنها تصير أكثر جاذبية للإنسان نتيجة ذلك الجهد المستمر الذي تبذله، لأن مواصلتها تحريك زعنفة الذيل طيلة العمر تنمِي عضلاتها وتجعل لحمها ألذ مذاقًا. تنطلق صيحة على المركب. لقد ابتلعت الطعم، الذي هو سمكة ماركيل، واحدة من أسماك التونة التي واضح أنها سمكة كبيرة ثقيلة الوزن، سمكة عاشت خمس سنين من الإبحار المتواصل من غير أن تعترضها أية مشكلة. بعد خمس عشرة دقيقة، ظهرت السمكة عند حافة المركب، ظهرت مذعورة غاضبة تضرب جدار المركب بذيلها. وزنها خمسون كيلوغرامًا، وتحاول تحرير نفسها من الكابل الذي يمزق حنكها. لكنها غير قادرة على رجلين واقفين فوقها، من الجهتين، يمدان في الماء خطافين فولاذيين ويرفعان السمكة بهما إلى سطح المركب مطلقين صيحة انتصار. ثم حلَ هرج ومرج.


مكتبة ياسمين

لم تعرف سمكة التونة قبل الآن هذا البعد عن الماء، ولم تر ضوء النهار متألقًا هكذا. لكنها تعرف بالغريزة أن هذا الهواء الكثير سيخنقها. على الصيادين أن يمنعوا السمكة من ضخ دم كثير في عروقها لشدة ذعرها، حتى لا يسودَ لحمها فيصير من غير قيمة، لأن مظهره في طبق الطعام ليس جذابًا. لذا، يحصر شقيق القبطان السمكة بين قدميه المنتعلتين حذاء مطاطيًا طويل الرقبة، ويرفع يديه عاليًا بهراوة تشبه ما كان يستخدمه إنسان ما قبل التاريخ، هراوة مصنوعة من جذع شجرة جوز الهند. ينهال على السمكة بضربة شديدة فتكاد عيناها تخرجان من محجريهما. يختلج ذيلها، تفتح فمها وتغلقه مثلما نفعل لو كنا مكانها؛ لكنها لا تصرخ مثلنا. تهوي عليها الهراوة مرة أخرى. صوت مكتوم، صوت دماغ كثيف البنية فيه تجارب كثيرة، يتفتت داخل حجرته العظمية الضيقة. أليس هذا كفيلًا بأن يطلق في أذهاننا، نحن أيضًا، بأننا لسنا بعيدين عن الموت أكثر من ضربة واحدة كفيلة بوضع حد لأفكارنا المنظمة بكل عناية ولانشغالنا الشديد بأنفسنا؟

الآن، صار الصياد نفسه غاضبًا، وصار يضرب الحيوان المحتضر ضربات حاقدة ويشتمه


مكتبة ياسمين

بلغة ديفيهي: «يا عاهرة، يا عاهرة، نلت الآن ما تستحقين». هذه أول سمكة تونة يصطادها منذ ثمانية أيام؛ وفي البيت ستة أطفال منتظرين.

ينبثق من دماغ السمكة دم غزير ذو لون أحمر غني، ويسيل على سطح المركب. يندفع إلى السمكة اثنان من أفراد الطاقم الأصغر سنًا، فيفتحان فمها ويقطعان غلاصمها منتزعين جهاز التنفس كله. ثم تتجه سكيناهما إلى بطنها، فتستخرجان أجساد أسماك صغيرة لم تهضم بعد -أسماك الفوزيلي- وأسماك الكاردينال والرنجة. إنها وجبة الإفطار افتتحت بها هذه التونة آخر يوم من أيام حياتها. يصير سطح المركب زلقًا لكثرة ما تناثر عليه من أحشاء. تتواصل عملية القتل فأجد نفسي وقد استولى عليَ هاجس التفكير في ابني البالغ عمره أربع سنين: طوله يعادل طول أسماك التونة الكبيرة. لم يعد غير قابل للصديق أننا كلنا، مثلما تقول ديانات كثيرة، من العثة حتى الرئيس، أفراد أسرة واحدة كبيرة متآخية من القتلة.

بعد إفراغ السمكة من أحشائها وجهازها التناسلي يرفعونها في الهواء، ويلقون بها في واحد من أربعة صناديق مبرّدة سوف تمتلئ كلها، مع حلول


مكتبة ياسمين

الليل، بأجساد عشرين واحدة أخرى من رفيقات هذه السمكة الأولى. يتساءل المرء كيف عساه يكون الحال في سرب الأسماك السابح تحتنا على عمق ستين مترًا، السرب الذي يتابع الناجون فيه مسيرتهم صوب الصومال: هل يتذكّرون رفيقتهم المفقودة؟ وهل يملأ ذعر مخيف قلوبهم في هذه المياه التي صارت حالكة الظلمة؟

نصل إلى مصنع معالجة الأسماك وتغليفها: مصنع على صلات وثيقة بالمستوردين ومتاجر السوبر ماركت في بريطانيا. قد لا تكون طبيعة البيروقراطية الحقيقية في أي مكان ظاهرة لعين المراقب بمثل ظهورها في بلد نامٍ؛ فهناك فقط تظلّ البيروقراطية متجلّية عبر أكوام من الوثائق والملفات وغرف المكاتب ذات الطاولات الملمّعة: تعبير بليغ عن الصلة المتبادلة الوثيقة بين الإنتاجية العالية والعمل المكتبي.

على الرغم من القصص التحذيرية الكثيرة التي تركها لنا أسلافنا، من غوغان حتى إدوارد سعيد، لا أزال غير قادر تمامًا على أن أكبت في ذهني صورًا عابرة لمستقبل مشترك لي مع سلمى ماهر، التي هي سكرتيرة مالك هذا المصنع، المرأة التي تسكن عقلها


مكتبة ياسمين

مفاهيم مغلوطة كثيرة عن بلادي، مثلما تسكن بلادي مفاهيم مغلوطة عن بلادها. صورة أبونا المالديفي تنظر إلينا من عليائها.

يصل مدير مصنع التونة آخر الأمر. إنه ظاهرة غير متوقَّعة. يجمع طبع ياسر وحيد بين الرومانسية الباردة عند شاعر فرنسي من أواخر القرن الثامن عشر، وبين الروح الهجومية الضارية عند رأس مالي أنغلو أميركي معاصر. كتابه المفضل هو «*فلتكن افكارك كبيرة، ولتكن جريئًا في العمل والحياة*»، من تأليف بيل زانكر ودونالد ترمب. إنه عائد حديثًا من مؤتمر للإلكترونيات في دبي حيث اشترى فأرة لاسلكية «بلوتوث» من أجل جهاز «Apple Cinema» الذي عنده.


مكتبة ياسمين

يعرف العاملون في المصنع كيف يستخدمون سواطيرهم لتشريح أسماك التونة إلى شرائح في ثلاث دقائق. كانوا صيادين، كلهم. يذكَر صوت سكاكينهم وهي تشق اللحم بذلك الصوت الذي تصدره أسنان المشط عندما يمر المرء عليها بظفره. كلهم الآن أرامل. أشفق عليهم ياسر بعد أن رآهم باكين لسماع الأنباء بعد أن ضرب تسونامي سواحل سريلانكا الشرقية، فاكتسح أسرهم عندما كان أولئك الرجال في عرض البحر.

صحيح أن هناك أسبابًا طبية وصحية واضحة تستدعي تغطية شعر الرأس والوجه بقبعات وأقنعة طبية عند تحضير الأسماك للتصدير، فضلًا عن ضرورة أن تظل درجة حرارة الصالة تحت الصفر، وضرورة تعقيم ملابس العمل كلها بعد كل استخدام لها، لكن هذا يظل انعكاسًا لأمر متجذِّر عميقًا في النفسية الغربية ألا وهو أننا صرنا «أساتذة» في تقنيات التبريد الاصطناعي وفي هوسنا بغسل الأيدي من غير انقطاع وبالتزام عادات صحية مفرطة.


مكتبة ياسمين

مثلما يحدث لشخص يصادف صديقًا قديمًا في أرض غريبة، فوجئت وتأثرت قليلًا عندما صادفت شريطًا من لصاقات برتقالية لامعة، أعرفها منذ زمن بعيد من خلال السوبر ماركت الذي في منطقة سكني. لا تزال مطبوعة في ذاكرتي صورة الصياد الذي ضرب السمكة حتى الموت، وأعرف أنني صرت الآن خبيرًا في العمليات الدموية الكامنة من خلف تلك الصورة الوديعة على اللصاقة، صورة مرسى لقوارب الصيد ممتد فوق بحر أزرق لازوردي.

على الرغم من كثرة الطرق الناجعة لشق عباب البحر أو الأجواء، فإن هندسة شكل الطائرة يستدعي إلى الذهن صورة سمكة التونة. إن لطائرة



مكتبة ياسمين

إيرباص فتحات لدخول الهواء عند عجلاتها تشبه غلاصم السمكة، فضلًا عن زعانف ممتدة إلى جانبي جسمها. بل إن لون الجزء الأسفل من جسم الطائرة شديد الشبه بلون السمكة الرمادي. يوضع واحد من الصناديق تحت صفّيَ المقاعد 3 و9 في درجة رجال الأعمال، ويوضع الآخر تحت الصفّين 43 و48 في الدرجة الاقتصادية. وإلى جوار الطائرة السريلانكية المتجهة إلى لندن طائرة شحن تابعة لشركة الطيران القطرية نوافذها مطلية. إنها في طريقها إلى السفر حول العالم حاملة بريدًا وخضارًا ووثائق وعيّنات من الدم. كانت هذه الطائرة في طوكيو ليلة أمس، وهي متّجهة غدًا إلى مطار مالبينسا في ميلانو. هذه ليست إلّا واحدة من ألوف طائرات الشحن التي لا ظهور لها على شاشات الرحلات القادمة والمغادرة في المطارات مع أنها تظل ماضية في مساراتها حول العالم.

ثقلع الطائرة بنا عند الساعة الثامنة وثلاثين دقيقة، وتتخذ وجهة الشمال الغربي ماضية فوق المحيط الهندي. عند النظر من النافذة بالعين المجردة، غير المدرَبة، يبدو للمرء أن الطائرة تطير فوق كتلة زرقاء سديمية ليس فيها شيء ملموس،


مكتبة ياسمين

كتلة لا معالم لها قد يظنها المرء بحرًا. لكن السماء تظهر، بعون من هوائيات الأجهزة الموجودة في قمرة القيادة (أجهزة نستطيع مقارنة قدراتها بالآليات العضوية في دماغ سمكة التونة، حيث هوت هراوة الصياد)، على شكل شبكة من خطوط عليها علامات كثيرة وتقاطعات ووصلات ونقاط علام.

الطائرة ماضية في الممر الجوي A418 الذي ينعطف من عند الخليج داخلًا أجواء جنوب إيران. وفوق مدينة شيراز، في حيّز يدعوه الطيارون «التقاطع SYZ117,8». ينتقل قائد الطائرة إلى الممر الجوي «R659» المؤدي إلى «UMH113,5»، التي هي نقطة واقعة على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم فوق مدينة أرومية عاصمة منطقة غرب أذربيجان. إنها المدينة التي يقال إن ملوك المجوس الثلاثة استراحوا فيها أثناء سفرهم إلى بيت لحم.

قدمت مضيفات الطائرة دجاجًا بالكاري في الدرجة الاقتصادية، وإمكانية الاختيار بين الفطائر الفرنسية المحشوة بالهليون وبين عجّة الجبن في درجة رجال الأعمال. أظلمت السماء. ومن حين إلى


مكتبة ياسمين

حين، تلتقط العين لحظة انطفاء النور في بيت في الأسفل. لقد فرغ أحدهم من مشاهدة التلفزيون في غرفة المعيشة في مدينة غرايفوا الرومانية، وانتهى آخر من قراءة مقالة في مجلة الأزياء «نوكلابيا» في مدينة كالوكسا الهنغارية. ليس أي منهما منتبهًا إلى هذا «الصاروخ» المصنوع من الألومينيوم الذي يطير مزمجرًا في السماء.

أنظر إلى وجوه الآخرين وأحس تعاطفًا معهم. يتململ الناس تحت بطانياتهم المصنوعة من مواد تركيبية. لو كنا لا نزال في زمن السفن عابرة المحيطات، كان ممكنًا أن نصير أصدقاء قبل أن ترسو بنا السفينة في ساوثامبتون.

تهبط الطائرة منتصف الليل في مطار هيثرو. تصل شرائح التونة إلى المستودع عند الثانية صباحًا، لكنها لا تبوح لمجموعة الرجال المرتدين سترات فوسفورية بشيء عن تجوالها المضطرب في البحر وفي الجو. لا يعرف السائقون في المستودع، عند بداية نوبة العمل، الوجهة التي سيجدون أنفسهم ذاهبين إليها عند الفجر. عند الساعة الرابعة صباحًا، يتلقى إيان كوك من غرفة القيادة أمرًا بأن يقود


مكتبة ياسمين

واحدة من أكبر الشاحنات إلى مدينة بريستول. يسافر هذا السائق إلى متاجر السوبر ماركت منذ خمسة عشر عامًا. يحمل حوائجه في حقيبة صغيرة حمراء. حياته معقدة لأن له زوجة في لانغشاير وصديقة في ديربي. لا يكف عن الكلام أثناء رحلته... يتكلَم على قتلة ومتعصّبين دينيين ومتهربين من الضرائب ومسيئين إلى الأطفال عبر مونولوج متواصل موضوعه غير المعبّر عنه بشكل واضح هو أن الأمر سينتهي بالحضارة المعاصرة إلى الانهيار.

في الصباح الباكر، تتوقّف الشاحنة خلف سقيفة من الألومينيوم في ضواحي بريستول حيث توضع شرائح التونة على الرفوف بعد انقضاء اثنتين وخمسين ساعة منذ إخراجها من بين أمواج المحيط الهندي المزبدة.

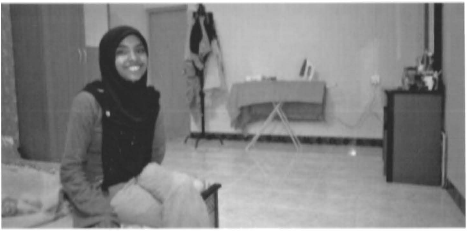

أجثو مع المصور منتظرين خلف حجرة تبريد نحسّ ببرودتها مؤذية بعد الدفء الشديد في جزر المالديف، يمرَ المتسوقون بنا ويلقون نظرات عارضة على شرائح لحم التونة. حتى أمضي الوقت، يعود بي التفكير إلى الأشخاص الذين قابلناهم في طريقنا. أتذكّر عائشة أزداه التي تتولَى مهمة تأمين مواد تغليف شرائح التونة. تطلب الأطباق البلاستيكية من شركة في تايلاند. صوّرناها عصر


مكتبة ياسمين

يوم من الأيام في شقتها التي تملكها الشركة. هي شقة من غرفة واحدة واقعة إلى جوار مصنع تغليف التونة. صورة زفافها على الجدار. يظهر معها في الصورة زوجها محمد أمير، الميكانيكي المسؤول عن صيانة آلات تقطيع التونة التي صنعتها شركة سكانفاغت الدانماركية. يبدو اهتمام الشخصين في الصورة منصبًا على المكواة تحتهما. ألا يقول هذا شيئًا عن الناس الذين يعتمد واحدهم على الآخر من غير أن تكون لديه فكرة عن مشاغله؟ قد تكون من بين مهمات الفن في زمن اللوجستيات المتطوِّرة ضمان تعرَف عائشة على ليندا دروموند لأنها، في آخر المطاف، هي التي تتوقَف أمام براد الأسماك وتأخذ بضع شرائح تونة من أجل طعام أسرتها. أنهض واقفًا، وينهض المصوِّر معي، ونحكي لها قصتنا. نخبرها عن رحلتنا وعن نظرية كارل ماركس في الاغتراب كما شرحها في «*المخطوطات الاقتصادية والفلسفية سنة 1844*». نسألها إن كنا نستطيع مرافقتها إلى بيتها فتتصل بزوجها طالبة رأيه.

في وقت لاحق من اليوم نفسه، يفاجأ ابن ليندا البالغ من العمر ثماني سنين -اسمه سام- بوجود


مكتبة ياسمين

شخصين غريبين في مطبخ البيت. لا يحب التونة، لكنه يكره السلمون أكثر مما يكرهها. ليس هذا الطفل جاهلًا بعجائب الخدمات اللوجستية. يعرف الكثير عن الطائرات والشاحنات. وهو أيضًا خبير في محيطات العالم: يلقي علينا محاضرة في أن المحيط الهندي ليس موئلًا مثاليًا للأسماك نتيجة دفء مياهه وهدوئها الزائد. يشير إلى أن مياه بحر الشمال الصقيعية قادرة بالتأكيد على إيواء عدد أكبر من أشكال الحياة، لأن العواصف في ذلك البحر لا تكف عن تحريك طبقة المياه العميقة المظلمة الغنية بالمواد الغذائية، تلك الطبقة الواقعة تحت سطح البحر بألف متر، هناك حيث يعيش الأنقليس الأرجواني والسمكة المثلثية والحبَار مصاص الدماء.

ثم يضيف سام اقتراحًا لا يكثر علماء الأحياء البحرية من الإشارة إليه... فكرة مفادها أن مواصلتنا قتل الأسماك جعلت البحار مفعمة بكثرة من أشباح المحيط الشاحبة، التي ستجتمع معًا ذات يوم حتى تُنزل بالبشرية انتقامًا رهيبًا، لما ارتكبته من تقصير لحياتها، ومن نقل لأجسادها من أقصى الأرض إلى أقصاها، حتى تُقدَّم وقت العشاء في بريستول.


مكتبة ياسمين

# الفصل الثالث
# صنع البسكويت
## -1-

نشأ لديَ اهتمام بالبسكويت. ثم وجدت نفسي في يوم من الأيام متوجّهًا إلى غرب لندن، مجتازًا متاجر محترقة ومباني يجري هدمها بعد إحاطتها بأسيجة من الحبال. كنت ذاهبًا إلى بلدة هايز حيث يقع مقرَ شركة «يونايتد بيسكيتس» التي هي اللاعب الأول في سوق البسكويت البريطانية، وثاني أكبر منتج للمكسَرات المعبأة في أكياس.

نجحت بعد جهد كبير ومناورات كثيرة في تأمين موعد مع مدير التصميم في شركة يونايتد بيسكيتس. رجل اسمه لورانس (كرر كثيرًا التأكيد على أن اسمه Laurence وليس Lawrence).

استعدادًا لتلك المقابلة معه، انغمست في قراءات كثيرة عن البسكويت، وصرت على علم بمجموعة معلومات مثيرة. اكتشفت أن البريطانيين ينفقون على البسكويت كل سنة 1,8 بليون جنيه إسترليني، وأن سوق البسكويت مقسّمة، من الناحية الفنيَة، إلى خمس فئات: «البسكويت اليومي»، و«الحلويات اليومية»، و«البسكويت الموسمي»، و«البسكويت الفاخر»، و«المقرمشات والمخبوزات الهشَة».

تبلغ حصة «البسكويت اليومي» على الرغم من اسمه الباهت، نحو ثلث مبيعات البسكويت كلّها. وهذه الفئة مشتملة على Digestive، وRich Tea، وGingerNuts، وHob Nobs. عادة ما تؤكل أنواع بسكويت Digestive بعد غمسها في الشاي لزيادة رطوبتها؛ وتبلغ مبيعاتها السنوية


مكتبة ياسمين

34 مليون جنيه إسترليني. وأما فئة «الحلويات اليومية» التي هي واقعة بين البسكويت العادي والبسكويت الفاخر، فعادة ما يشتريها الناس أيام الخميس والجمعة، ويكون أكثر زبائنها بين الخامسة والثلاثين والرابعة والأربعين من العمر. من الأصناف الشائعة في هذه الفئة «Jaffa Cake»، و«Cadbury's Fingers»، و«Fox's Viennese Chocolate». لا يتم تسويق أصناف «البسكويت الموسمي» إلّا في الفترة الممتدة من أوائل شهر أكتوبر حتى أواخر شهر ديسمبر. وهي تباع في علب معدنية مزينة كثيرًا، تحتوي على تشكيلات من «Cottage Crunch»، و«Shortcake»، و«Shortbread Finger»، و«Chocolate Chip biscuits».

كثيرًا ما يضيق الخبراء في هذا الميدان ذرعًا بخلط الناس بين فئتي «المقرمشات والمخبوزات الهشَة» و«البسكويت الفاخر». حتى نكون واضحين، علينا القول إن «المقرمشات والمخبوزات الهشَة» أنواع من البسكويت غير الحلو، الذي يمكن أن يكون جزءًا من الوجبة، أو أن يؤكل بعد أن يضاف إليه الجبن، أو أية مادة أخرى قابلة للمدَ؛ في حين ينبغي التمتَع بأكل «البسكويت الفاخر» وحده، لأنه غالبًا ما يكون أكثر جاذبية من المقرمشات العادية، نتيجة ما فيه من نكهة الجبن، أو الباربيكيو. في السنوات الأخيرة الماضية، صار النشاط في هذا القطاع أكثر ميلًا إلى طرح منتجات صغيرة الحجم جدًا من بينها «Mini Cream Cheese»، و«Chive»، و«the Baked Mini Cheddar»، و«Snack-A-Jack Mini Barbecue».

-2-


مكتبة ياسمين

كانت بلدة هايز خالية من السحر خلوًا مفاجئًا. مطاعمها قليلة، وليس فيها غير نادٍ واحد للعبة البولينغ. ليست فيها أي سينما. كانت محدودية المكان نفسه على غرار هذا نفسه: شابة التقيتها خلال ما أجريته من دراسة هناك قالت لي إنها لا يمكن أبدًا أن تقبل مواعدة شخص إلَا إذا كان من بلدة هيلينغدون المجاورة - بلدة لم أر فيها، أثناء الجولة الاستطلاعية بالسيارة، على الأقل، أي شيء له تميز واضح عما رأيته في جارتها.

تحتلَ شركة البسكويت بناية من قرميد بني ارتفاعها ثلاثة طوابق واقعة في «حديقة الأعمال». خلال السنوات الخمس الماضية، كانت الشركة ملكًا لشركتي استثمار خاصَتين على رأس واحدة منهما، الـ«بلاكستون جروب»، واحد من رجال المال اشتهر بعد شرائه أغلى شقة من طبقتين في مانهاتن. من بين أشهر الأصناف التجارية التي تنتجها الشركة «McVitie's» و«Twiglets»، و«Hula Hoops»، و«McCoy's»، و«KP Nuts». ومن الأسماء الأخرى منتج بنكهة الجمبري اسمه «Skips» معروف بأن له تفاعلًا «فوارًا» مع اللعاب البشري. توضح نشرة دعائية وجدتها في ردهة المبنى، بأن شركة يونايتد بيسكيتس تأخذ مسؤولياتها الاجتماعية مأخذ الجد، وأنها تبرعت - من خلال اسم «Jaffa Cake» بعدد من القمصان قصيرة الأكمام التي تحمل شعار الشركة لصالح فريق كرة القدم للأطفال تحت السابعة في بلدة رويسليب.


مكتبة ياسمين

لاقاني لورانس عند مدخل المصعد تحت ظل كيس عملاق من المقرمشات. كان الرجل مزيجًا غير مستقر من الثقة والضعف. وكان قادرًا على المضي في مونولوجات مطوّلة، تتناول أمورًا خاصة بعمله، ثم يتوقف عن الكلام فجأة وينظر في عيني ضيفه نظرة مستطلعة كي يرى إن كان فيهما ما يوحي بضجر أو سخرية منه. لديه الذكاء الكافي لأن يكون غير قادر على الاقتناع اقتناعًا تامًا بما يزعمه لنفسه من أهمية. لعله كان في حياة سابقة مستشارًا ملكيًا حاد اللسان، شديد الخبث. لعل كان ممكنًا افتراض أن الصلع المبكر عندي وعنده يؤدي إلى نوع من التقارب، إلّا أن هذا العيب المشترك لم يولَد إلّا إحساسًا غير مرغوب فيه كثيرًا.

أخذني لورانس إلى غرفة مجلس الإدارة حيث رأيت طاولة تناثرت عليها علب بسكويت «Moments»: قطعة بسكويت عرضها ستة سنتيمترات فيها بسكويتات صغيرة مغلّفة بالشوكولاته. أطلق هذا الصنف في ربيع 2006 في احتفال في مصنع للشركة في بلجيكا (ألقى لورانس كلمة باللغة الفرنسية)، وذلك بعد برنامج تطوير استمر سنتين وبلغت كلفته ثلاثة ملايين جنيه


مكتبة ياسمين

إسترليني. لقد كان لورانس «مبتكر» هذا الصنف.

-3-

ليس مقصودًا بهذا أن لورانس يعرف كيف يصنع البسكويت، مع أن تعبيري عن دهشتي إزاء عدم معرفته جعله يسرع إلى اتخاذ موقف دفاعي. أبلغني بنبرة صارمة أن صناعة البسكويت صارت هذه الأيام فرعًا من فروع علم النفس، لا من فنّ الطبخ.

صاغ لورانس «بسكويته» بعد أن جمع في فندق في بلدة سلاو عددًا من أشخاص أجرى معهم مقابلات على امتداد أسبوع كامل كان يسألهم فيها عن حياتهم، محاولًا جعلهم يبوحون بما لديهم من توقٍ عاطفي، بحيث يتمكّن آخر الأمر من جمع ذلك كله ضمن أفكار ومبادئ أساسية يقوم عليها المنتج الجديد. ففي قاعة الاجتماعات في فندق التايمز ريفييرا، حدّثته بضع أمهات من ذوات الدخل المنخفض عن توقهنّ إلى الإحساس بالتعاطف والمحبة، وبما دعاه لورانس بإيجاز بسيط معبر «أنا - الوقت». طرح بسكويت «Moments» نفسه بصفته حلًا معقولًا لمشكلاتهن.

صحيح أن فكرة التعامل مع ذلك التوق النفسي من خلال سلعة مصنوعة من عجين قد تبدو فكرة عسيرة الهضم، لكن لورانس قال لي إن القرارات الخاصّة بعرض قطعة البسكويت وشكلها وتلبيسها وتغلفيها وتسميتها يمكن -بين أيدي خبراء التسويق المخضرمين- أن تنتج بسكويتًا ذا شخصية رهيفة مصوغة صياغة مناسبة مثلما تصاغ شخصية البطل في رواية عظيمة.

اتضحت للورانس منذ وقت مبكر فكرة أن يكون بسكويته مدورًا، لا مربعًا، ولا مستطيلًا، وذلك


مكتبة ياسمين

لأن الثقافات كلها، تقريبًا، تقيم صلات بين الدائرة والأنوثة والاكتمال. وأيضًا، كان ضروريًا على نحو مماثل أن يحتوي البسكويت على قطع صغيرة من الزبيب، وعلى رقاقات من الشوكولاته على نحو يوحي بـ«انغماس لطيف» في الملذات - البسكويت خالٍ من حشوة الكريمة حتى لا يصير الأمر موحيًا بـ«ارتماء» تامٍ في تلك الملذات.

أمضى لورانس ستة شهور أخرى في العمل مع زملائه على مشكلات التغليف؛ ثم توصلوا أخيرًا إلى أن عليهم الاكتفاء بتسع قطع موضوعة في طبق من البلاستيك الأسود ضمن علبة لامعة من الكرتون طولها أربعة وعشرين سنتيمترًا. عندها، أطلق لورانس مناقشة في الاسم الواجب إطلاقه على هذا الصنف من البسكويت. جرى التفكير طويلًا في أسماء كثيرة من بينها «Reflections»، و«Retreats»، و«Delights»؛ وأيضًا في «My Times» لأنه اسم فيه إيحاء مباشر بالفكرة التي قام عليها هذا الصنف. وأخيرًا، أتاه الاسم الصحيح في لحظة يمكن وصفها -من غير إفراط- بأنها «لحظة إلهام».

بعد هذا كله، جاء وقت الالتفات إلى مسألة اختيار


مكتبة ياسمين

الحروف التي سيكتب بها الاسم. في التكوين الأولي الذي توصَل إليه المصممون، كانت كلمة «Moments» مكتوبة على امتداد سطح العلبة كلَه بخط «Edwardian» الرومانسي. لكن بعض المديرين رأى أن من شأن هذا الاختيار أن يُكذّب وظيفة المنتج المعلنة من حيث إنه إضافة لطيفة إلى الحياة المضنية، لا وسيلة للفرار منها - مسألة غولجت في الدقيقة الأخيرة من خلال جعل الحرفين m وs أكثر انتصابًا، بحيث تصير كتابة الاسم لائقة بوجبة خفيفة تحترم وقائع الحياة مع أنها تتيح الابتعاد عنها قليلًا من أجل التمتع بـ«استراحة» وجيزة.

-4-

يعرف كثيرون منا ما ينطوي عليه إنفاق فترة بعد الظهر في خبز البسكويت. ولعل في هذا ما يجعلنا نجد نوعًا من المفاجأة عندما نرى شركة معتمدة على خمسمئة موظف يعملون طيلة النهار من أجل إنجاز هذه المهمة.

لقد صارت المناورات التي قد يؤدّيها الواحد منا في مطبخه (تحضير الفرن، ومزج العجين، ووضع لصاقة على العلبة) أعمالًا منفصلة في شركة «يونايتد بيسكيتس»؛ وتحوَلت كل واحدة منها إلى عملية مقوننة موسّعة تشغل حياة عمل بأسرها. ومع أن العمل في الشركة مشروط، آخر الأمر، بحجم مبيعات ما تنتجه من أصناف حلوة ومالحة، فإن نسبة كبيرة من العاملين قد صارت بعيدة -بالمعنى المهني- عن أي اتصال بما له علاقة بالأكل. هؤلاء الأشخاص مسؤولون عن حركة الرافعات الشوكية في المستودع، أو عن الانكباب على ثمانين كلمة، أو نحو ذلك، مكتوبة على جوانب كيس عادي من


مكتبة ياسمين

أكياس المكسرات المملَحة. صارت لدى بعضهم خبرة ممتازة في جمع بيانات المبيعات القادمة من متاجر السوبر ماركت، وفي تحليل هذه البيانات؛ في حين يعكف غيرهم على دراسة كيفية ضمان أدنى حدَ من الاحتكاك بين قطع الويفر أثناء نقلها.

وإلى جانب هذا التخصص ظهرت مجموعة كبيرة من مسميَات وظيفية مقتصرة على هذا الميدان: «اختصاصي تكنولوجيا التغليف»، و«المدير التنفيذي للاسم التجاري»، و«مدير مركز التعلَم»، و«مُقيّم المشاريع الاستراتيجي». اختصاصات مهنيّة بينها اختلافات عميقة: قد تكون البداية من قسم «Hula Hoops»، ثم تعقبها ترقية إلى «Ridged Tortillas»، ثم انتقال إلى «Baked Mini Cheddars»، وقد يلي ذلك تولَي وظيفة قيادية في «McVitie's Fruitsters»، أو شغل منصب رفيع في «Ginger Nuts».

أفضى هذا التقسيم الكبير للعمل إلى سويات من الإنتاجية جديرة بأن تحظى بإعجابنا. لقد تبيَن أن ما حققته الشركة من نجاح يؤيد مبادئ الكفاءة التي أرساها الاقتصادي الإيطالي ڤيلفريدو باريتو أوائل القرن العشرين، إذ قامت نظريته على أن ثراء مجتمع من المجتمعات سيجعل أفراده يتخلَون عن المعارف العامة، مفضّلين عليها تنمية القدرات الفردية في حقول ضيّقة محدودة. ففي المجتمع المثالي الذي تخيَله باريتو، تصير الوظائف مقسَمة إلى اختصاصات ضيَقة على نحو يسمح بمراكمة خبرات كبيرة يتبادلها العاملون بعد ذلك. ويكون من مصلحة الجميع ألَا يهدر الأطباء أوقاتهم في تعلَم كيفية إصلاح سخّانات المياه، وألا يعكف سائقو القطارات على خياطة ملابس أطفالهم، وأن يترك


مكتبة ياسمين

«اختصاصيو تكنولوجيا تغليف البسكويت» الأمور المتصلة بالمستودعات لخرّيجين متخصّصين في إدارة سلاسل التوريد بحيث يركزون طاقاتهم على تطوير آلات «التغليف المستمر». ففي المجتمع المثالي، تصير الوظائف كلّها شديدة التعقيد والتخصّص حتى لا يعود أحد قادرًا على فهم ما ينطوي عليه عمل غيره.

بعد سلسلة أحاديث مع عدد من العاملين (كان أكثر هذه الأحاديث محيّرًا)، بدأت أدرك أن «يوتوبيا باريتو» الاقتصادية صارت الآن واقعًا قائمًا في شركة «يونايتد بيسكيتس». على أن المنافع الاقتصادية الناجمة عن تجزئة عناصر ذلك العمل، الذي يقوم به الواحد منا في فترة بعد الظهر، إلى مجموعة مسارات مهنيّة يستمر الواحد منها أربعين عامًا. لكن، ومهما تكن تلك المنافع عظيمة فهي لا تعفينا من التساؤل عن الآثار الجانبية غير المقصودة الناجمة عن هذا التوجه. وعلى نحو خاص، يصير مغريًا للمرء أن يتساءل - خاصة في الأيام الكالحة عندما تخيّم فوق مقر الشركة في هايز غيومٌ منخفضة تسوقها ريح شرقية- كم يمكن أن يبقى للحياة من معنى نتيجة ذلك.


مكتبة ياسمين

-5-

متى يحسّ المرء بأن لوظيفته معنى؟ يحسَ هذا عندما تتيح له تخفيف معاناة الآخرين، أو توليد ما يفرحهم. على الرغم من كثرة ما يقال لنا من أننا أنانيون في أعماقنا، فالظاهر أن توقنا إلى المعنى في عملنا جزء أصيل من تكويننا لا يقلَ أهمية عن سعينا إلى المال والجاه. ولأننا حيوانات باحثة عن المعنى، لا مجرد كائنات مادية، تكون لدينا القدرة على التفكير في مدى معقولية العمل من أجل المساعدة في إيصال مياه الشرب إلى المناطق الريفية في جزر المالديف، أو يمكن أن نترك وظيفة في قطاع السلع الاستهلاكية مفضَلين عليها العناية بمرضى القلب؛ وذلك لإدراكنا أن إجادة تشغيل أجهزة «مزيل الرجفان» أكثر أهمية من أحسن أنواع البسكويت عندما يكون الأمر متَصلًا بتحسين الشرط الإنساني.

لكن علينا أن نحذر الإفراط في تقييد فكرة «العمل ذي المعنى» بأن نقصر تركيزنا على الأطباء، والراهبات المتفانيات، والعظماء من الرسّامين. قد تكون هناك سبل أقل لمعانًا من أجل المساهمة في الخير العام؛ وقد يتضح أن إتقان صنع قطعة بسكويت مدوَرة عليها خطوط من الشوكولاته تستطيع المساهمة في ملء معدة جائعة في ساعات الصباح الطويلة بين التاسعة والثانية عشرة، قد يكون مستحقًا أن يحظى بمكانٍ، وإن كان صغيرًا جدًا، في هيكل الابتكارات المصممة من أجل تهوين احتمال أثقال الوجود.

ليست المسألة الحقيقية كامنة في ما إذا كان لصنع البسكويت معنى، بل في مدى ما بلغه هذا النشاط من توسّع، وكثرة ما صار فيه من أقسام فرعية تستغرق خمسة آلاف حياة عمل في نحو ستة مواقع إنتاج مختلفة. فلعل عملًا حظي بنعمة أن يكون ذا معنى لا يبدو لمن ينظر إليه أن له معنى إلّا عندما يُنجز سريعًا على أيدي عدد محدود من العاملين، بحيث تصير مخيّلات أولئك العاملين قادرة على الربط بين ما صنعوه في أيام عملهم وبين ما كان لجهدهم من أثر على الآخرين.

لا شك في أهمية مغزى أن شخصيات الأشخاص الكبار، التي تظهر في كتب الأطفال، نادرًا ما تكون من «مديري المبيعات الإقليميين» أو «مهندسي خدمات البناء»، أو لعلّها لا تكون كذلك أبدًا. إنها شخصيات أصحاب متاجر، وبنائين، ومزارعين. أشخاص يسهل الربط بين عملهم وبين التحسين الواضح لحياة بني البشر. فبما أننا كائنات مدركة وحريصة على التوازن والتناسب بطبعها؛ وهذا ما يجعلنا غير قادرين على ألّا نحسّ شيئًا من العوج في ألقاب وظيفية، من قبيل «منسق الإشراف على الاسم التجاري، قسم البسكويت المحلّى». فمهما


مكتبة ياسمين

يكن في حجج ڤيلفريدو باريتو من بصيرة نافذة، فهي انتهاك لمبدأ آخر لم يعطه أحدٌ اسمًا حتى الآن، لمبدأ يتم تجاهله هنا، ولنواميس بشرية أكثر رهافة.

## -6-

تزداد الأمور تعقيدًا لأن الوسائل المستخدمة في إنتاج بسكويت «Moments» وأشقائه تستدعي -مهما تكن غايات شركة «يونايتد بيسكيتس» متواضعة-، تفانيًا وانضباطًا ذاتيًا لا يقلّان عما تستدعيه إدارة مستشفى، أو عما يستدعيه إتقان رقص الباليه. يظهر هنا سؤال متعلّق بالحافز: هل تستطيع الشركة أن تنجح في تزويد العاملين لديها بالقدر الكافي من المُثل الرفيعة، التي تجعلهم يستنفدون أنفسهم في العمل ويكرّسون له القسط الأكبر من حياتهم؟

تتسم إجراءات كثيرة في شركة «يونايتد بيسكيتس» بقدر من الجدية شبيه بما قد يراه المرء في برج مراقبة في مطار. وهذا لأن البسكويت يدرّ مالًا بصرف النظر عن أية تساؤلات عن مذاقه أو عن قيمته الغذائية. إن كثرة ما يدرّه البسكويت من مال كفيلة بجعل أمناء الخزائن في الممالك القديمة


مكتبة ياسمين

يحارون في أمرها. فإذا نظرنا إلى أرباح صناعة البسكويت في ضوء الرسوم البيانية التي وضعها المؤرخ الحديث للحقبة التيودورية، السير جيفري إلتون، نجد أن هذه الشركة تحقق كل سنة أرباحًا تفوق ما نجح هنري الثامن وإلزابيث الأولى في جنيه خلال فترتي حكميهما مجتمعتين... وهذا كله من مبنى مكاتب قائم في الناحية الشمالية الشرقية من بلدة هايز الواقعة على مسافة عشرين دقيقة بالسيارة من قاعات البلاط المذهبة في «هامبتون كورت».

من هنا، نجد رئيس مجموعة «بلاكستون» الاستثمارية الخاصة (رجل تفوق ثروته الخاصة كل ما راكمته ممالك جنوب الصحراء الأفريقية الكبرى من ثروات منذ اكتشاف النار)، يترك شقته الفاخرة من حين إلى آخر حتى يسجد أمام عجينة البسكويت. ربما يكون مقرَ الشركة قد استعار جمالياته المعمارية من واحد من الفنادق الصغيرة على الطريق، لكن هذا لأن قادة شركة البسكويت، خلافًا لساكني قصر ڤرساي وقصر إسكوريال (أولئك الذين كانوا منشغلين بأفكار عن الرب والسلطة والجمال)، لا شكوك لديهم أبدًا في هوية الإله الذي يعبدون.

لعل هذا هو السبب في أنني لم أسمع نكتة تتناول أي نوع من أنواع البسكويت. لقد كان العاكفون على صنع «Ginger Nut»، و«Rich Tea»، و«Jaffa Cake»، و«Moment» أشبه برهط من شخصيات البلاط عاكف بوجوه جادّة على تلبية رغبات أباطرة متطلّبين لا يزالون أطفالًا صغارًا.

-7-

في ساعة متأخرة من بعد ظهر يوم من الأيام، بعد


مكتبة ياسمين

أن حلّت الظلمة على مباني الأعمال في بلدة هايز وصارت مرئية في السماء أضواء طائرة منحدرة صوب مطار هيثرو (طائرات ضخمة كثيرة آتية من آسيا)، مررت بمكتبٍ منزوٍ فيه موظفة عاكفة على كتابة وثيقة توضح أداء مبيعات أحد منتجات سلسلة بسكويت «Moments». أُطلق هذا الصنف منذ سنة تقريبًا. كان تعبير وجه رينا موحيًا بالتفكير العميق والغرق في تلك الوثيقة. صحيح أنني لا أستطيع تحديد سببٍ لما أحسست، لكن شيئًا فيها استحضر إلى ذهني لوحة لإدوارد هوبر رأيتها منذ سنين كثيرة في متحف الفنّ الحديث في مانهاتن.

في لوحة «سينما في نيويورك» (1937)، نرى موظفة، ممن يرشدن الناس إلى مقاعدهم واقفة عند السلم في دار سينما مزخرفة من حقبة ما قبل الحرب. رواد السينما غارقون في شبه ظلمة، لكن المرأة غارقة في ضياء غني أصفر. على النحو الذي تكثر رؤيته في لوحات هوبر، توحي ملامح المرأة بأن أفكارها قد حملتها بعيدًا. إنها جميلة، شابة، شعرها مموّج قليلًا؛ وفي مظهرها هشاشة مؤثرة، وملمح قلق يثير اهتمامًا بها ورغبة فيها. على الرغم من وضاعة وظيفتها، فهي «حارسة» الصدق والذكاء في هذه اللوحة، إنها سندريلا السينما. يبدو هوبر كأنه ينقل إلينا تعليقًا رهيفًا، بل حتى اتهامًا، في ما يخص الوسط المحيط نفسه، إذ يوحي لنا بأن الابتكارات التكنولوجية، مصحوبة بالاهتمام العام، قد نجحت بالمقابل في تقليص اهتمامنا بالاخرين. يا لها من مفارقة! إن قوة هذه اللوحة كامنة في اقتران فكرتين اثنتين: الأولى هي أن المرأة مثيرة للاهتمام أكثر من الفيلم نفسه، والثانية هي أنها متجاهلة بسبب الفيلم. ففي استعجالهم إلى احتلال مقاعدهم، أغفل من جاؤوا لحضور الفيلم ملاحظة


مكتبة ياسمين

أن على مقربة منهم «بطلة» أكثر جاذبية وإغراء من أية شخصية تستطيع هوليوود تقديمها إليهم. وتظلّ واقعة على عاتق الرسام العامل انطلاقًا من «وسط» أكثر هدوءًا، وأدق ملاحظة، أن يُنقذ ما شجع الفيلم مشاهديه على عدم رؤيته.

تساءلت بصوت مسموع أمام رينا عن السبب الذي يجعل مقادير أكبر من المال في مجتمعنا تنتج عن مبيعات سلع أقل أهمية، وعن السبب الذي يجعل التطورات الدراماتيكية التي كانت في قلب الثورة الصناعية من حيث الكفاءة والإنتاجية نادرًا ما تتجاوز توفير سلع مادية رائجة، كالشامبو،


مكتبة ياسمين

أو الواقيات الذكرية، أو القفازات المستخدمة في الأفران، أو الملابس الداخلية. قلت لرينا إن ما لدينا من روبوتات ومحركات تدرّ القسم الأكبر من منافعها عند قاعدة هرم احتياجاتنا، على نحو جعلنا أصحاب خبرة واضحة جدّا في صنع أنواع البسكويت والمعجنات وتجميعها سريعًا، لكننا لا نزال نبحث عن وسائل نستطيع الركون إليها من أجل توليد استقرار انفعالي أو انسجام عائلي. لم يكن لدى رينا الكثير مما تستطيع إضافته إلى هذا التحليل. ظهر في ملامح وجهها تعبير ذعر واستأذنتني في الانصراف.

بعد ذلك، وجدت نفسي عالقًا في زحمة المرور المخيفة في طريق خروجي من بلدة هايز عبر منطقة فيها مستودعات الأثاث الرخيص وصهاريج تخزين المواد الكيميائية، ففقدت أعصابي وتمنيت أن تصيب السماء مصنع البسكويت بوباء من عندها حتى يتعلم مديروه كيف يخشعون أمام الرب الحقيقي. تذكَرت مقطعًا من نص «تاج الزيتونة البرية» المكتوب سنة 1866، أي قبل واحد وثمانين عامًا من اختراع «Jaffa Cake». ورد في ذلك النص: «من بين أنواع الإتلاف كلّها، يظل إتلاف العمل البشري أسوأ ما تستطيع ارتكابه. إذا خرجت إلى حظيرة الأبقار ذات صباح، ووجدت ابنك الأصغر والقطة يلعبان معًا، وأن الصبي سكب الحليب كلّه على الأرض حتى تلعقه القطة، فسوف تنهره وتأسف على الحليب المسفوح. وأما إذا كانت أمامك أوعية ذهبية فيها أرواح بشرية، بدلًا من أوعية خشبية فيها حليب، ولم تترك تلك الأوعية الذهبية كي يحطمها الرب بنفسه، بل قذفت بها إلى الأرض وسفحت الدم البشري على التراب حتى تلعقه الشياطين... فهذا ليس إهدارًا! ماذا؟ قد تقول


مكتبة ياسمين

في نفسك، 'إهدار عمل البشر ليس مثل قتلهم'. أليس مثله؟ أتمنى معرفة كيف تستطيع قتلهم أكثر من ذلك».

أنبأني أصدقاء يريدون لي الخير بأنني أبدو كمن ينزلق إلى حالة مزاجية غير مألوفة، بل إلى حالة فيها قدر من الهستيريا. قالوا إن فسحة من «أنا - الوقت» قد تكون مفيدة لي.

-8-

بعد أسبوع من ذلك، بلغني أن الإدارة العليا في شركة «يونايتد بيسكيتس» قبلت طلبي زيارة المصنع الذي ينتجون فيه بسكويت «Moments»، في موقع في شرق بلجيكا، تلك المنطقة الزراعية ذات التلال الكثيرة الواقعة بين فيرفيير وحدود ألمانيا.

آثرت أن أمضي بضعة أيام في التجول هناك بالسيارة، فأخذت العبَارة حتى أوستند، ثم بدأت التجوال في طرق فرعية، ورحت أتوقَف عند حديقة حيوانات هنا، أو متحف هناك، خشية أن أتجاوز بلجيكا كلها أسرع مما أردت. إلَا أن ذعرًا أصابني عندما فكرت في وجبات الطعام: تلك الألفة القسرية التي تعمد إليها المطاعم العائلية في الريف. فضلت تناول الطعام في محطات الخدمة على الطريق السريعة، حيث لا يعرف أحد أحدًا. عند واحد من تلك المطاعم، على الطريق رقم E40، التقيت تركيًا يقود شاحنة تحمل تمرًا من إزمير إلى كوبنهاغن. بدأنا الثرثرة بعد أن أوقفت سيارتي إلى جوار شاحنته فوجدته واقفًا عندها يحلق ذقنه بآلة براون حديثة يلقي مصباحها على وجهه ضوءًا أخضر غريبًا. أبديت إعجابي بشاحنته الضخمة ذات اللون الكرزي والعجلات المطلية بالكروم،

فدعاني إلى إلقاء نظرة داخل الكابينة التي كانت في مؤخرتها حجرة نوم صغيرة فيها سجادات ذات ألوان فاقعة وجدران مغلفة بالخشب ونافذة مطلَّة على أراضي شمال أوروبا المستوية غير المنسجمة مع تلك الكابينة، أراضٍ يرعى فيها قطيع من أبقار الفريزيان.

نزلت في فندق هوليداي إن في لييج. كتلة أسمنتية على محيط المدينة تبدو كأنها خشيت دخول مركزها المنتمي إلى القرون الوسطى، لأن بها حنينًا إلى عمارة أتلانتا وديترويت. أتى المساء، فطلبت من خدمة الغرف وجبة إسكالوب بالدجاج، وتناولت الطعام وأنا جالس على سرير أقرأ كتابًا عن تاريخ الفنّ في الأراضي المنخفضة. تجاوزت الساعة منتصف الليل، فبدأت مشاهدة برنامج تلفزيوني مصنوع من سلسلة متتالية من إعلانات مصوَّرة أرسلها أفراد من الجمهور، من بينهم خبّاز من شارلوري يبحث عن «الحب، وأكثر منه قليلًا». استمر البرنامج ساعات طويلة من تلك الليلة التي جفاني النوم فيها، وكشف مستويات من التوق لم يسمح لي اختلاطي المحدود بالناس في هذه الأمة المتشظية بأن أتوقع وجودها.

مكتبة ياسين

استيقظت صباح اليوم التالي على صوت مكنسة كهربائية خارج الغرفة. لا أزال مرهقًا. تدثرت بمنشفة كبيرة وفتحت الباب فرأيت عربة خدمة الغرف وصينية طعام متروكة فيها بقايا من الهامبرغر والبطاطس المقلية، بدت لي شهية على نحو غريب. كان الباب المقابل مواربًا فلمحت في الداخلي اثنتين من موظفات خدمة الغرف تعملان وتضحكان كثيرًا. رأيتهما تنزعان ملاءات السرير فتذكَّرت الكتاب الذي قرأت فيه الليلة الماضية، ذلك الكتاب الذي يورد تفاصيل كثيرة عن كيفية سعي فناني القرن السابع عشر إلى الاحتفاء بالمهارات التي تنطوي عليها الخدمة المنزلية، إذ أبدوا اهتمامًا كبيرًا بتنظيف المطابخ والأفنية، وفضلوا نشاطات من هذا النوع على المواضيع الإنجيلية التي كانت التقاليد الفنية محتفظة لها بمكانة أكثر سموًا.

لم أصِر مستعدًا للنزول من أجل تناول طعام الإفطار إلَا وقد تحوَلت الغرفة المقابلة تحوَلًا تامًا. انقلبت إلى «حيّزٍ لا تاريخ له» في انتظار شاغليها الجدد، ولم تعد باقية فيها أية حركة غير شذرات غبار متطايرة في دوَامات هواء غير مرئية في مساحة تنيرها شمس الصباح.

مكتبة ياسمين

على مألوف عادتي عندما يكون لديَ موعد مهم، وصلت في وقت مبكر كثيرًا إلى مصنع البسكويت في قرية لامبرمونت. لذا، قدت السيارة إلى متحف قريب للآثار حيث اكتسبت معلومات عن حجارة الصوان وصنع الفؤوس في العصر النيوليتي. رأيت في المتحف شواهد على معارك فظيعة. وفي واحدة من خزائن العرض، شاهدت بقايا رجل شقّت رأسه فأسٌ حجريةٌ. وجد الآثاريون هذا الرجل متكوّرًا في وضعية دفاعية، محاولًا حماية نفسه من ضربات خصمه. صار عذاب هذا الموت الذي وقع منذ زمن بعيد حيًا أمامي إلى حدّ جعلني أشك، بعض الوقت، في أهمية الزمن الحاضر وفي صلابته.

لما كان الموعد المحدّد لبدء جولتي في المصنع مقرّرًا في ساعة «غامضة»، الساعة الثانية عشرة وثلاثين دقيقة، فقد تساءلت في وقت سابق من ذلك الصباح عما إذا كانوا سيقدمون إليّ وجبة غداء، أو أن عليّ أن آكل قبل ذهابي. قرّرت آخر الأمر أن آخذ من بوفيه الإفطار في الفندق بضع شطائر بالجبن أكلتها في السيارة أثناء انتظاري مصغيًا إلى مقابلة إذاعية مع وزير المالية البلجيكي.

أوقفت سيارتي أمام بوابات المصنع. وجدت المدير، ميشيل بوتييه، في انتظاري هناك حاملًا معه رداءً أبيض اللون وزوجًا من أحذية مطاطية، وقبعة شبكية للشعر. هذه الملابس الملزمة لكل زائرٍ يدخل المصنع تعطي المرء إحساسًا بالانضواء ضمن تيار ضخم، إحساس من شأنه أن يضفي على حديثنا نبرة خاصة.

وجدت بوتييه رجلًا لطيف الكلام، دافئ القلب. لقد أعدّ من أجلي وجبة غداء ثانية وضعها في زاوية غرفة مكتبه، متوقعًا أن تكون لدي رغبة حقيقية في

الأكل. هذا ما حملني على تناول ثلاث سندويتشات إضافية، وعدد من بسكويتات «Moments» خرجت من خط الإنتاج صبيحة ذلك اليوم. حدّثني بوتييه أثناء الأكل عن جملة تحدّيات تصاحب صنع البسكويت، مؤكدًا تأكيدًا خاصًا على الحاجة إلى ضرورة تبريد العجين بسرعة كافية حتى لا تذوب الشوكولا التي ستصير غلافًا له. سنوات طويلة من العمل على مقربة من آلات تصدر ضجيجًا شديدًا جعلت واحدة من أذنيَ مضيفي شبه صمَاء مما أكسبه عادة مزعجة: يميل كثيرًا صوب من يحدثه ويقترب إلى حدَ جعلني أخشى نطقه كل كلمة فيها حرف P أو G. لم تكن المعلومات التي أفاض بها بوتييه في حديثه على مواضيع من قبيل حجم إنتاج البسكويت السنوي في المصنع أو اللزوجة المثالية للشوكولاته أمورًا توافق مستوى اهتمام من يستمع إليه؛ لكن كلامه كلّه كان معبّرًا تعبيرًا واضحًا عن اعتزازه الكبير بالمصنع وبالعاملين فيه.

فضلًا عن بسكويت «Moments»، ينتج المصنع عددًا من الأسماء التجارية الكبيرة في السوق الأوروبية، من بينها: «Delichoc»، و«Gateau»، و«Teatime». أخبرني بوتييه أن هذا النوع الأخير، الذي هو إصبع من البسكويت مغلفة بالشوكولا قد أُنتج وسوّق في الآونة الأخيرة ضمن «نسخة محدودة» في علبة معدنية عليها صورة رجل وامرأة من أفراد العائلة الملكية البلجيكية الشباب، حاملين طفلهما الرضيع.

ذكّرني دخولنا صالة الإنتاج الرئيسية بذلك الإحساس الفريد الذي اعتدت أن يأتيني في مصانع أخرى عند رؤيتي منتجات صغيرة مما نراه في البيوت تخرج من بين أشداق آلات شديدة


مكتبة ياسمين

الضخامة، جاثمة في صالات قادرة على استيعاب سفن فضائية. قطع البسكويت التي لم أرها قبل ذلك الوقت إلّا ضمن عبوة من تسع قطع تسير هنا على سير ناقل بمعدل ألف ومئة قطعة في الدقيقة الواحدة. رشاشةٌ ذات فوهات كثيرة تغلّف بسكويتات «Moments» بالشوكولا، في حين تنثر عليها آلة أخرى قطعًا صغيرة من البندق. إن التكنولوجيا المستخدمة في هذه الآلة مستعارة من تطبيقات كثيرة لا جامع بينها: البندقية الرشاشة، وآلة تثقيب الورق، والنول، والأذرع الآلية الحركة في مكوك الفضاء. رأيت آلة تعجن ستة آلاف طن من العجين، في حين كانت إلى جوارها آلة عجيبة أخرى تعبئ في الساعة الواحدة خمسًا وثلاثين ألف علبة بسكويت زاهية الألوان.

لم يكن الاعتماد على هذه المستوى المهول من المكننة ناتجًا عن أن البشر غير قادرين على أداء هذه المهمَات بأيديهم، بل عن حقيقة أن تكاليف اليد العاملة شهدت زيادة كبيرة. يقضي علم الاقتصاد بأفضلية استئجار بضعة مهندسين لتطوير آلات هيدروليكية ذات أذرع متحرَكة، ثم صرف ثلثيَ العاملين وإعطائهم تعويضات البطالة حتى يستطيعوا أن يجلسوا في بيوتهم ويشاهدوا التلفزيون معتمدين على إيرادات ناجمة عن ضرائب تدفعها شركات من أمثال شركة «يونايتد بيسكيتس». يحسّ المرء عندما يرى هذا كلّه ما يُستبعد أن يكون المستهلكون الذين يفتحون عبوات «Moments» قادرين على تخيّله. فعلى سبيل المثال، كانت في تلك الصالة التي لا نوافذ لها، الصالة العابقة برائحة السكر والشوكولا اللطيفة، امرأتان في أواسط العمر على رأس كل واحدة منهما شبكة للشعر، جالستان متقابلتين إلى جانبي بساط مطاطي متحرَك تترصَدان أصغر العيوب في بنية العجين، ومن حين إلى آخر، تمتد يد واحدة منهما، فتلتقط قطعة بسكويت غير سليمة الشكل. توحي شدَة تركيز عيونهما بأنهما منهمكتان في


مكتبة ياسمين

مباراة حامية. مع هذا، يتيح لهما عملهما الاحتفاظ بقدر من الطاقة كافٍ لأن تثرثرا من غير انقطاع. كانت إحداهما تخبر الأخرى أن ابنها مستمر -على الرغم من نصائح أسرته- في الخروج مع عاهرة مهووسة بالملابس وبصالونات التسمير (لم يبد لي هذا سيئًا)، في حين كانت صفوف قطع البسكويت المتتالية تمر من أمامها ماضية إلى مصيرها الغامض في غرف المعيشة في دوندي، أو في دور رعاية الأطفال في بول.

ثم رأيت حسن الذي كانت مهمته مراقبة «خلاط» بحجم بيت، وإضافة القدر اللازم من الزيت النباتي إلى الدقيق. أتى حسن إلى بلجيكا منذ ثلاثة شهور قادمًا من قرية في غرب الجزائر. كان هناك أيضًا موقف باص منعزل، خارج المصنع، ينطلق منه العاملون إلى القرى والبلدات المجاورة؛ فضلًا عما يحيط بالمصنع من مشاهد طبيعية، من بينها حصان في حقل مجاور يرعى العشب متكاسلًا ويرفع رأسه ناظرًا إلى راية شركة «يونايتد بيسكيتس» مرفرفًا مثلما يرفرف قميص منشور في النسيم البارد.

لا شك في أن المصنع «كيان اقتصادي»؛ لكنه أيضًا واحد من منتجات العمارة وعلم النفس والإثنوغرافيا. يتساءل المرء إن كان مالكوه في «بلاكستون غروب» مدركين تبعات امتلاكهم قطعة أرض، وقسطًا كبيرًا من حياة مئتي شخص في شرق بلجيكا، وما إذا كانت تخطر في أذهانهم أية أفكار مبتكرة عندما ينظرون إلى أرقام الأرباح والخسائر وهم جالسون في مكاتبهم في مانهاتن عندما تصل حياتهم المهنية إلى ختامها، أتراهم يجدون في استثماراتهم هذه متعة خاصة وإحساسًا بالمسؤولية لا علاقة لهما بأية اعتبارات مالية؟


مكتبة ياسمين

ينصبّ القسم الأكبر من جهد بوتييه على إبقاء خط الإنتاج في المصنع عاملًا طيلة الوقت. عندما ارتفعت درجات الحرارة كثيرًا في الصيف الماضي وقاربت أربعين درجة في الداخل، اضطر إلى أن يستعير من القوات الجوية البلجيكية مجموعة من وحدات تكييف الهواء بغية حماية الشوكولا في المصنع. وقد كان الشعر المتساقط مصدر قلق دائم استوجب إلقاء محاضرات أسبوعية على العاملين لتعليمهم استخدام شبكات حماية الشعر القطنية استخدامًا صحيحًا. على الرغم من هذا، حدثت ثلاثة انقطاعات مكلفة في عمل خط الإنتاج قبيل عيد الميلاد، وكانت ناتجة عن إنذارات كاذبة بعد اكتشاف شعيرات سوداء اللون. ثم اتضح أن تلك الشعيرات كانت ساقطة من «أمشاط» من ألياف شبيهة بالشعر مثبتة عند مخارج الآلات. دفعت هذه الحوادث بوتييه إلى تركيب مجموعة أمشاط جديدة ذات لون برتقالي فاقع تصعب كثيرًا رؤيته على رأس إنسان.

إن ما يبديه بوتييه في عمله من اهتمام ومهارة كبيرَين يعزز فكرة وردت في كتاب كنت أقرؤه الليلة السابقة. اشتمل الكتاب على تحليلٍ لمقاربتين متضادتَين للعمل، نجدهما في تاريخ الفكر البروتستانتي والفكر الكاثوليكي. ففي العقيدة الكاثوليكية، غالبًا ما كان تعريف «العمل النبيل» مقتصرًا على ما يؤدّيه القساوسة خدمة للرب، في حين تجري إحالة الشغل العملي والتجاري إلى فئة متدنية جدًا لا صلة لها أبدًا بتجلي أية فضائل مسيحية. خلافًا لهذا الاعتقاد، تستعيد النظرة البروتستانتية إلى العالم، تلك النظرة التي تطوّرت خلال أكثر من ستة قرون، قيمة الأعمال اليومية؛ وهي تذهب إلى أن نشاطات قد تبدو غير


مكتبة ياسمين

مهمة في ظاهرها يمكن، في واقع الأمر، أن تُمكّن القائمين بها من التعبير عن خصالهم الروحية. وفق هذه النظرة، يصح أن يتجلّى التواضع والحكمة والاحترام واللطف في ورشة أو متجر مثلما تتجلّى هذه الخصال كلها في دير من الأديرة. إن من الممكن تحقيق تلك الخصائص على مستوى الوجود المعتاد، فهذا غير منحصر بتلك اللحظات القدسية التي تفضلها العقيدة الكاثوليكية. إن لكنس الفناء وترتيب خزانة الملابس صلة وثيقة بأكثر مواضيع الوجود أهمية ومغزى.

رأيت في بوتييه تجسيدًا حيًا لذلك المثل البروتستانتي. فمسلكه يستقطب الانتباه إلى كيفيّة فعله أمرًا من الأمور، لا إلى ما يفعله في حدّ ذاته. توحي مقاربته عمله بأن ثمة استمرارًا وتواصلًا، لا حاجزًا يصعب اجتيازه، بين العمل في أعلى درجات «سلّم المعنى» والعمل في أدناها. فكثير من المواهب والمهارات الممارسة في أشدَ المهمات إثارة للإعجاب يمكن العثور على ما يماثلها داخل منشأة معدنية ضخمة تردّد في جنباتها أصوات العجّانات وآلات تغليف البسكويت بالشوكولا.

-9-

لعل مما يقلل من قدرة الصانعين على تأكيد أن عملهم يمثل مساهمة ذات مغزى إزاء البشرية، تلك الطريقة «التافهة» التي يعتمدونها في تسويق منتجاتهم. فالأسى هو الاستجابة المنطقية الوحيدة إزاء أخبار تقول إن موظفًا قد أمضى ثلاثة شهور في تصميم حملة تسويقية في المتاجر، وكانت حملته تلك قائمة على تقديم ملصقات مجانية (ستيكرز) عليها صور شخصيات من أفلام الرسوم المتحركة، أطلقوا عليها اسم «فيمبلز».


مكتبة ياسمين

فلماذا يتخلَى أشخاص راشدون بطريقة فظة عن مسؤولياتهم؟ أليست لديهم طموحات أكثر أهمية يجدر بهم تحقيقها قبل أن يأتيهم الموت متلفعًا بعباءته السوداء حاملًا منجله؟

مع هذا، وقبل أن نُسخّف «مدير تسويق البسكويت الفاخر»، أو «مدير المناسبات الخاصة» الذي ابتكر تشكيلة البسكويت في العلبة المعدنية التي حمل غطاؤها صورة الأمير البلجيكي فيليب والأميرة ماتيلد، فمن الحكمة أن نتذكَر ضرورة كبرى كامنة في قلب تسويق البسكويت وبيعه، ضرورة لا شك في أنها على قدر من الإلحاح والبساطة يسمح باعتبارها ذات مغزى كبير - إنها ضرورة البقاء. فالعاملون جميعًا منشغلون بتلك المهمة القديمة نفسها، مهمة محاولة البقاء على قيد الحياة: مهمةً شاءت المصادفة أن تتطلَب انكبابهم (في هذا الاقتصاد الاستهلاكي القائم إلى حدَ كبير على إرضاء رغبات ثانوية)، على مجموعة نشاطات يسهل كثيرًا أن يخطئ المرء فيعتبرها تهريجًا.

على الرغم من بضع سنين من الأرباح الطيبة، كانت حسابات الربح والخسارة في شركة «يونايتد بيسكيتس» في خطر دائم. ففي أعقاب إغلاق كل ما كان في المنطقة من صناعات فولاذ ونسيج وفحم، عانى الناس هنا واحدًا من أعلى مستويات البطالة في الاتحاد الأوروبي كله. رافقت ذلك نسبة مرتفعة من الجرائم وحالات الانتحار. يعني هذا أن من شأن ارتكاب أي خطأ في أساليب التسويق أو التصنيع، وأن من شأن أية زيادة مفاجئة في أسعار القمح أو اضطراب في إمدادات الكاكاو، أن يمحو -بضربة واحدة- قسمًا من قوة العمل في الشركة، فيفقد وظائفهم عاملون يصعب عليهم كثيرًا أن

يعثروا من جديد على فرص عمل كافية في هذه المنطقة. يدرك بوتييه ثقل ما يحمله من مسؤولية إزاء العاملين. وقد عبّر عن قلق خاص إزاء السلوك «الضاري» الذي يعتمده منافسه الرئيسي الذي تملكه مجموعة دانون الفرنسية العملاقة ويحمل اسمًا ذا إيحاء لطيف، وإن يكن مضلِّلًا: LU. كثيرًا ما تنخرط الشركتان في صراعات تشبه تناطح الأيائل، إذ تتقاتل حتى الموت على موئل طبيعي محدود هو، في هذه الحالة، نحو عشرة أمتار من الرفوف التي تخصصها متاجر السوبر ماركت في شمال أوروبا لمنتجات البسكويت. تطلق فرق المبيعات في كل من الشركتين حملات خبيثة رامية إلى سرقة قسم من حصة الأخرى في السوق. قلَّدت LU كل منتج طرحته «يونايتد بيسكيتس» في بلجيكا: بسكويت الزبدة المغلف بالشوكولاته، «Delichoc» في مواجهة «Le Petit Écolier» الذي تنتجه LU؛ وبسكويت الزبدة البسيط، «Gateau» في مواجهة «Le Petit Beurre» لدى LU؛ وبسكويت «Colombine» بالشوكولا والبرتقال في مواجهة بسكويت مماثل تنتجه LU اسمه «Pim's Orange». بل حتى ويفر «Domino» المحشو بكريمة الشوكولا وجد نفسه مضطرًا إلى الدفاع عن وجوده مقابل «Le Fondant» الذي أنتجته LU.

لم يكن إنتاج هذه الأصناف كلِّها لعبة، كما لم يكن الترويج لها لعبة، بل محاولة للاستمرار لا تقلَ أهمية، أي إنها لا تقلَ استحقاقًا للاحترام والتبجيل، عن صيد الحيوانات البرية الذي كان مصير مجتمع بدائي بأسره متوقفًا على مدى نجاحه. إذا لم تستطع آلة تغليف جديدة أداء عملها بالجودة المنتظرة منها، أو إذا فشل شعار تسويقي في استمالة أهواء المتسوّقين، فلا مفر من خراب بيوت


مكتبة ياسمين

كثيرة، ولا مفرّ من قنوط كبير في ضواحي مدينة فيرفيير المجاورة. تحمل هذه البسكويتات حياة الناس على ظهورها.

لعل النشاطات التجارية الحديثة ليست من ذلك النوع الذي تعلّمنا أن نقيم صلة بينه وبين البطولة. وذلك أن هذه النشاطات مشتملة على معارك يخوضها أصحابها بوسائل «تثير الشفقة» إلى أقصى حدّ: عروض خاصة يحصل فيها المشتري على قطعتين بدل قطعة واحدة، أو على رشوات مقدّمة من خلال ملصقات عليها صور. لكنها تبقى معارك حقيقية قابلة للمقارنة مع ما في مطاردة الحيوانات في الغابات الخطيرة في بلجيكا ما قبل التاريخ من جهد ومثابرة.

**-10-**

ارتحلت عائدًا إلى إنكلترا على امتداد مسار يسلكه كل أسبوع أسطول من الشاحنات المرقّمة، التي تنقل كميات كبيرة من بسكويت «Moments» من مصنعها إلى مركز التوزيع الخاص بشركة «يونايتد بيسكيتس» في آشبي دو لا زوخ. توقفت على مقربة من أوستند عند محطة خدمة اصطفت في


مكتبة ياسمين

الساحة التي أمامها شاحنات متّجهة إلى محطة العبّارات التي ستجتاز بها القناة الإنكليزية.

سرحت في التفكير في مصانع على امتداد القارة كلّها، مصانع مشاركة في صنع أصابع البسكويت والشموع والأربطة المطاطية والزبدة واللازانيا والبطاريات وأغلفة الوسائد وألعاب الأطفال - تخيّلت أيضًا الشاحنات التي تجتاز أوروبا هذه اللحظات، مرتحلة شمالًا بأطقم الفوندو، وغربًا بأجزاء أجهزة الصوت، وعلى سفوح جبال الألب حاملة هواتف خليوية، وحول خليج بسكاي حاملة حبوب الإفطار المنفوشة.

إلى الناحية الأخرى من الحقل المقابل لمحطة الخدمة، يجري خط السكة الحديدية ذو السرعة العالية، خط تاليس الذي تجتازه قطارات «الرصاصة» بسرعة مئتين وخمسين كيلومترًا في الساعة مرتحلة بين هولندا وفرنسا. تبلغ تكلفة كل قاطرة ثمانية وعشرين مليون يورو. وفي الداخل، من الممكن أن يقرأ المسافرون الصحف وأن يحتسوا شرابًا. (لعلهم يشربون «Pepsi Light»، أو «Tropicana Mixed Fruit Vitalité»، أو «Fanta Lemon»، أو «Schweppes Dry Orange»)؛ وفي الخارج، تمضي ظلال العربات متتالية في ضياء الغسق كأنها صور في فيلم قديم. أية حضارة عجيبة هذه؟ غنية جدًا، لكنها تعكف على مراكمة ثروتها وتنميتها من خلال بيع سلع يدهش المرء صغرها وتذهله تفاهة معناها. حضارة ممزّقة غير قادرة على إقامة فصل يقبله العقل بين الغايات القيّمة التي يمكن بذل المال من أجلها، وبين آليات توليد هذا المال التي هي اليات هدامة، تافهة من الناحية الأخلاقية.


مكتبة ياسمين

في القرن الثامن عشر، بدأ منظرو الاقتصاد والسياسة يدركون مفارقات المجتمعات الاستهلاكية والانتصارات الكبيرة التي تحرزها، فهي مجتمعات تمنح التجارة والرفاه والثروة الخاصة موقع الصدارة، في حين يظل كلامها على السعي إلى غايات سامية كلامًا فحسب. منذ البداية، كانت السمتان الأكثر بروزًا في هذه المجتمعات تثيران عجبًا لدى مراقبيهما ودارسيهما: ثراؤهما وتفسّخهما الأخلاقي. كانت مدينة البندقية، أيام عزّها، واحدًا من تلك المجتمعات. وكانت هولندا مجتمعًا ثانيًا؛ وبريطانيا القرن الثامن عشر مجتمعًا ثالثًا. والآن، يسير القسم الأكبر من العالم مقتفيًا أثر تلك المجتمعات.

وعلى الدوام، كان إفراطها في الانسياق خلف رغباتها مبعث استياء لدى نفر من أفرادها من أصحاب العقول الكبيرة والتطلّعات الأخلاقية ممن هاجموا النزعة الاستهلاكية وأجلّوا الطبيعة والجمال والفنّ والرفقة بين البشر. لكن ما تبذله شركة بسكويت من وعود يظل موضعًا صالحًا لتذكر حقيقة أن معضلة صعبة كانت على الدوام تنتصب في وجه تلك البلدان التي تختار تجاهل الإنتاج النشط للبسكويت بالشوكولا، وتتوخى قدرًا كبيرًا من الصرامة في جعل مواطنيها من أصحاب القدرات البارزة يمتنعون عن إنفاق حياتهم في ابتكار أساليب الترويج التسويقية وتطوّرها: كانت تلك البلدان فقيرة؛ بل كانت فقيرة إلى حدّ جعلها غير قادرة على ضمان الاستقرار السياسي فيها، ولا على مدّ يد العون إلى أضعف مواطنيها ممن تفتك بهم المجاعات والأوبئة. البلدان ذات «العقل السامي» هي التي تركت مواطنيها يتضوّرون جوعًا؛ في حين استطاعت البلدان ذات العقليات المتركزة


مكتبة ياسمين

على الذات، ذات العقليات الطفولية، أن تمتلك -بفعل شطائرها المحلاة وستة آلاف نوع من الايس كريم- موارد تستطيع استثمارها في مستشفيات التوليد وآلات تصوير الدماغ.

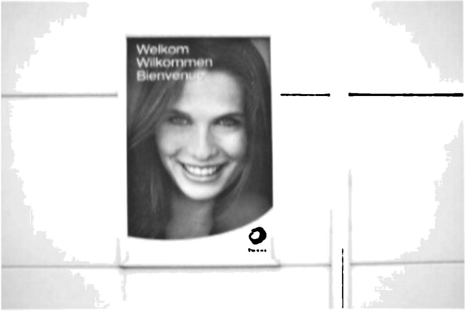


قامت مدينة أمستردام على بيع الزبيب والزهور. وتشكَلت مدن كالبندقية من مراكمة أرباح تجارة السجاد والتوابل. وبنى السكَر مدينة بريستول. لقد حظيت المجتمعات التجارية، على الرغم مما تنتهجه من سياسات لا أخلاقية في أحيان كثيرة، وعلى الرغم من إهمالها القيم ومن ليبراليتها الأنانية، بنعمة المتاجر الممتلئة سلعًا، والخزائن الغاصة بأموال كثيرة تتيح تشييد المستشفيات وإقامة المعابد.

من مقعدي عند النافذة في محطة الخدمة على الطريق السريعة على مقربة من أوستند، مراقبًا خروج شاحنة كبيرة محمَلة بلفافات ورق المراحيض في طريقها إلى الدانمارك، فتحت واحدة من علب بسكويت «Moments» التي قدَمها إليَ بوتييه هدية عند وداعنا، وفكَرت في المجتمعات التي تُبنى فيها ثروات خيالية في قطاعات واهية الصلة إلى أقصى حدَ باحتياجاتنا الصادقة المهمة.


مكتبة ياسمين

قطاعات يصعب فيها إغضاء العين عن الفارق الكبير بين جدية الوسائل وتفاهة الغايات، حيث نجد أنفسنا من جديد في خطر الوقوع في أزمات المعنى عندما ننظر إلى ملحقات كمبيوتراتنا وإلى مستودعاتنا، فنتأمل بشيء من القنوط تفاهة شُغلنا ونُجلَ، في الوقت نفسه، الوفرة المادية الناجمة عنه مدركين أن ما قد يبدو أشبه بلعب الأطفال ليس، في واقع الأمر، بعيدًا أبدًا عن الكفاح من أجل بقائنا نفسه. بدت لي هذه الأفكار كلّها مجسدة في علبة من بسكويت «Moments» الدبق، المغلَف بالشوكولاته، السائغ طعمه إلى حدَ فاجأني.

# الفصل الرابع
# الاستشارة المهنية

## -1-

مهما تكن تكنولوجياتنا قوية أو قادرة، ومهما تكن شركاتنا الكبيرة متقدِمة، فلعلَ السمة الأكثر بروزًا في عالم العمل الحديث سمةٌ داخلية مكونة من وجهِ من وجوه ذهنياتنا: اعتقادٌ واسع الانتشار مفاده أن عملنا ينبغي أن يجعلنا سعداء. لقد احتل العمل موقعًا مركزيًا في المجتمعات كلها؛ لكن مجتمعنا أول مجتمع يرى أن من الممكن أن يكون في العمل ما يتجاوز «عقوبة» أو «عبئًا مفروضًا». إنه مجتمع يقول لنا إن علينا أن نلتمس عملًا حتى في غياب أية ضرورية مالية تحملنا على ذلك. نعتبر اختيارنا مهنة من المهن تعريفًا لهويتنا إلى حدّ يجعل أول سؤال مُلحُ نطرحه على شخص نقابله أول مرة هو «ما يفعله»، لا «من أين هو» ولا «من هم ذووه». وهذا قائم على افتراض أن السبل المفضية إلى وجودِ ذي مغزى لا بد أن تمر عبر العمل الذي يدرّ ثمارًا مالية.

على أن الأمر لم يكن هكذا دائمًا. ففي القرن الرابع قبل الميلاد، حدّد أرسطو موقفًا من هذا الأمر ظل مهيمنًا ألفي سنة، عندما أشار إلى انعدام توافق بنيوي بين الرضا والعمل المأجور. ففي نظر الفيلسوف اليوناني، تضع الحاجة المالية صاحبها على قدم المساواة مع العبيد ومع الحيوانات. إن عمل اليدين، ومثله عمل الجوانب «التجارية» في العقل، يؤدّي إلى تشوه نفسي. وحدها حياة الراحة والدّعة القائمة على «دخل خاص» قادرة على أن تمنح المواطن فرصة كافية للتمتع بما في


مكتبة ياسمين

الموسيقى والفلسفة من مسرّات سامية.

أضافت المسيحية الأولى إلى فكرة أرسطو هذه اعتقادًا أكثر قتامة مفاده أن ما يرافق العمل من بؤس ليس إلّا تكفيرًا عن خطايا آدم... ليس إلّا تكفيرًا وفاقًا لا فكاك منه. استمر الأمر هكذا إلى عصر النهضة، عندما بدأ ظهور «نغمة» أخرى. ففي سير الفنانين العظماء، من أمثال ليوناردو دافنشي ومايكل أنجلو، نسمع أولى الإشارات إلى «أمجاد» النشاطات العملية. صحيح أن إعادة التقييم هذه ظلَت أول الأمر مقتصرة على العمل الفني، بل حتى على حالاته وأمثلته الأكثر تألقًا، لكن هذه الفكرة لم تلبث بعد ذلك أن اتسعت بحيث صارت مشتملة على الصناعات كلها تقريبًا. مع حلول أواسط القرن الثامن عشر، وفي تحدٍّ مباشر للموقف الأرسطي، أصدر كل من ديدرو ودالامبير *«الموسوعة»* التي ضمّت سبعة وعشرين مجلدًا، حفلت بمقالات تحتفي بالذكاء العملي، وبالبهجة الماثلة في صنع الخبز وزراعة الهليون، وتشغيل الطاحون، وصنع مرساة، وطباعة كتاب، وإدارة منجم للفضة. وقد رافقت نصوص تلك المقالات رسوم تمثل الأدوات المستخدمة في إنجاز كل مهمة من المهمات. أدواتٌ من بينها بكرات وملاقط ومقامط وتجهيزات كثيرة قد لا يدرك القارئ الغاية منها، لكنها تظلَ رسومًا قادرة على تجسيد غايات متَسمة بالشرف والمهارة، وعلى متابعة تلك الغايات. أمضى الكاتب ألكساندر ديلييير شهرًا في ورشة لصنع الإبر في منطقة نورماندي، ثم كتب المقالة التي قد تكون الأوسع أثرًا من بين كل ما احتوت عليه *«الموسوعة»*: بكل احترام، وصف في تلك المقالة خمس عشرة خطوة لا بد منها لتحويل كتلة معدنية إلى واحدة من تلك الأدوات البارعة وهي الإبرة التي يندر أن يلتفت إليها الناس،


مكتبة ياسمين

المستخدمة في تثبيت الأزرار.

في حقيقة الأمر، كانت هذه «*الموسوعة*» التي زُعم أنها خلاصة وافية لمعارف البشر أنشودةً في مديح نبل العمل. يصرّح ديدرو بغاياته عبر مقدّمة بعنوان «الفن» ينتقد فيها أولئك الذين يقتصرون على تمجيد «الفنون العقلية» (الموسيقى والفلسفة عند أرسطو)، في حين يتجاهلون نظيراتها «الحركية»، (كصنع الساعات ونسج الحرير): «لقد امتدحت الفنون العقلية نفسها زمنًا كافيًا وصار عليها الآن أن ترفع صوتها في مديح الفنون العملية. على الفنون العقلية أن تحرّر الفنون العملية من النظرة المتعالية التي تحط من شأنها منذ زمن بعيد».

من هنا، حوّل مفكرو القرن الثامن عشر البرجوازيون صيغة أرسطو، فقلبوها على رأسها: الرضا الذي لم يجده الفيلسوف اليوناني إلّا في حياة الدَعَة صارت الآن منقولة إلى ميدان العمل، في حين جُرّدت الأعمال التي ليست فيها أيّ منفعة مالية من الاعتبار، وصارت متروكة لما قد يبديه إزاءها أشخاص «فاسدون» غير جادّين من اهتمام عارض. الآن، صارت استحالة أن يكون المرء سعيدًا وغير مُنتجٍ تماثل ما كانته ذات يوم استحالةُ أن يعمل وأن يكون إنسانًا.

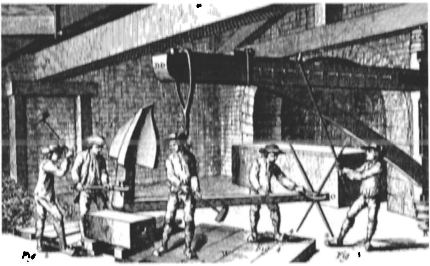

هنا أيضًا، ثمة إمكانية للسعادة:

«صنع مرساة»، من كتاب «*الموسوعة*»، لديدرو

حرَضت أوجه تطور الموقف من العمل أفكارًا موازية لها في موضوع الحب. ففي هذا الميدان أيضًا، قرن برجوازيو القرن الثامن عشر بين الممتع والضروري. ذهبوا إلى القول بأن ما من تعارض أصيل بين الرغبة الجنسية وبين المتطلبات العملية لتنشئة الأطفال ضمن الوحدة الأسرية، وبأن وجود العاطفة الرومانسية في الزواج أمر ممكن - تمامًا مثلما يمكن أن يجد المرء متعة في وظيفة يتلقى عنها أجرًا.

قام برجوازيو القرن الثامن بخطوات كبيرة جدًا لا نزال ورثة لها حتى الآن، إذ اكتشفوا في الزواج والعمل مسرَات ظنها الأرستقراطيون مقتصرة -على نحو متشائم، أو على نحو قد يكون واقعيًا- على ميدانين فرعيين هما «الهوايات» و«العلاقات الغرامية».

-2-

حاملًا هذا التاريخ في ذهني، بدأت الاهتمام بمقابلة واحد من استشاريي العمل: شخص متخصَص في العثور على سبل تضمن أن يكون عمل المرء مرادفًا لشعوره بالإشباع والرضا.


مكتبة ياسمين

بحثت في الإنترنت فوجدت شركة اسمها «استشارات العمل الدولية» يعذ موقعها في الإنترنت بمد يد العون إلى من يواجهون «قرارات صعبة في الحياة وفي اختيار العمل». جعلني هذا الزعم أتوقَع رؤية مقر شركة كبيرًا عالي المستوى، لكني اكتشفت أنه غرفة صغيرة مضافة إلى بيت قديم مقامٍ على الطراز الفيكتوري في منطقة سكنية مهلهلة في جنوب لندن. مكتب إداري صغير وغرفة «معاينة» فيها نسخ مطبوعة من لوحات بول كلي، ونوافذ مطلّة على بركة لتربية أسماك الكارب وحبل غسيل. في الشركة شخص واحد يعمل بدوام كامل اسمه روبرت سايمونز. إنه معالج نفسي في الخامسة والخمسين، بدأ هذا العمل منذ اثني عشر عامًا. وهو يديره مع زوجته، جون، التي تساعده في الحسابات وفي تسجيل نتائج اختبارات القدرات. كان الاثنان مغرمين بأقل الخضار شعبية لدى الإنكليز؛ ففي أكثر أوقات النهار -حتى في ساعات الصباح الأولى- تفوح في المكان رائحة قوية هي رائحة الملفوف والبنجر المسلوقين. درس سايمونز علم النفس في جامعة بريستول بحيث صار متأثرًا بمدرسة علم النفس الإنسانوية التي تشدَد على الإبداع والتطوَر الذاتي. ألَف في أوقات فراغه كتابًا بعنوان *«أنا الحقيقي: العمل من حيث هو فعل تحقيق للذات»*، وهو يحاول نشره منذ سنين طويلة.

كان سايمونز رجلًا ملتحيًا طويل القامة، له مظهر موحٍ بأنه قادر على مصارعة ذئب ورميه أرضًا؛ لكن قوّته الجسدية غير متفققة أبدًا مع ما له من صبر جدير بقديس. لو عاش في زمن آخر لكان المرء قادرًا على تخيّله راعيًا لأبرشية ريفية مسالمة يربّي في حديقة بيته نحلًا وسلحفاة، شخصٌ مكتفٍ بالقليل، لكنه ذو إخلاص استثنائي في محاولته مساعدة «المريض» وكل من ألمّت به مشكلة. جلسنا في غرفة المعاينة متقابلَين وبيننا طبق فيه فطائر محلاة بالتين، اعترف لي بأنه مغرم بها غرامًا يقارب الإدمان. كانت عيناه لطيفتَين جدًا، وبدا لي شخصًا منفتحًا على الإصغاء إلى اعترافات من أغرب الأنواع. حتى أكثر شطحات العقل تطرّفًا لا تستطيع أن تفاجئه، أو أن تستدرّ منه أحكامًا تسفّهها. أحسست برغبة غريبة في أن يكون هذا الرجل أبي.

يرى سايمونز عملاءه في بيته ثلاثة أيام كل أسبوع. وفي الأيام الباقية، يزور شركات في أنحاء مختلفة من البلاد، حيث يقدم الاستشارة إلى العاملين الذين أنذرتهم شركاتهم بالاستغناء عنهم، أو إلى المديرين الذين يجدون صعوبة في الاضطلاع بأعباء مسؤولياتهم. يقدم أيضًا ندوات

تحفيزية موجَهة إلى العاطلين عن العمل، فضلًا عن اختبارات نفسية من أجل مقابلات العمل. ومن على منصات إلقاء الكلمات في المعارض الجامعية، يدير جلسات من أجل الخريجين الذين يستعدون لدخول سوق العمل.

اتفقنا على أن أراقب أساليبه في العمل على امتداد بضعة أسابيع. سوف أرافقه في ترحاله؛ وسوف أجلس في الغرفة الإدارية في مكتبه كي أتابع على الشاشة جلساته الاستشارية مع عملائه في البيت (بعد الحصول على موافقتهم). لم يطلب شيئًا مقابل ذلك غير أن أصله بوكيل أدبي جيد قد يقبل أن ينشر كتابه.

-3-

بعد ثلاثة أيام من ذلك، وجدت نفسي جالسًا في غرفة مكتب شديدة الضيق، كأنها خزانة، أنظر إلى شاشة بيضاء وسوداء تعرض ما يحدث في غرفة المعاينة المجاورة حيث كانت العميلة الأولى في ذلك اليوم قد بدأت تلخّص لسايمونز تاريخها الشخصي، وتحدّثه بما تحسّه في عملها من عدم رضا، وذلك بمزيج مؤثر من الصدق والرسمية. من حولي أوراق وملفات مكدّسة حتى السقف، وعلى الأرض حقيبة فيها مستلزمات سايمونز الرياضية الفائحة برائحة قوية لحذاء رياضي استخدم منذ وقت قصير. كنت قادرًا على سماع صوت العميلة من خلال مكبر الصوت الذي في الشاشة أمامي، وكذلك عبر الجدار الرقيق. صوتها من تلك الأصوات الإنكليزية الواضحة ذات النطق السليم جدًا، أي من ذلك النوع من الأصوات الذي يصير للمرء عندما يترعرع في والتون أبون تايمز، ثم يدرس التاريخ بكلية كيبل في أكسفورد. عبر شق في الباب، كنت

أرى معطفها معلقًا في الممر: معطف كشمير ذو لون غني أزرق، عليه نقاط من ماء المطر، وإلى جواره حقيبة جلدية رشيقة.

قاطعت المرأة نفسها ثلاث مرات بأن تدفع بشعرها إلى الخلف على نحو مفاجئ وتقول: «أنا آسفة، لا بد أن ما أقوله مضجر جدًا». لكن سايمونز كان يهز رأسه بحركة هادئة كأنه توقع أن يسمع منها هذا الكلام، ويقول لها: «أنا هنا من أجلك أنت فقط». بعد عشرين دقيقة من بداية الجلسة، خفَض المعالج النفسي صوته حتى كاد يصير همسًا حين سألها بنبرة دافئة، عمَا حلَ بالطفلة العفوية المتحمَسة التي لا بد أنها كانتها في يوم من الأيام. كانت كارول البالغة من العمر سبعة وثلاثين عامًا محامية ضرائب، مسؤولة عن دائرة فيها خمسة وأربعون موظفًا، قائمة على مقربة من «بنك إنكلترا»، لكنها بدأت تنتحب بعد هذا السؤال. ظل سايمونز جالسًا ينظر إليها بعينيه الحانيتين، وفي الخارج رأيت قطة الجيران تسير من حول حوض أسماك الكارب.

بعد انصراف كارول، وبعد أن جمع سايمونز المناديل الورقية التي مسحت بها دموعها وألقى بها في سلة المهملات وأعاد ترتيب الوسائد، قال لي إن من أكثر الأفكار الخاطئة شيوعًا، وأقلّها فائدة، لدى من يأتون إليه فكرة أنه كان عليهم بطريقة من الطرق، ضمن مجريات حياتهم المعتادة، أن يدركوا بحدسهم -قبل زمن طويل من إنهاء الدراسة وتأسيس أسرة وشراء بيت، والارتقاء إلى أعلى الوظائف في شركة للقانون- ما كان عليهم فعله بحياتهم. تعذِّبهم دائمًا فكرة راسخة لديهم مفادها أنهم، نتيجة أخطائهم، أو نتيجة غبائهم، لم يعرفوا كيف يعثرون على «ندائهم» الحقيقي.


مكتبة ياسمين

«نداؤهم»، ظهر هذا المصطلح العجيب التّعس أول مرة ضمن السياق المسيحي أثناء العصور الوسطى، وذلك في معرض الإشارة إلى ما يحسّه الناس من ظهور مفاجئ لدافع ملحّ يدعوهم إلى تكريس أنفسهم لتعاليم المسيح. لكن سايمونز رأى أن نسخة علمانية من هذه الفكرة ظلّت حيّة حتى بلغت العصر الحديث، حيث صارت تعذبنا وتجعلنا نظن أن «معنى حياتنا» قد يتكشّف أمامنا في لحظة من اللحظات فنراه في صورة جاهزة ناجزة وتصير لنا مناعة دائمة إزاء أي إحساس بالحيرة أو الحدس أو الندم.

يفضّل سايمونز الاستشهاد بجملة من كتاب في علم النفس لإبراهام ماسلو اسمه «*الحافز والشخصية*» علّقها فوق باب الحمام: «ليس أمرًا عاديًا أن نعرف ما نريد. إنه إنجاز نفسي صعب يندر حدوثه».

-4-

عادت كارول بعد أسبوع من ذلك. كانت مرتدية تنورة خضراء اللون مع قميص قصير الكمين. بدت أصغر سنًا بعشر سنين. اعتذر سايمونز لأن الغرفة كانت فائحة برائحة الطعام (كانت زوجته تعد هريس البنجر مع الجبن)، واقترح عليها أن تؤدّي تمرينًا كتابيًا صغيرًا. وضع أمامها ثلاث ورقات بيضاء عليها عنوان يقول: «أمورٌ تعجبني»، ثم منحها عشر دقائق حتى تدوّن على الورق كل ما يخطر في ذهنها، من الأمور الكبيرة، وصولًا إلى أمور صغيرة قد تبدو من غير أيّ أهمية. خرج من الغرفة كي يأتي بكأسين من شاي الليمون والزنجبيل. إنه يقاوم دائمًا نصيحة فرويد التي تحذّر من الألفة الزائدة بين المعالج والمريض.


مكتبة ياسمين

جلست كارول تكتب في أوراقها وترفع رأسها مرات كثيرة كي تنظر من النافذة. كان لها ذلك النوع من الجمال القوي الذي يكاد يكون ذكوريًا، جمال قد يُذكِّر المرء بزوجة مسؤول استعماري متوسط المرتبة في أوغندا في العقد الثالث من القرن العشرين.

كان سايمونز مدركًا أن لا فائدة من محاولة إرشاد الناس إلى مهن أكثر إرضاء لهم عبر الاقتصار على سؤالهم سؤالًا مباشرًا عما قد يحبّون فعله. منذ زمن بعيد، أدى القلق في ما يخص المال والمنزلة الاجتماعية إلى «إخماد» قدرة أكثر عملائه على التفكير في خياراتهم تفكيرًا أصيلًا صادقًا. من هنا، يفضل سايمونز أن يعودوا إلى المبادئ الأولى وإلى ما كان يثيرهم ويبهجهم من غير محاولة تقييدهم ضمن شيء صلب، مثلما يفعل «إطار العمل» الذي يحيط بهم.

كان يحب استخدام الاستعارة التالية: عندما يبحث عملاؤه عن «قدراتهم»، يكون عليهم أن يتصرَفوا مثلما يتصرف الباحثون عن الكنوز عندما يمسحون الأرض بأجهزة اكتشاف المعادن، ويصغون إلى ما يسميه «رنين الفرح». فقد تأتي الإنسان أول إلماحة إلى أن اهتمامه الحقيقي متجه إلى الشّعر، لا من خلال سماعه «صوتًا غلويًا» أثناء تقليبه صفحات كتاب شعر، بل من «رنة» يحسَها عند رؤية الضباب فوق وادٍ وادعٍ عندما ينظر من نهاية ساحة لوقوف السيارات في المدينة، فيرى الضباب متصاعدًا من ذلك الوادي. على نحو مماثل، قد تحسّ سياسية، قبل زمن طويل من التحاقها بأي حزب أو من امتلاكها فهمًا عميقًا لآليات عمل الدولة، إشارةً تنبئها بما تحب فعله عندما تكتشف

أنها نجحت في رأب الصدع بين فردين من أفراد الأسرة.

اتضح بعد ذلك أن «رنّات» كارول متنوعة إلى حدّ محيّر. لقد اشتملت خيالاتها عن الأمور التي تعجبها زيارة الكنائس القديمة، وتقديم الهدايا، وجعل الأشياء أنيقة، والأكل في مطعم للأسماك افتتحته صديقة لها في مارغيت، وشراء الكراسي القديمة، وقراءة مدوّنات على الإنترنت تتناول أمورًا اقتصادية.

كرّس كارول وسايمونز جلسات كثيرة لتفسير ما اشتملت عليه تلك القائمة، مستخدمين في تلك المهمة قدرًا من الروح الموضوعية، يضاهي ما قد نراه عند عالميَ آثار عاكفين على دراسة أنقاض مدينة عتيقة. ومع مضيّها في الحديث عن مطعم الأسماك، اتضح أن ذلك المكان ليست له، في حدّ ذاته، أية جاذبية خاصة في نظر كارول: ما كان له أثر في نفسها هو أنه مثال على شخص أقدم على مخاطرة بدء عمل انطلاقًا من اهتمام شخصي صرف. استخلص سايمونز من هذا الحديث كلمة «حماسة» وسجلها على لوح أبيض مثبت خلف الباب. وأما ميل كارول إلى قراءة المدوّنات الاقتصادية، فقد تبيّن مع الوقت أنه نابع من حماستها إزاء مثال بعينه يتناول ريادة الأعمال الاجتماعية. كتب سايمونز على اللوح «الأعمال الخيرية».

بعد ذلك، انتقل تركيز الاستشاري وعميلته إلى موضوع الحسد. كان لدى سايمونز إعجاب واضح بهذا الشعور؛ فهو يرى أن مما يدعو إلى الأسف واقع أن الناس كثيرًا ما يمارسون عليه قدرًا غير قليل من الرقابة انطلاقًا من نوع من «نزوع أخلاقي متزمّت»،


مكتبة ياسمين

على الرغم من دوره النافع في تنبيهنا إلى أمور ذات علاقة مباشرة بشخصياتنا. فمن غير الحسد، لا يستطيع أحد أن يدرك رغباته. لذا، منح سايمونز كارول عشر دقائق أخرى كي تسجل أسماء كل من تحسدهم. أضاف قائلًا أثناء خروجه من الغرفة إنه لا يريد منها أن تكون لطيفة، وإنه إذا لم يجد على الورقة اسمين من بين أصدقائها أو زملائها المقرَّبين، فسوف يعلم أنها تحاول المراوغة. عبر متابعتي هذه الجلسات من خلال دارة تلفزيونية مغلقة، بدأت أحسّ بأن ما يجري في تلك الغرفة المجاورة الرطبة أمرٌ ذو مغزى تاريخي. لقد أنفق سايمونز حياته في تكريس اهتمامٍ من درجة استثنائية بأصغر تفاصيل مشاعر أشخاص آخرين. فبعد آلاف السنين من تفضيل الفعل على التأمّل والتفكير، ومن توجّه ذكاء البشر إلى مناقشة أفكار مجرّدة جدباء، وجدت الحيرة اليومية التي يواجهها الإنسان العادي في حياته اليومية منبرًا تحظى فيه بما تستحقه من تفكير منهجي. ثمة أعمال مزدهرة كثيرة تهتم بعناصر أقل شأنًا ضمن «هرم احتياجاتنا» -شركات تعيننا في أعمال البستنة والتنظيف والمحاسبة والكمبيوترات- وها هي الآن، أخيرًا، شركة متفرغة من أجل تفسير إشارات بالغة الأهمية، لكنها غامضة إلى حدّ مفزع، تبثها نفوسنا.

كانت فوق مكتب سايمونز صورة لمنحوتة مايكل أنجلو «*أطلس*» غير المكتملة، التي هي جزء من مجموعة أكاديميا غاليري في فلورنسا. في هذه الكتلة الحجرية التي توقفت في منتصف طريقها بين المادة الخام والعمل المكتمل، نرى جسدًا بشريًا لا يزال من غير رأس يحاول جاهدًا أن يخرج من كتلة الرخام. كان هذا العمل غير المكتمل يبدو لسايمونز تجسيدًا لما يمكن أن تقدمه لنا


مكتبة ياسمين

«استشارات العمل»: بحسب كلمات نيتشه، هي تساعدنا في أن نصير «ما نحن».

-5-

بعد شهر أمضيته مع سايمونز، سألني إن كنت راغبًا في الذهاب معه في رحلة عمل إلى شمال إنكلترا. ستكون محطتنا الأولى في مدينة نيوكاسل حيث حجز لنفسه مكانًا في معرض جامعي خاص بفرص العمل. كان متوقعًا أن يأتي ألفا طالب لزيارة المعرض المقام في صالة على الطراز الفيكتوري تغصّ بموظفين يمثلون كل قطاع من قطاعات الاقتصاد. سوف يعرض سايمونز تقديم جلسات استشارية تستمر الواحدة منها نصف ساعة مع إمكانية مواصلة الحوار عبر الهاتف.

كان القطار المنطلق من لندن مزدحمًا، فأشفق علينا مراقب التذاكر عندما رآنا واقفين في الممر ومعنا حقائب كبيرة فيها مكوّنات الكشك الذي سيقيمه سايمونز في المعرض. سمح لنا الرجل بدخول عربة الدرجة الأولى حيث جلسنا على مقاعد وثيرة مغلَفة بالمخمل وتناولنا وجبة إفطار من النقانق والبيض. لكن، خُيّل إليّ أن أثر هذه الرفاهية غير المتوقَعة على سايمونز لم يكن بهيجًا؛ والظاهر أنها كشفت عن جانب سوداوي فيه لم أره من قبل. فبينما كنا نرقب مرور آخر بقايا إنكلترا الصناعية خلف النافذة، غرق سايمونز في تفكير عميق في تردي أحوال الحضارة الحديثة. ثم تغير موضوع حديثه وانتقل إلى الشكوى من قلَة الناس المستعدّين للاستثمار في خدماته، وفي قلَة من يقصدونه من أجل ما يتجاوز جلسة افتتاحية واحدة، أو يفضلون أمورًا أخرى على استشاراته القائمة على أساليب مجرَبة، وذلك انطلاقًا من تكلفة خدماته وسرعتها. خلص


مكتبة ياسمين

كلامه إلى أن البريطانيين، في أكثرهم، يفضلون إنفاق حياتهم الناضجة كلّها في العمل في وظائف اختارتها لهم ذواتهم غير المفكّرة عندما كانوا في السادسة عشرة. إلى الناحية الأخرى من الممر، وفي تأكيد واضح على صحة تحليله، كانت فتاة مراهقة تقلّب متكاسلة صفحات المشاهير في مجلة «*بيلا*».

بلغنا المعرض مع افتتاح أبوابه، فأسرعنا في إقامة كشكنا. بدأ دخول الطلبة. كانوا منطلقين، سائرين في جماعات. وكثيرًا ما يندفعون في ضحك صاخب. ما يتمتعون به من صحة وافرة، ومن جمال بعض الأحيان، كان موحيًا بأن المعرفة والخبرة قد لا تكونان -في آخر المطاف- سلعتين كبيرتيَ القيمة في نظرهم. كان بعض العابرين يلتقط منشور سايمونز الدعائي عند مروره أمام الكشك؛ لكن أكثر الداخلين كانوا يسرعون الخطى متَجهين إلى كشك يعرض التعاقد مع الجيش، أو إلى كشك خاص بسلسلة متاجر سوبر ماركت قائم إلى الناحية الأخرى من الممر.

بدا لنا أن ذلك اليوم المرهق سينتهي من غير تحقيق أي دخل، إلى أن بدأ سايمونز استعراض مجموعة من الاستبيانات التقديمية التي وزعها


مكتبة ياسمين

على الناس، فاكتشف أن شخصًا اسمه سورنكيرك غارد قد ملأ واحدًا منها. في المساحة الخالية تحت عنوان يقول: «ما أريد تحقيقه في العمل»، كتب ذلك الكوميدي المستجد، «أن أطيح بهيمنة القيم المسيحية الزائفة ونفاق الكنيسة الدانماركية الرسمية».

ذلك المساء، بتنا في فندق «إيبيس» الذي لا بهجة فيه، حيث كانت صالة الطعام مغلقة بسبب فيضان المياه. ذهبنا إلى النوم في ساعة مبكرة بعد أن تناولنا شطائر بالجبن اشتريناها من محطة الوقود.

بدأت الأمور تتحسَن قليلًا في اليوم التالي عندما ذهبنا إلى ميدلزبرو، في زيارة إلى شركة لإصلاح زجاج السيارات كانت قد قرّرت صرف خمسة وعشرين من عمالها ذوي المواقع المتوسطة. طلبت إدارة الشركة من سايمونز إقامة ندوة بعنوان «الثقة بالنفس»، يقوم خلالها بمرافقة أولئك الموظفين الذين صاروا فائضين عن الحاجة عبر سلسلة تمرينات مصمَمة كي تساعدهم في تصوّر مستقبلٍ مُرضٍ لهم. عرض في الجلسة الصباحية بضع صور على الشاشة: «*أستطيع فعل أي شيء إذا عقدت العزم على فعله*». «*أستطيع أن أكون قويًا وأن أحرك الجبال*». «*أستطيع أن أضع لنفسي أهدافًا، وأن احقّقها*». «*لا يشير أي شيء مما فعلته حتى الآن إلى القدرات الحقيقية الكامنة داخلي*». وبعد ذلك، وزّع سايمونز على الحاضرين كتيِبًا فيه مقتطفات من سير حياة عدد من المشاهير العصاميين، من رجال ونساء. وعلى غلاف الكتيِب، عبارة مأخوذة من ليون باتيستا ألبرتي: «*الإنسان قادر على فعل كل شيء، إن أراد*».


مكتبة ياسمين

لم تكن متابعة أي شيء من هذا مهمّة سهلة. وفي لحظات كثيرة، وجدت نفسي أنظر عبر النافذة إلى الكافتيريا التي في الأسفل. أثار اضطرابًا خاصًا في نفسي سماعي واحدًا من المشاركين يكرّر، وفق توجيهات سايمونز: «*أنا من أكتب قصة حياتي*». ذهبت إلى الحمام كي أريح عقلي قليلاً؛ وحاولت تحليل ما ألمّ بي من عدم ارتياح. لكني لم أكد أبدأ فعل هذا حتى بدأت أشك في موقفي نفسه. أدركت أن كلام سايمونز أثار اضطرابي لأنه يعكس حقيقية مزعجة -لكن الفرار منها غير ممكن أبدًا- في ما يخص فكرة «الإنجاز» في عالمنا الحديث. ففي مجتمعات أقدم عهدًا وأكثر تراتبية، تُقرّر مصادفات المولد مصير الفرد؛ ولا يكون الفارق بين الفشل والنجاح متوقفًا على عبارة من قبيل «*أستطيع تحريك الجبال*».

وأما في العالم الحديث القائم على الجدارة وعلى الحركة الاجتماعية الدائمة، فمن الممكن جدًا أن تقرّر مكانة المرء عوامل من قبيل ثقته بنفسه، وسعة مخيلته، وقدرته على إقناع الاخرين بقيمته - هذه فرصة للتقدم والارتقاء لا تقيم كبير وزن لفلسفتيَ التقشف والتعقل. والظاهر أن من الممكن


مكتبة ياسمين

أن يبدِّد المرء فرص حياته نتيجة ما يحسّه من ازدراء غير حصيف، إزاء كتب تحمل عناوين من قبيل «*إرادة النجاح*»، معتقدًا أنه أعلى مستوى مما فيها من شعارات تشجيعية طنانة. قد لا يكون افتقار المرء إلى الموهبة هو ما يحكم عليه بالهلاك، بل نوعٌ مؤذٍ من الترفُّع والكبرياء المتشائم.

بعد استراحة الغداء، أخذ سايمونز المديرين المفصولين وعاد بهم إلى قاعة المحاضرات، حيث عرض عليهم فرصة إطلاع الآخرين على آمالهم في ما يخصّ المستقبل. الفكرة هنا هي أن من شأن كشفٍ علني من هذا النوع أن يصير بمثابة عهد يقطعه المرء على نفسه، فيصعب عليه التخلّي عنه عندما تهتز ثقته. تحدثَت واحدة من العاملين صارت في الأربعينيات من العمر بعد أن أمضت في الشركة عشرين سنة، فكشفت عن تطلّعها إلى افتتاح مقهى في القرية التي أمضت فيها طفولتها. كانت حماستها شديدة، وخططها تفصيلية جدًا (ستعلَق على الجدران صورًا لشيرلي تيمبل في شبابها)، فكان شبه مستحيل ألّا يثير كلامها مشاعر المستمعين. اختتمت حديثها بعبارة: «*أستطيع تحريك الجبال*»، ثم عادت إلى مقعدها وصفّق لها الحاضرون جميعًا.

امتلأت عيناي دموعًا. تذكرتُ أنه مهما يبلغ مستوى الفهم العقلي الذي نطبقه أحيانًا على أفعالنا، فإن لدينا حاجات بسيطة جدًا، من بينها جوعنا الدائم العجيب إلى تلقّي المساندة والحب. لقد كانت تمرينات سايمونز التحفيزية تخاطب ذلك الجزء العتيق من طبائعنا الشخصية، ذلك الجانب الذي لا يحتاج إلى فصاحة ولا إلى منطق معقد فهو يغفر للجُمل ركاكتها طالما ظلّت مفعمة بجرعات الأمل



مكتبة ياسمين

الضرورية القادرة على إراحة نفوسنا مما فيها.

اقترب النهار من نهايته، فانخرط سايمونز مع الحاضرين في مناقشة تناولت ما دعاه «أصوات القنوط»، أي المواقف المستبطنة التي تعزز احتمالات الفشل. تتبّع كثيرون من المشاركين تلك الأصوات، وصولًا إلى شريك حياة غير متعاون، أو إلى أب غاضب، أي إلى شخص وضعهم، منذ عشرات السنين، موضع الانتقاد أو الإهمال. واحدٌ تلو واحد، رجال ناضجون ونساء ناضجات، نهضوا واقفين كي يحكوا للآخرين كيف عانوا -عندما كان طول قامة الواحد منهم لا يتجاوز مقبض الباب- أذيّات خطيرة أصابت صورتهم الذاتية: معلم الرياضيات الذي وبّخهم لضعفهم في الجبر، أو الأب الذي قال للواحد منهم إن أخته هي الماهرة في الفنون، وإن عليه أن يهتم بالرياضة بدلًا من ذلك.

هذا دليلٌ موحٍ بأن تكوين الفرد في سنوات عمره الأولى مهمة حساسة بالغة الخطورة، مثلها مثل سلامة صبّ أساسات ناطحة سحاب؛ وذلك أن أصغر شائبة تدخل نفس المرء في سن مبكرة قد تصير لها قوة طاغية، تودي بتوازن الإنسان حتى يوم مماته. إن مواصلة إنكار أهمية الإساءات التي لا


مكتبة ياسمين

تكاد تكون ملحوظة زمن الطفولة، يعادل ما كان لدى أسلافنا القدامى من «حس سليم» شديد الصدق والقوة، جعلهم يسخرون من فكرة أن قطرة لعاب واحدة لا تكاد تتجاوز حجم رأس الدبوس يمكن أن تضم مستعمرات قاتلة من الجراثيم.

عند النظر إلى الأمر من هذه الزاوية، لا يعود الاهتمام الكبير الذي تبديه نظريات التربية الحديثة إزاء رعاية «القيمة الذاتية» وتطويرها علامة على أن مجتمعاتنا قد صارت رخوة، أو فقدت صوابها. فعلى العكس تمامًا، صار هذا التأكيد منسجمًا أتم انسجام مع مقتضيات حياة العمل المعاصرة، مثلما كان التدريب على التقشَف والجرأة الجسدية ضرورة ملحّة في قديم الزمان. فالأمر هنا ليس ناتجًا عن «اللطف الزائد» بقدر ما هو ناتج عن ضرورة جسدية. وعلى غرار أساليب التنشئة في كل زمن، صار المقصود أن يضمن ذلك حصول الصغار على أفضل فرص البقاء في بيئة معادية خطيرة.

- 6 -

بعد انقضاء أسابيع معدودة على عودتنا من الشمال، ذهبت مع سايمونز إلى مكتب في قلب لندن، حيث كلَفه مصرف أميركي بإخضاع عدد من المتقدَمين للعمل فيه إلى اختبارات تستمر طيلة الفترة الصباحية. أمل سايمونز بأن ترافق هذه العملية جولة من المقابلات المباشرة يمكن أن تكون أكثر غنى بالمعلومات. لكنه اكتشف أن المصرف غير راغب في إنفاق مزيد من الوقت والموارد. سوف يجري تقييم نتائج الاختبارات أثناء الليل بحيث يتخذ البنك قرارات التعيين صباح اليوم التالي.

أنفق الخاضعون لاختبار سايمونز زمن الجلسة كلَه في ملء «نموذج موريسبي للشخصية»، الذي هو أكثر استبيانات الشخصية احترامًا وأوسعها استخدامًا. ولما كنت غير بعيد أبدًا عن الشك في حسن اختياري مهنتي، فقد انضممت إلى الآخرين أملًا في معرفة المزيد عن تكويني النفسي في ما يخص العمل. فتشت عن الاستثناءات في قوائم من الكلمات، وحاولت حلَ أحجيات بصرية وأخرى قائمة على المماثلة بين كلمات كثيرة.

بعد يومين من ذلك، وصلتني نتائج الاختبار من مكتب سايمونز ضمن مغلف مهيب المظهر، محكمِ الإغلاق، مصممٍ على نحو يشدِّد على أهمية النتائج التي توصَلوا إليها. خلافًا لرهافة الأحاديث النفسانية التي تابعث مجرياتها بين سايمونز وكارول (التي استقالت بعد ذلك من شركة المحاماة وتقدَمت إلى منصب إداري في مؤسسة للإسكان الخيري)، أحسست كأن كومبيوترًا قد كتب هذا التقرير.

Such as '*Heavy* is to *light* as a) *wide* b) *day* c) *jump* is to



مكتبة ياسمين

d) brick e) narrow f) house'.

| | | | |
|---|---|---|---|
| أيّ العجلات يكون دورانها أكثر سرعة عندما يتحرك الجرار؟ | | A ____ | A |
| | | B ____ | B |
| | | C ____ | C |
| | | D ____ | D |
| | | كلها متساوية ____ | E |

| | | | |
|---|---|---|---|
| أية واحدة من هذه السفن المتماثلة تحمل الثقل الأكبر؟ | 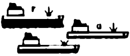 | A ____ | A |
| | | B ____ | B |
| | | C ____ | C |
| | | D ____ | D |
| | | كلها متساوية ____ | E |
| | | لا أستطيع القول ____ | E |

«يُظهر هذا المتقدِم إلى الوظيفة مستوى قدرات معتدلة تجعله مناسبًا لشغل مجموعة من المراكز الإدارية والتجارية ذات السوية المتوسطة». كانت هذه بداية الوثيقة التي لم تلبث أن أشارت إلى وجود موهبة واضحة في التسويق وضعف في التعامل مع الأرقام. «قد يكون مستقبله كامنًا في واحد من الميادين التالية: التشخيص الطبي، أو التنقيب عن النفط والغاز، أو قطاعات الترفيه وأوقات الفراغ».

انتبهت إلى رغبتي بقبول النتائج التي توصّل إليها التقرير أملًا في تهدئة مخاوفي من المستقبل. وفي الوقت عينه، لم يفلح التقرير في أن يثير عندي أي قدر حقيقي من الثقة. وفي واقع الأمر، صار يبدو لي، كلما مضيت في القراءة، أنه دلالة واضحة على محدودية «استشارات العمل» جملةً. عدت في التفكير في روائح الملفوف والبنجر في مكتب سايمونز. فاجأني أمر غريب محزن، هو أن أمرًا من


مكتبة ياسمين

شأنه أن يغيّر حياة الإنسان ويقرر اختياره مهنته قد صار في مجتمعنا موضع إهمال كبير، إلى حدّ جعل معالجين نفسيين مهمّشين يمارسون عملهم في غرف ملحقة مبنيّة في حدائق بيوتهم. فهذه المهنة التي ينبغي أن تكون محل إعجاب كبير في العالم، تجد صعوبة في بلوغ المكانة المتاحة لوكلاء الرحلات والسفر.

على أن هذا الإهمال ليس إلّا انعكاسًا سليمًا لمحدودية قدرة المعالجين النفسيين على فهم الطبيعة البشرية. وذلك أن الجوع «المفهوم» إلى الحصول على ردود من عملاء محتملين يغري قسمًا كبيرًا من المعالجين النفسيين بالمبالغة في إغداق الوعود، مثلهم في ذلك مثل «معلّمي الكتابة الإبداعية» الذين يُلمحون أحيانًا -نتيجة جشع أو نتيجة حماسة مفرطة- إلى أن طلبتهم سوف يفلحون جميعًا، ذات يوم، في إنتاج أدب ذي قيمة، بدلًا من إقرارهم الصريح بالحقيقة المزعجة (الحقيقة التي يبغضها المجتمع الديمقراطي كثيرًا)، حقيقة أن ظهور كاتب عظيم يظل حادثة عشوائية شاذّة ليست بأقل استعصاء من إنتاج الكمأة على طرائق الزراعة الحديثة.

لقد حظي الحجم الحقيقي للعقبات التي تعترض تحقيق إمكانياتنا ومقدراتنا، بتحديد أكثر دقة على يد عالم الاجتماع الألماني ماكس ڤيبر عندما وصف في مقالته «العلم من حيث هو مهنة» (1918) الشاعر غوته بأنه مثال على ذلك النوع من الشخصيات الإبداعية الصحية «التي تظهر مرة واحدة كل ألف سنة».

خلال بقية التاريخ كلها وبالنسبة إلى أكثرنا، سوف تظل وعودنا المتألّقة قاصرة عن التحقق: أبدًا،


مكتبة ياسمين

لن تكسبنا أموالًا طائلة، ولن تثمر موضوعاتٍ أو مؤسساتٍ استثنائية. لن تكون أكثر من أمل نحمله منذ الطفولة، أو من حلم يداعب مخيلتنا ونحن نقود السيارة على الطريق السريعة، فنحسّ خططنا محلقة في آفاق واسعة. لا بدّ من قدر استثنائي من القدرة والذكاء والحظ الحسن حتى نستطيع إعادة رسم خريطة واقعنا، في حين تظلّ الأرض المحيطة بذرى العظمة مكسوةً بجموع ممن لم يستطيعوا أن يحرزوا إنجازًا.

يقف أكثرنا عند حافة التألّق، ويظل مسكونًا بهاجس إدراك هذا القرب الشديد، لكنه يبقى على «الجانب الخاطئ» من الخط لأن جملة من العيوب النفسية الصغيرة، وإن تكن حاسمة، تشوب تعاملاتنا مع الواقع (بعض المبالغة في التفاؤل، أو نزوع غير مضبوط إلى التمرّد، أو عاطفية زائدة). نحن أشبه بطائرة سريعة جدّا تظل متوقفة إلى جوار مدرج المطار عاجزة عن الطيران نتيجة افتقارها إلى جزء صغير جدّا، لكنه ضروري، تصير أبطأ حتى من جرار أو دراجة.

غادرتُ شركة سايمونز وفي ذهني إدراك جديد للقسوة الغاشمة، المختفية داخل التأكيدات


مكتبة ياسمين

البرجوازية السخيّة على أن كل إنسان قادر على اكتشاف السعادة من خلال العمل والحب. لست أريد القول إن هذين الأمرين غير قادرين أبدًا على تحقيق الرضا والإشباع، بل أقول إنهما لا يكادان يحققانهما أبدًا. عندما تجري إساءة تفسير الاستثناء، واعتباره قاعدة، فإن عثراتنا الفردية تُنيخ علينا بثقلها كأنها لعنات خاصة بنا بدلًا من أن تبدو لنا وجهًا شبه ثابت من وجوه الحياة نفسها. ففي إنكار المكانة الطبيعية المخصَصة للتوق والخطأ في قدر الإنسان، تنكر علينا الإيديولوجية البرجوازية إمكانية المواساة الجمعية من أجل زيجاتنا المتعثرة وطموحاتنا غير المحققة، وتحكم علينا بالعزلة في إحساسنا بالعار والاضطهاد لأننا فشلنا فشلًا ذريعًا في أن نكون «نحن».

-7-

آخر الأمر، قرأ اثنا عشر وكيلًا أدبيًا مخطوطة سايمونز. أرسلوا جميعًا إجابات مهذَبة فيها قدر من التشجيع. وبقي كتاب «*أنا الحقيقي: العمل من حيث هو فعل تحقيق للذات*» من غير ناشر.

# الفصل الخامس
# علم الصواريخ
## -1-

بعد ظهر يوم استوائي رطب من أيام شهر أغسطس 2007، حطّت طائرة نفاثة تابعة لشركة «إيرفرانس» في غويانا الفرنسية حاملة في مقصورة رجال الأعمال اثني عشر مديرًا كبيرًا من مديري شركة تلفزيونية يابانية، أتوا من طوكيو إلى أميركا الجنوبية حتى يتابعوا إطلاق قمرهم الصناعي.

لقد اشترى المديرون هذا القمر الصناعي لمساعدتهم في بدء محطة تلفزيونية من نوع جديد كانوا يأملون أن تفلح في الاستحواذ على مخيّلة الجمهور الياباني، وتطيح بهيمنة شركة البث التلفزيوني الحكومية «NHK» التي اشتهرت بتركيزها الشديد على أفلام طويلة عن موسم تفتح أزهار الكرز، وعن عادات الصيد عند النمر التيبيتي. كانوا عاقدي العزم على إطلاق محطة تلفزيونية تعرض أفلام صور متحركة عن مغامرات الروبوتات المحاربة، ومسلسلاتٍ رومانسية فيها فتيات مدارس شديدات الإثارة. أرادوا برامج ألعاب تُنزل بالخاسرين عقوباتساديَة، ومسلسلات اجتماعية تزيح الستار عن التوق إلى علاقات خارج الزواج لدى نساء أصحاب الرواتب، القاطنين على امتداد طرق الذهاب إلى العمل والعودة منه في مدينة طوكيو.

إلَا أن الجغرافيا اليابانية كانت تطرح تحدّيات عسيرة على كل من يحاول دخول سوق البث التلفزيوني، لأن البلاد موزعة على أربع جزر رئيسية،


مكتبة ياسمين

تشغل أكثرها غابات كثيفة، وتصيبها عواصف شديدة وانفجارات بركانية - شروط تقتضي استثمارًا كبيرًا في مرافق الصيانة الوقائية ذات التكلفة الباهظة. يساعد هذا في تفسير سبب بقاء التلفزيون الياباني طيلة الشطر الأعظم من حقبة ما بعد الحرب حكرًا على شركة البث الحكومية العملاقة الرصينة المولعة بمواسم تفتّح أزهار الكرز.

إلّا أن أولئك المديرين الروّاد أفلحوا في تخيّل طريقة كفيلة بتخطّي تلك العقبات اللوجستية. اكتشفوا أنهم إذا أطلقوا قمرًا صناعيًا إلى الفضاء، وجعلوه يستقر على مدار مائل مئة وعشر درجات شرقًا، على ارتفاع ستة وثلاثين ألف كيلومتر فوق سطح الأرض، فسوف يصيرون قادرين على بث الإشارة التلفزيونية إلى كل من لديه طبق استقبال مقبول التكلفة في أي مكان على امتداد جزر اليابان كلِّها. وسوف يصير ممكنًا بث حلقات مسلسل «سينسي نو كابان» الذي يعرض قصة علاقة حب غير مشروعة بين امرأة في الثانية والعشرين ومعلم الخط الياباني البالغ خمسة وسبعين عامًا، إلى طبقات الجو العليا، حيث ترتد الإشارة العائدة، فتبلغ جبال جزيرة هوكاديو التي تكلّلها الثلوج، وسواحل جزيرة أوكيناوا الجنوبية التي تحف بها أشجار النخيل وناطحات السحاب.

هكذا ظهرت فكرة أول محطة تلفزيون يابانية عبر القمر الصناعي، محطة كان مرادًا من اسمها نفسه -هذا ما عبر عنه نص «رسالة الشركة»- أن يثير لدى المشاهدين «عجبًا ودهشة دائمين»: WOWOW TV. إلّا أن الشركة واجهت جملة من مشقات أخرى عند إقدامها على ترجمة خطة العمل هذه إلى واقع.

كانت من بين تلك المشقّات صراعات مع موظفي


مكتبة ياسمين

الحكومة والجهات التنظيمية، وتنازل عن حصص من أسهم الشركة لصالح «نيبون كوربوريشن»، و«فوجي إن كوربوريشن»، ومفاوضات شاقة لضمان الحصول على حقوق بث المسلسل التلفزيوني الكوري ذي الشعبية الواسعة «اسمي كيم سان سون». أخيرًا، بحثوا مطولًا عن القمر الصناعي اللازم. تلقوا عروضًا من شركات متنافسة كثيرة أفضت آخر الأمر، عبر عملية تشبه السير في سوق مزدحمة، إلى شرائهم القمر الصناعي من طراز A2100A بمئة مليون دولار، من شركة «لوكهيد مارتن كوربوريشن»؛ وهو الآن في انتظار لقائه الأول مع مالكيه الجدد في مبنى معدني مقام في فسحة بين الأدغال، واقعة على مسافة كيلومترات قليلة من المطار.

-2-

نزل مديرو محطة التلفزيون اليابانية من الطائرة، وساروا مروزًا بصورة الرئيس الفرنسي قبل أن يدخلوا قاعة كبار الزوار، حيث جرى الترحيب بهم بكل ما يستحقه من دفء، واحترام من دفعوا خمسة وسبعين مليون دولار من أجل رسوم إطلاق قمرهم الصناعي. انحنى أمامهم كبار المديرين في وكالة الفضاء التجارية الفرنسية «آريان إسباس». صاروا رسميًا داخل غويانا الفرنسية بعد مرورهم بالنقطة الجمركية، وتلقى كل منهم صندوقًا خشبيًا كبيرًا فيه مجسم فضي لقمرهم الصناعي قبل أن يصعدوا إلى الباص الذي سيأخذهم إلى فندقهم.

كان واضحًا أنهم بلغوا ركنًا فريدًا من نوعه في العالم. أول ما يصعب التعامل معه في ما يخص غويانا الفرنسية، هو صعوبة العثور عليها في الخرائط. فكثيرًا ما يجري هذا الخلط المتكرِّر

بينها وبين أماكن أخرى في أرجاء العالم. غانا الواقعة على ساحل أفريقيا الغربي، وغويانا التي هي محاذية لفنزويلا من جهة الشرق، وغينيا التي تجاور السنغال، والمستعمرة البرتغالية السابقة الواقعة إلى جوار غينيا لأن اسمها كان «غيني» قبل أن يصير غينيا بيساو، وكذلك غينيا الاستوائية الواقعة تحت الكاميرون، أو جزيرة غينيا الجديدة المقسومة بين بلدين هما إندونيسيا وبابوا نيو غينيا. بل إن لفظ اسمها نفسه يحتمل قدرًا من الالتباس والصعوبة، لأن الإنكليز يشيرون إلى هذه البقعة باسم غويانا الفرنسية، في حين يفضل الفرنسيون تسميتها «غويَان».

وأكثر دلالة من هذا كله، أن المنطقة تحمل عبئًا سورياليًا، متمثلًا في أنها واقعة ضمن «نطاق الملاريا» على ساحل أميركا الجنوبية الشمالي، بين سورينام غربًا والبرازيل جنوبًا، في حين أنها تنتمي أيضًا إلى الدولة الفرنسية. ففي سنة 1946، حوَلتها فرنسا التي كانت مستعمِرة لها إلى واحدة من ست وعشرين «مديرية» فرنسية. والنتيجة هي أنها الآن عضو في الاتحاد الأوروبي، وأن أعلى سلطة قانونية فيها هي محكمة العدل في ستراسبورغ، وأن سياساتها المتَصلة بالزراعة وصيد الأسماك صارت تُقرَر في بروكسل، وصارت العملة الرسمية فيها -العملة الصالحة حتى في مستوطنة بيلاكوبوبيانا الهندية على نهر أويابوك-، هي اليورو الذي يصدره المصرف المركزي الأوروبي في فرانكفورت على نهر الماين.


مكتبة ياسمين

غلالةً من البيروقراطية الفرنسية والتطلعات البرجوازية، جرى إسباغها على نحو غير متساوٍ على هذا المشهد المداري المتنوَع. ففي قرى بيوتها ذات سقوف من صفيح، نرى ملاعب الكرة إلى جانب معابد الفودو. في غويانا الفرنسية طريقان اثنتان فقط: الطريق الوطنية رقم واحد، والطريق الوطنية رقم اثنين. وعلى الطريقَين لافتات على النمط الفرنسي مكتوبة بخط «Frutiger 57 Condensed»، الأكثر صلاحية للإشارة إلى اتجاه مدن فرنسية من قبيل نانت أو كليرمون فيراند، فهي تجد صعوبة في التعبير عن أسماء الأماكن الهندية هنا، أسماء من بينها «إيراكوبو» و«أوالا - ياليمابو». تُقدَم المطاعم (كافيه دو لا غار، بار شي بييرو)، إسكالوب خنزير الأدغال البري وأسماك نهر الأمازون التي لها حراشف تشبه حراشف أسماك كولاكانث الباقية من حقبة ما قبل التاريخ. يقطعون هذه الأسماك إلى شرائح ويقدَمونها مع صلصة «مونيير».

الحرمان والقنوط واضحان في كل مكان. ليس في هذا البلد اقتصاد يستحق الذكر. وليست فيه سياحة لأن البحر هنا زاخر بأسماك القرش السابحة في مياه


مكتبة ياسمين

طينية اللون بسبب الرواسب النهرية. ولما كانت التربة فقيرة، فلا زراعة هنا أيضًا. الطرق المفضية إلى البرازيل تكاد تكون غير صالحة للاستخدام. هذا ما يترك منفذًا موثوقًا وحيدًا إلى العالم هو الرحلة الجوية إلى باريس. (يتطلَّب السفر إلى بلد قريب، مثل فنزويلا أو البيرو، المرور بمطار أورلي الباريسي).

-3-

انطلاقًا من روحهم السخيّة واعتزازهم بمنجزاتهم، وافق مديرو تلفزيون «WOWOW» على السماح لمجموعة صغيرة منا بأن تلحق بهم في رحلتهم.

أرسلت محطة تلفزيون فهينكونغ شابة من أبرز المراسلين الصحافيين لديها، ومعها -نتيجة الضغوط المالية- فريقٌ مكوَّنٌ من شخص واحد فقط، كان عليه أن يحمل معدَات الاستوديو على ظهره تاركًا المذيعة الجميلة (التي هي اسم معروف في بلدها) تتجوَل هنا وهناك بحذاء عالي الكعب ذي لون فضي، وقد ارتسم على وجهها تعبير معاناة لعله غير بعيد عما كان ينطق به وجه الأميرال استريز الذي كان أول مستعمر فرنسي يحلَ في غويانا الفرنسية، وذلك عندما أدرك أن هذا البلد ليس «الجنة» التي جعله السير وولتر رالف يتوقَع رؤيتها بعد قراءته كتابه ذي العنوان المضلَل: «*اكتشاف إمبراطورية غويانا الكبيرة الجميلة الثرية*»، الذي طبع أول مرة في لندن سنة 1995.

أتى أيضًا عشرة مهندسي صواريخ في NASA قادمين من فلوريدا ضمن برنامج لتبادل الخبرات. ولما كان أولئك المهندسون مثقلين بعبء إدراكهم لتفوَقهم في ميدان علوم الفضاء، فقد أحسَوا بحاجة شديدة إلى عدم الإساءة إلى مضيفيهم من


مكتبة ياسمين

خلال الإشارة إلى إنجازات وكالتهم، أو إلى سعة مواردها. هذا ما دفعهم إلى التزام لباقة وتواضع شديدين، يشبهان ما يلتزمه أفراد أسرة ملكية عندما يزورون حيّا من أحياء الفقراء. انخرط أولئك المهندسون الأميركيون في كيل المديح لإنجازات نظرائهم العادية جدًا، مثل تمكنهم من بناء محطة وقود أو من تركيب مكيفات للهواء. لكن الفرنسيين بدو غير منتبهين إلى هذا الرياء لأنهم مقتنعون بما لديهم من عظمة، قناعةً راسخة في قلوبهم، وإن تكن قناعتهم هذه أقل استحياء من نظيرتها عند زملائهم القادمين من الولايات المتحدة.

نزلنا جميعًا في فندق «أتلانتس» الذي كان سريعًا في استسلامه -مع أنه مبني حديثًا- أمام العفن المداري وغزو الكائنات الآتية من الأدغال: سحلياتٍ ذات لون أصفر فاقع تخطر على أرض الفندق. وعند العودة إلى الغرفة في ساعة متأخِرة من الليل، ليس مستبعدًا أن يرى المرء عنكبوتًا ضخمًا له أوبار عجيبة ملتصقًا بالجدار فوق التلفزيون: مشكلة حلّها عامل صيانة من الكريول عندما أزال ذلك الوحش بضربة دقيقة من صحيفة ملفوفة، فلم يبق له من أثر غير بقعة بنيّة ظلت شاهدة على ما حصل. بعد ذلك، رمى الرجل العنكبوت القتيل من الشرفة، وتمنى لنا -بصدق تام- ليلة هانئة.

لم تكن كورو -البلدة المبنية قصدًا إلى جوار المركز الفضائي- في حال أحسن من حال الفندق القائم على أطرافها. تستحضر هذه البلدة مقارنةً مع برازيليا وتشانديغار، اللتين هما مثالان فاقعان على العمارة غير الملتفتة إلى كل ما له صلة بالثقافة أو بالسياق العام؛ فقد بلغت كورو مرحلة متقدِّمة من التداعي بعد انقضاء عقود معدودة على وجودها. مقاعد خشبية غير مظلَّلة تتعفَّن من غير أن يستخدمها بشر، فهي مصمَّمة كي توفِّر مكانًا للاستراحة عقب نزهات بعد الظهر التي لا يخطر في بال أحد أن يخرج إليها في هذا المناخ المداري، في حين بدأت واجهات المباني الإسمنتية تتنفَّخ في هذه البيئة التي يمكن أن تشهد في أسبوع واحد، من أبريل حتى يوليو، هطول كميات من المطر تعادل ما يهطل في شمال فرنسا على مدار سنة كاملة.

-4-

إلَّا أن المرء يدخل بوابات المركز الفضائي الحصينة فيرى مشهدًا مختلفًا. مبانٍ شديدة النظافة مخصَّصة لتجميع الأقمار الصناعية وتجهيز محركات الدفع التي تستخدمها وكالة آريان، وكذلك


مكتبة ياسمين

لتخزين الوقود. هذه المباني المتناثرة على امتداد هكتارات من المستنقعات والأدغال كفيلةٌ بإثارة حيرة الزوار الذين قد يخرجون من مبنى تجهيز موجّهات محركات الصواريخ، فيجدون أنفسهم بعد لحظة واحدة في غابة مطيرة فيها خفافيش مدوّرة الآذان وببغاوات ذات عيون بيضاء، قبل أن يصلوا إلى مركز وحدات الدفع الذي تصطف برادات مياه إيفيان في ممراته.

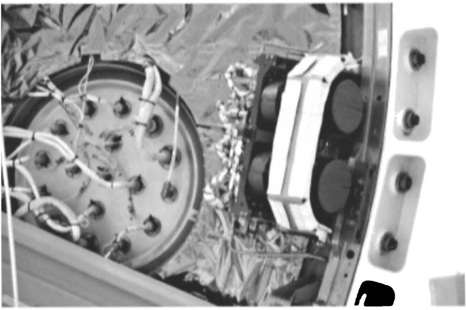

في ساعة مبكرة من أول صباح لنا في تلك البلاد، أخذونا بالسيارة إلى مبنى معدني ليس أصغر كثيرًا من كاتدرائية ريمس حيث حظينا بأول نظرة إلى القمر الصناعي المستقر فوق منصة في وسط المكان تحت أنوار بيضاء ساطعة، ومن حوله جمهرة من مهندسين في ملابس بيضاء على رؤوسهم شبكات لمنع تساقط الشعر، وفي أقدامهم أحذية خفيفة. كانوا يملأون خزانات القمر الصناعي، ويشحنون بطارياته، ويركّبون أجهزة الاستقبال والإرسال. ونظرًا لضخامة تكلفة حمل المادة إلى الفضاء، كان القمر الصناعي متواضع الحجم إلى حدّ مفاجئ: صندوق لا تتجاوز أبعاده أربعة أمتار طولًا ومترين عرضًا، ومن حوله زوج ألواح شمسية


مكتبة ياسمين

طولها أربعة عشر مترًا، وفوقها طبق عاكس. وأما محتوياته، فهي مكوَنة من محرك كهربائي، وعدد من محركات الدفع الصغيرة المخصّصة لمواجهة آثار الريح الشمسية، فضلًا عن قنوات بث استطاعتها مئة وثلاثين واطًا، مهمّتها إرسال برامج محطة «WOWOW TV» إلى الأرض.

قبل السماح لنا بالمثول في حضرة القمر الصناعي، ظلب منا أن نخضع لتدابير تعقيم تشبه ما هو مطلوب لدخول المرء إلى غرفة عمليات جراحية، ذلك أن تلك الآلة تركيبةٌ عجيبة من القوة والحساسية المفرطة. فعندما ترتحل عما قريب بسرعة 3,07 كيلومتر في الثانية الواحدة، يمكن لشعرة بشرية تسقط داخل أجهزة الاستقبال والإرسال أن تخلق حقل قوة إلكترومغناطيسيًا ذا أثر كارثي، ويمكن لأثر إصبع دبق أن يُحدث شقوقًا في الألواح الشمسية. كان القمر الصناعي كأنه جندي صلب يقف على الخطوط الأمامية، إنما فيه من الحساسية ما يجعله مؤهلًا لأن يذرف الدمع عندما يقرأ واحدة من قصص الأطفال. على أن الإنصاف يقتضي ذكر أن سرعة العطب هذه لا تكون إلَا في ظروف خاصة جدًا، في ظروف الفضاء الخارجي حيث تستطيع الأشعة فوق البنفسجية القوية وتجمعات من ذرات الأوكسجين أن تستغل أي ضعف في منظومة كهربائية، وحيث توجد تقلبات شديدة في درجات الحرارة من مئتي درجة مئوية في الشمس، إلى مئتي درجة تحت الصفر في ظل الأرض. يمكن لهذه التقلبات أن تتلف أي جزء من الآلة لم يخضع لتنظيف شديد الدقة، ولم يُغلَف بغلاف واقٍ مصنوع من رقائق البوليميد المطلية بالذهب.


مكتبة ياسمين

بدا لي القمر الصناعي شيئًا من أعجب ما يمكن أن يتخيّله العقل عندما رأيته منتصبًا فوق منصته، وبدا سطحه كأنه يبث ألقًا أحمر ورديًا، وحجراته المفتوحة تكشف عن شبكة كثيفة من الأسلاك - بدا كله كأنه مركّب من مكوّنات غير مألوفة، من بينها حمض البيروميليتيك. لكن الحقيقة هي أنه لا يحتوي على أي شيء لم يكن موجودًا على الأرض منذ بدء الخليقة، أي شيء لم يكن (في صورته الأولى، على الأقل) كامنًا في الأصل ضمن التراكيب الكيميائية للجبال والبحار. عمق التفكير البشري هو ما «طبخ» مواد كوكبنا الأولية وركّبها معًا، فأنتج هذه الهدية العجيبة الذاهبة إلى السماء.

-5-

كان مشهد جماعات المهندسين الكثيرة المنهمكة في إعداد القمر الصناعي و-على رؤوسهم الشباك الواقية من تساقط الشعر- يوحي بما صارت تنطوي عليه حياة العلم من انضباط وانمحاء للذات الفردية. لا فرصة هنا لأي مجد فردي، ولا احتمال أبدًا لظهور كتب سيرة ذاتية، أو أسماء شوارع تخلّد ذكرى أولئك الناس. إنه مشروع جماعي لا يمكن أن يُنسب الفضل فيه إلى شخص واحد، ولا حتى إلى مؤسسة تجارية أو أكاديمية واحدة.

لقد ولّت تلك الأيام التي كان فيها عباقرة يعيدون كتابة تاريخ العلم بمفردهم وهم جالسون في مراصدهم أو في مختبراتهم وورشاتهم. لقد دخلنا عهد المختبر الجماعي، حيث يعمل علماء فيزياء الفلك ومهندسو الطيران معًا على امتداد عقود كثيرة على حلِّ أسرار صغيرة، ويقاومون محاولات الإعلام الرامية إلى تصوير أي واحد منهم على أنه غاليليو العصر. قد يقتصر عمل شركة من الشركات

كله على إتقان أداء البطاريات المصنوعة من الفضة والزنك في ظروف انعدام الجاذبية، إدراكًا منها لما تنطوي عليه محاولة الاشتغال على معضلات أخرى في ميدان كهربائيات الأقمار الصناعية من حماقة. وقد يمضي عالِمٌ عمره كله في دراسة خصائص معدن التيتانيوم في درجات الحرارة المرتفعة، أو سلوك الهيدروجين لحظة الاشتعال. وقد تتلخص حصيلة كل ما قدمه فرد واحد إلى البشرية بمقالة واحدة في «*مجلة طرائق الدفع الصاروخي المتقدمة*».

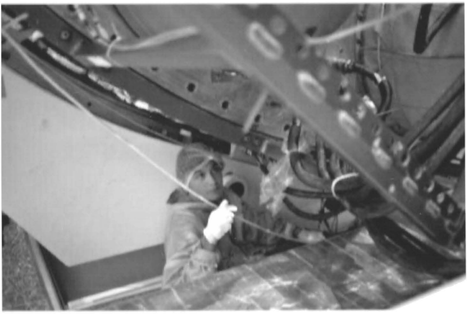

لقد كان بعض الخصائص التقنية لآلة «WOWOW TV» الجديدة ثمرة أبحاث أجراها أوائل عقد الثمانينيات فريق علمي من معهد البوليتكنيك في ميلانو، درس استخدام حواف الطيف الإلكترومغناطيسي العليا في أقمار الاتصالات فعثر على طريقة لتفادي التداخل الذي قد تسببه الغيوم المنخفضة والأمطار الضبابية لترددات الأمواج القصيرة جدًا التي تتجاوز 10 جيغا هرتز. عمل بطيء غير بطولي صار الآن، أي بعد ربع قرن من ذلك، قادرًا على ضمان تمكّن الجمهور الياباني من التمتع بمشاهدة غير متقطعة


مكتبة ياسين

لفيلم الرسوم المتحركة «Cowboy Bebop»، حتى خلال تساقط وابل عنيف من المطر في فصل الأمطار في اليابان.

صحيح أن انقضاء زمن العباقرة قد جعلنا نخسر قدرًا لا يستهان به مما كان ذلك الزمان يتحفنا به من معلومات جذَّابة جديدة، لكن من الجائز أن يكون ارتقاؤنا إلى زمن الجهد الجماعي قد أكسبنا أكثر مما خسرناه، لأن مصير المكتشفات الجديدة على كوكبنا لم يعد رهن مصادفاتٍ وتقلبات مزاجية يصعب التنبؤ بها تصيب باربارا، زوجة يوهانس كيبلر، أو تعتري أهواء راعيه الإمبراطور رودلف الثاني -هذا مع أن ذلك الفلكي الألماني منح كورو، مثلما فعل كثيرون من زملائه العباقرة، اسمه الذي أطلقته على شارع من شوارعها الكئيبة: «شارع كيبلر»، هنا مساحة متطاولة من أرض يباب في جهة منها محل لتنظيف الملابس وفي الجهة المقابلة مقهى إنترنت متداعٍ، وهذا شرفٌ كبير يُستبعد أن يحظى بمثله شخصٌ غيره من أبطال الاكتشافات العلمية اللاحقين.

## -6-

على مسافة صغيرة عبر الأدغال، كان يجري إعداد صاروخين دافعين، طول الواحد منهما ثلاثون مترًا. سوف يكون هذان الهيكلان المستدقَّان، المزينان بأعلام الأمم الأوروبية التي ساهمت في تمويل بنائهما، مسؤولين عن دفع القمر الصناعي خلال المرحلة الأولى من رحلته الطويلة. الحقيقة أنهما أشبه بقنبلتين منهما بصاروخين؛ فما أن يجري إطلاقهما حتى يصير كبحهما مستحيلًا، ويصير لا بد من تركهما يستنفدان غضبهما كلَّه مهما تكن الأحوال. إن هذه الحقيقة مبعث احترام من نوع


مكتبة ياسمين

خاص إزاء كل من له صلة بإطلاقها.

كان د. تيري برودون مسؤولًا عن إدارة عملية الإطلاق. لديه شهادة في علم الصواريخ من المدرسة الوطنية لهندسة الطيران في تولوز؛ وهو مقيم مع أسرته في غويانا الفرنسية منذ ثلاث سنين. رجل حسن التكوين في أوائل الأربعينيات بدا لي شخصًا منطقيًا، موضوعيًا، وقورًا بأقصى ما يمكن لأي إنسان أن يكون، بالنظر إلى كثرة الحماقات والتقلّبات التي يبدو أن بني البشر ميّالون إليها. ليس هذا الرجل شخصًا ممن تصيبهم عذابات الأرق، أو ثورات أصحاب المزاج العصبي. ولسوف يكون مسؤولًا، يوم الإطلاق، عن إشعال خمسمئة طن من مركّب بركلوريت الأمونيوم يستمر احتراقها مئة وثلاثين ثانية فقط، لكنها قادرة على قذف صاروخ آريان البالغ طوله اثنين وخمسين مترًا في السماء مسافة مئة وخمسين كيلومترًا بقوة دفع تبلغ ألفًا ومئة طن. يصاحب ذلك انفجارٌ يكون صوته مسموعًا على الناحية الأخرى من الحدود مع البرازيل. ثم تستنفد طاقة الصاروخين الدافعين فينفكّان عن المركبة الأم ويسقطان في المحيط الأطلسي، حيث تكون فرقاطة تابعة للبحرية الفرنسية في انتظارهما حتى تنتشلهما من بين الأمواج.


مكتبة ياسمين

همّ د. برودون بالإجابة عن سؤال طرحته مذيعة التلفزيون القادمة من هونغ كونغ، لكنه ظلّ حذرًا إزاء حساسية محتوى سؤالها، فصمت لحظة يفكر في ما قد «يسير على غير ما يرام» عند إطلاق الصاروخ، ثم أجاب بإيجاز صارم جدير بمعلم كيمياء يستعرض مخاطر استخدام الموقد البترولي أمام جمع من تلامذة متحمسين. شرح لها أنه إذا كانت معجونة المادة الدافعة ممزوجة على نحو سمح ببقاء جيوب هوائية فيها، فقد يؤدي هذا إلى زيادة مفاجئة في مساحة سطح الاشتعال مما يؤدي بدوره إلى زيادة مفاجئة في حجم الغازات المنبعثة. تكون لهذه الزيادة قوة كافية لتحطيم غلاف الصاروخ والتسبّب في انفجار يعادل أثر قنبلة نووية صغيرة. لكنه أضاف حتى يطمئن المستمعين -حتى يخيب أملهم أيضًا، وإن لم يتعمد ذلك- أن احتمال وقوع حادثة من هذا النوع في أية عملية إطلاق لا يتجاوز اثنين بالألف.


مكتبة ياسمين

لم تدرك الصحافية كيف تعود إلى الموضوع الأكثر أهمية، لكنها لم ترد انتهاء الحديث، فسألته عن مظهر تلك المادة الدافعة العجيبة. ألا تشبه قليلًا معجون الأسنان؟ أم لعلها أشبه بالعجين؟ نظر إليها د. برودون بعينيه الرماديتين الزرقاوين، وأجاب عن السؤال إجابة مفصّلة إلى الحدّ الذي رآه ملائمًا للصحافة، فانطلق في حديث عرّج فيه، بدقة عالم آثار، على تاريخ علم الكيمياء وطرائقه كاشفًا في مجرى ذلك الحديث عن أن المعجونة مكوَّنة من بركلوريت الأمونيوم (69,6 بالمئة) والألومينيوم (16,0 بالمئة) وبوليمير HTPB (40,21 بالمئة)، ووسيط مُثبّت من الإيبوكسي (1,96 بالمئة) ومادة مساعدة هي أوكسيد الحديد (0,4 بالمئة).

لكن د. برودون لم ينته منا بعد، فقد بدأ الآن يكشف لنا عن أن الصاروخين الدافعين ليسا إلّا جزءًا واحدًا -لعله ليس بالجزء الأكثر أهمية- من آليات الدفع. وذلك لأن الصاروخ الرئيسي مزوَّد أيضًا بمحرك يعمل على الأوكسجين والهدروجين السائلين، مهمته إكمال الرحلة حتى بلوغ الفضاء الخارجي. هذه التحفة الهندسية اسمها «فولكين»، بحسب النطق الفرنسي لاسم إله النار والحديد عند

مكتبة ياسمين

الرومان، بدأ صنعها منذ ثلاثين سنة. تحفة تستند العظمة التي تزعمها إلى قدرتها على إبقاء المادتين الدافعتين، اللتين هما شديدتيَ الميل إلى التفاعل، منفصلتين انفصالًا آمنًا ضمن خزانين متجاورين، وذلك على نحو يمنعهما من التفاعل المبكر ويبقيهما في درجتي تجمد مختلفتين (251 درجة مئوية تحت الصفر للهيدروجين و184 درجة تحت الصفر للأوكسيجين) حتى عندما يبدأ ضخ المادتين إلى غرفة الاحتراق، التي لا تبعد عنهما إلَا خمسين سنتيمترًا، عن طريق مضخة توربينية بمعدل ستمئة لتر في الثانية الواحدة فيحترقان فيها تحت درجة حرارة تبلغ ألفًا وخمسمئة درجة مئوية. إن في صاروخ «فولكين» ألف أمر آخر قد يثير اهتمام أي شخص يسعى إلى ما يتجاوز الفهم الصحافي السطحي. هذا ما أشار إليه د. برودون بنبرة باردة، لكنه رجانا أن نسمح له بالانصراف: عليه أن يعود سريعًا إلى بيته في كورو لأنه خطط مع زوجته لأخذ أطفالهما في نزهة بعد الظهر لرؤية كيف تتعلَم صغار السلاحف السباحة في نهر ماروني.

بدا لي عالم الصواريخ هادئًا رابط الجأش إزاء ما في حوزته من سلطان واسع. إن تحت يده قوة أكبر، تقريبًا، مما كان تحت يد أي حاكم في التاريخ. على سبيل المثال، هي قوة أكبر من قوة إمبراطور الصين في القرن الثامن عشر، كيان لونغ، الذي لم يكن أكثر من نمر من ورق إن هو قورن بهذا الرجل. أخضعت جيوش الإمبراطور شعبين كاملين، الإيغور والمنغول. لكن قوة د. برودون كانت نقيض ذلك العزم العاتي، لأنها قوة منضبطة رصينة ناجمة عن سلطان عالمٍ غُهد إليه بمهمة إدارة هذا الغضب المجنون إدارة آمنة. لا بد أن هناك أثرًا باقيًا داخل هذا الرجل ذي الثوب الأبيض، يحدوه إلى الهيمنة


مكتبة ياسمين

والصراخ والتحكم والهجوم والتدمير. الآن، كم هي مضبوطة هذه الغرائز كلها. كم هي مضبوطة ضبطا حريصا بفعل قواعد العمل العلمي الدقيقة التي تحكم دوافعه. وكم يمكن أن يكون هذا الضبط الحديث الهادئ جبارا.

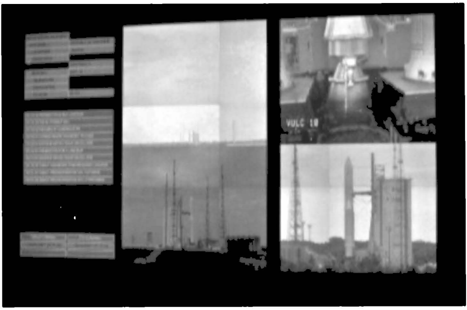

-7-

لا شك في أن القمر الصناعي والصاروخ الذي يطلقه إنجازان عمليان كبيران؛ لكنهما أيضا -لعل هذا أهم مما تقدم- ناتجان عن تغيرات ثورية في منظومات الاعتقاد.

لقد كان إسحاق نيوتن (الشارع الذي يحمل اسمه في كورو يضم وكالة السفريات الوحيدة هنا) أول من وضع النظريات التي تقوم عليها عملية الإطلاق هذه عندما تنبأ بأنه إذا أطلقت قذيفة مدفع بسرعة جبارة من مكان شديد العلو، من قمة جبل شاهق جدا، فسوف تتخذ لها مدارا من حول الأرض، لأن الجاذبية ستشدها بقوة مساوية القوة النابذة الناجمة عن دوران الأرض. إن أفكار ذلك العالم الإنكليزي، ومعها جملة واسعة من مكتشفات أخرى في ميداني الكيمياء والفيزياء، ثمرة نظرة عالمية ميزت انفصال الوعي الأوروبي المتدرج عن [illegible]


مكتبة ياسمين

طويل مظلم هو عصر المعتقدات السحرية الذي سبقه.

على مسافة أربعمئة كيلومتر من موقع تجهيز الصاروخ للانطلاق، في الغابة المطيرة على حدود البرازيل، يعيش آخر منْ بقي من شعب وايواي الهندي. منذ زمن بعيد، هجرت أكثرية أولئك الناس غاباتها وانتقلت إلى المدن، أو إلى معسكرات ترعاها الحكومة (تعيش جماعة منهم في كورو حيث تدير في «ميدان أوروبا» مطعمًا لمأكولات الوايواي السريعة يحظى بشعبية كبيرة). وأما أولئك الباقون في الغابات، فهم حفَظة بقايا المعتقدات الكونية الشبيهة بما كان لدى أهل الغرب قبل عصر العلم.

إنَ الوايواي يدركون حركة الكواكب، وتقلّبات الطقس، وسلوك الحيوانات، وخصائص النباتات، إدراكًا ميثولوجيًا؛ من غير أن يحاولوا مراقبتها مراقبة دقيقة، ومن غير أن يحاولوا تكوين فهمٍ مستقلٍ عنها. لا مجال لأي تطوَر في المعرفة. الزمن يقف ساكنًا. ولا سبيل إلى تغيير التقاليد أو تحدّيها لأنها حكر على الأجداد المقدسين وعلى «الأطباء». يرى الوايواي أنفسهم في كل ما تقع عليه أعينهم. فلماذا يكتسي القمر مسحة من لون أحمر داكن في الأماسي؟ لأن واحدًا من أفراد القبيلة قد تبادرت إلى ذهنه أفكار عنيفة قد تؤدي إلى إهراق دم في اليوم التالي. لماذا لم يهطل المطر؟ لأن أفاعي الأناكوندا القاطنة في السحاب، تلك التي تبصق قطرات المطر على الأرض، غضبت منا عندما كنا خارجين إلى الصيد. وما هي السماء؟ هي قدرٌ صلصالية مستقرَة على ثلاثة حجارة منتصبة.

وفق تفكير الوايواي، ليس للإنسان قدرة على التأثير في العالم. عليه أن يطلب ذلك من الأرواح


مكتبة ياسمين

المسؤولة عما يريد (بمزيد من الدقة، عليه أن يتوسّل إليها). ففي يوم سكن نسيمه سكونًا تامًا، يكون على الواحد من الوايواي أن يحرص على ألّا يوقع الأذى بأي حيوان من حيوانات التابير، لأن تابيرًا عملاقًا مختبئًا في السماء يتحكّم بالرياح كلّها، إذ يؤرجح سعفة نخلة ضخمة فيهب النسيم. وإذا أراد شروق الشمس، فعليه أن يضع على رأسه إكليلًا من ريش الطوقان، وأن ينفث الدخان من غليون طويل مرسومة عليه أفاعي الأناكوندا بغية إغراء الكوكب المقدس بأن ينهض ويعلو في السماء.

لقد ابتعد العلماء المنشغلون الآن بتزويد الصاروخ بالوقود والمستلزمات الأخرى في هذه المنشأة الواقعة عند أول الغابة، ابتعادًا كبيرًا جدًا عن هذا الضرب من ضروب التفكير. إنهم حائزون على شهادات دكتوراه في التحليل العددي، وفي ميدان علم ميكانيك السوائل في الخزانات التي يجري خلط مستمر لمحتوياتها، وكذلك في أثر الإضافات البوليميرية النافع لإنقاص اضطراب السوائل المتدفّقة في الأنابيب. يرى هؤلاء القوم في الكون آلة منطقية منتظمة تعمل مستقلة عن خطاياهم وفضائلهم، فهي أشبه بساعة دقيقة موضوعية


مكتبة ياسين

يستطيع العقل تفكيكها، ووضع نظريات تتنبأ بسلوكها من غير حاجة إلى اللجوء إلى أية تعاويذ أو تمائم.

مع هذا، ينظر شخص ليس من العلماء إلى مبنى تجميع الصاروخ، ويتمعن في هيكله المستدقّ، المرتفع تسعة طوابق، فيحس بأن تلك المنهجية التي لا علاقة لها بالسحر أبدًا نجحت، على الرغم من ذلك، في إنتاج آلة لا سبيل إلى فصلها فصلًا تامًا عن تلك التصوَّرات فوق الطبيعية. إن العيش مع العلم من غير فهمه يرغم المرء على النظر إلى الآلات تلك النظرة شبه السحرية نفسها التي نجدها عند أفراد الوايواي أنصاف العراة عندما يتأمَّلون في ظواهر السماوات. فكم كان لدى هذه الجماعة المعاصرة من أصحاب ملابس العمل البيضاء من ذكاء وغطرسة عندما نجحوا في توليد إحساس بعظمةٍ وهول سحريَّين غير مستعينين إلّا بمركَّب اسمه بركلوريت الأمونيوم.

-8-

مع هذا، ومع اقتراب ساعة الإطلاق، صار الإحساس بالتوتر والخطر شديد الوضوح. استحال لون السماء فيه مسحة من لون أرجواني؛ وسكن الهواء سكونًا غريبًا. وفي كورو، اصطدمت شاحنة صغيرة لشركة فرانس تيليكوم بسيارة أخرى عند تقاطع جادة نوبل وشارع الأم تيريزا، وخرجت السحالي من مكامنها في فندق أتلانتس.

الطقس في المنطقة دائم التغيّر والاضطراب. وهذا مما يبعث القلق في نفوس العلماء. عاصفة رعدية عنيفة بعد ظهر كل يوم تقريبًا؛ وغيوم متراكمة يبلغ علوّها ثمانية عشر كيلومترًا، في حين لا يتجاوز الحدَ الأقصى المعتاد لثخانة طبقة الغيوم في شمال أوروبا ثمانية كيلومترات. عندما يشقّ الصاروخ عباب هذا السحاب بكتلته الجسيمة وسرعته الهائلة، فمن الممكن أن يستجلب الصواعق إلى مساره. فوق هذا، تتّسم هذه المنطقة بأن فيها رياحًا شديدة في طبقات الجو العليا. قد يكون كل شيء هادئًا عند مستوى الأرض؛ وأما على ارتفاع ثلاثين كيلومترًا، فإن حيوان التابير السماوي يلوّح بسعفة النخل مثيرًا تيارات هوائية قادرة على حرف الصاروخ عن مساره، فتكون الكارثة.

عادة ما تؤدي الأوضاع التكنولوجية المتطرَفة إلى إيقاظ الشهية لموجزات عاطفية في ما يخص السلامة، التي تنزع بدورها إلى كشف ما ينطوي عليه الأمر من مخاطر وافتضاح عدم كفاية الاستجابات المقترحة. أتى إلى جماعتنا واحد من فريق «فرقة الإطفاء في باريس» - لها مكتب فرعي في مركز الفضاء هذا. صحيح أن بيننا وبين


مكتبة ياسمين

الصاروخ مسافة غير قليلة، لكنه قادر على الوصول إلينا في ثانية واحدة إذا انحرف عن مساره. هذا ما قاله لنا رجل الإطفاء. لكن ما طرحه من احتمال كارثي لم يمنعه من أن يوزّع علينا أقنعة صفراء واقية من الغاز، ويشرح لنا كيف نضعها على رؤوسنا ونفعّل أنابيب التنفس فيها، ثم نضعها جانبًا ونتركها إلّا إذا نشأت حالة طارئة تستوجب استخدامها. على الرغم من هذه التعليمات، أخرجت مذيعة التلفزيون من هونغ كونغ قناع المصوّر من غلافه، بعد دقيقة واحدة فقط لأنها حريصة على وضع العلم موضع التطبيق، ووضعته على وجهها من غير إحكام وراحت تناجي الكاميرا بصوت مكتوم، متحدّثة عن المخاطر التي قبلت أن تعرّض نفسها لها من أجل المستمعين. ظل قناعها راقدًا في حقيبة يدها من صنع «بالانسياغا» المزيّنة بالشرّابات.

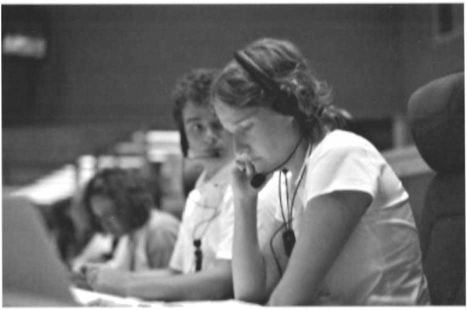

وضعوا شاشة تعرض أمامنا نقلًا مباشرًا لما يجري في غرفة التحكم. فريق من ثلاثين شخصًا يعكف على الأجهزة التي تراقب الوظائف الحيوية في صاروخ آريان. كان د. برودون قد عاد من نزهة السلاحف. هو الآن جالس إلى مكتبه ينظر إلى عدد من الشاشات من غير أن يظهر عليه أي انفعال. في


مكتبة ياسمين

تحدٍّ لإحساس الفريق العامل في المركز بأنه فريق لا سبيل إلى الاستغناء عنه، كان مركز تحكّم مماثل جاهز للعمل، مقامًا على مسافة بضعة كيلومترات إلى الشرق، وفيه فريق من ثلاثين شخصًا لديهم ما لدى الفريق الأول من تأهيلٍ عالٍ. إنهم مستعدون لتولي إدارة العمليات إن وقع خطأ عارض لحظة الإطلاق فأحرق الصاروخُ زملاءهم.

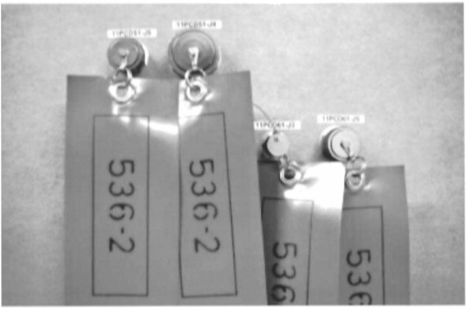


في الجو الليلي الرطب، كان صاروخُ ينتصب على منصة الإطلاق، تنيره مجموعة مصابيح قوسية تحوم من حولها غيمات من حشرات استوائية ترقص رقصًا مجنونًا. في أعماق الأدغال حيوانات البيكاري وقرود عنكبية وآكلات النمل العملاقة ونسور خطافية، في حين كان في هذا الموقع العجيب، ذي الهواء المكيَف من مواقع الحضارة النيوتنية، شيء يستعد للانطلاق ومغادرة هذا الكوكب. جرى إخلاء الأجواء كلِّها من السفن والطائرات ضمن قوس تبدأ من ساحل غرب أفريقيا. تلقّت محركات صاروخ آريان آخر أنفاسها من الأوكسيجين عبر أنبوب التغذية الثخين الأسود. وغادر المنطقة كل إنسان كان باقيًا فيها. كان صعبًا ألّا يحسَ المرء شيئًا من ذلك الأسى نفسه الذي قد


مكتبة ياسمين

يحسّه من يراقب انطلاق سفينة إلى المحيط، أو إنزال تابوت إلى القبر.

ثلاثون ثانية باقية على الإطلاق. أتانا صوت د. برودون. يبدو أن حيوان التابير قد سمح بانطلاق هذه البعثة إلى السماء. عمل سنين طويلة موشك على أن يتكثّف كله في لحظة واحدة. أخيرًا صار الزمن، الذي يهوّم متكاسلًا من غير غاية في أذهان كثيرين منا في فترة بعد الظهر، شيئًا ذا معنى. بقيت عشر ثوانٍ. ومثلما يفعل ناظر سجن عندما يفتح أبواب الزنازين، استدار د. برودون إلى مجموعة مفاتيح وأطلق العد التنازلي الرسمي. الآن، لم تعد موجودة أية فرصة لأن ينتهي الأمر «سلمًا». *عشرة، تسعة، ثمانية، على وشك الإطلاق*. كان عجيبًا أن يسمع المرء هذا العد التنازلي، المماثل لما نراه في السينما من عدّ تنازلي، عند الإطلاق في قاعدة كيب كانافيرال منطوقًا هنا بلغة أخرى(1). وعند «*خمسة*» شمع صوت مكتوم كأنه صوت قنبلة انفجرت في الخارج. علت أول نفثة دخان من أسفل قاعدة الإطلاق. وعند «*ثلاثة*»، غمرت قاعدة الإطلاق وسائذ «بيضاء». ثم وصلنا إلى «واحد، إطلاق...»، فانتزع الصاروخ نفسه من قاعدته ناهضًا بصمت تام.

بلغنا الضجيج بعد ثانية من ذلك، فكان أعلى مما سمعه أي منا في حياته كلّها، أعلى من صوت الرعد، ومن أصوات الطائرات، ومن المتفجرات المستخدمة في مقالع الحجارة. طاقة الشمس التي تكثفت عبر عشرات ملايين السنين، انطلقت حزَة في لحظة واحدة. أدركنا عندها أننا نشهد وقوع حادثة لا تتكرر، ولا سبيل إلى التعبير عنها. فوق هذا، كان ما أضفى على المشهد مسحة درامية


مكتبة ياسمين

خاصة -بكل تأكيد سوف يُحذف هذا الأمر من الروايات اللاحقة- ذُعرنا إزاء ما قد يحدث بعد ذلك، فقد بدا أمرًا مستبعدًا جدًا أن تكون هناك خاتمة سلمية هادئة بعد هذا الزلزال الرهيب.

ارتفع الصاروخ في السماء، وشهق الجميع شهقة عجب ساذجة *آآآههه*، شهقة بدائية غير قادرة على التعبير الواضح عن نفسها لأننا نسينا أنفسنا جميعًا لحظة واحدة، نسينا ما حظينا به من علم وتهذيب وإحساس بالفكاهة، ورحنا نتابع ذلك الرمح الأبيض الدقيق يعلو ويعلو إلى سماء الجنوب.

وأيضًا، كان هناك ضياء: ضياء برتقالي غني كأغنى ما أنتجه صانعو الألعاب النارية. صار الصاروخ كأنه بصلة عملاقة مشتعلة في الأعالي جعلتنا نرى شاطئ البحر وبلدة كورو والغابة ومباني مركز الفضاء، كأننا نراها كلها في ضوء النهار، ومعها وجوه رفاقنا من المراقبين المذهولين.

بدا لي الإطلاق قادرًا على «تحمُّل» أي عدد من القراءات الرمزية. ها هو أنبوبٌ يحمل قمرًا صناعيًا تلفزيونيًا آسيويًا صاعدًا به إلى المدار؛ لكنه روحٌ أيضًا (هذا يعتمد على ما يميل إليه عقل المرء - ليس في المشهد ما يثنيك عن هذه الأفكار)، إنه إله، ثالوث مقدس، تجسّد لروح ماوري، خالقٌ تام القدرة في كون الوايواي. يذكّر المشهد بلحظات النار والدخان التي استحضرها أنبياء العهد القديم حتى يجعلوا مستمعيهم يرتعدون خوفًا أمام جلالة ربهم. مع ذلك، كان هذا التجلّي الحديث لذلك الجلال السماوي كله نتاج آلات لا يمكن القول إلّا أنها وثنية، أو علمانية. لقد علّمنا العلم أن نصرف انتباهنا بعيدًا عن الآلهة.

اخترق الصاروخ طبقة غيوم واختفى فيها، فلم


مكتبة ياسمين

يترك خلفه غير صوت زئير لا تكاد تستطيع الأذن تتبَعه، زئير تردَدت أصداؤه في صفحات السماء، وعلى الأرض، وفي الغابات، ثم ظهر من جديد عابرًا ثغرة صافية بين الغيوم. صار أعلى مما تبلغه أية طائرة؛ وتضاءل حتى بدا كأنه شعلة واهية. القمر الصناعي الذي كنت معه في صالة واحدة قبل أيام فقط، كاد الآن يبلغ أعلى طبقات الغلاف الجوي. وفي نقطة من نقاط ذلك المسار الطويل، انفك عنه الصاروخان الدافعان، وسقطا إلى البحر في مكان يقع بيننا وبين أفريقيا. هبطا متهاديين تحملهما مظلَات كبيرة.

من جديد، ران علينا صمت غريب. صوت ريح طبيعية صار مسموعًا بين الأشجار. ثم أتى صراخ قرد. كان فمي جافًا. انتبهت إلى يدي اليسرى معلَقة في الهواء، باقية مثلما كانت لحظة بدأت عملية الإطلاق. على مقربة مني، تحت خيمة فيها صفوف من الكراسي، كان شخصان يتبادلان حديثًا خافت الصوت باللغة الفرنسية. امرأة شعرها متدلٍ حتى كتفيها، امرأة ذات جمال طبيعي بسيط، تشرح لصديقة لها كيف سيبلغ القمر الصناعي مداره النهائي. كانت ترتدي تنورة بيضاء من قماش قطني


مكتبة ياسمين

مزينة بأزهار صغيرة زرقاء. رأيتها تستخدم إحدى ركبتيها كي تمثل بها الأرض، وإصبعًا رشيقة طويلة ترسم بها مسار القمر الصناعي. كانت حريصة على أن توضح لرفيقتها حقيقة أن الصاروخ الدافع لن يحمل القمر الصناعي طيلة المسافة حتى مقصده، خلافًا لما قد يتوقّعه المرء. عمله مقتصر على رفعه في الغلاف الجوّي حتى علو مئتين وخمسين كيلومترًا، أي إلى المنطقة المعروفة باسم «رأس الحقنة»، حيث يظلّ على القمر الصناعي أن يتابع الرحلة عشرة أيام، مدفوعًا بمحركاته الخاصة إلى أن يبلغ مداره الواقع على ارتفاع ستة وثلاثين ألف كيلومتر فوق اليابان. عليه أولًا أن يكمل عدة دورات حول الأرض في مسارات بيضوية أقل ارتفاعًا (رسمتها المرأة على تنورتها) قبل أن يكتسب قوة كافية لأن يمضي في مسار دائري صحيح (رسمته من حول ركبتها) - مسألة معقدة من مسائل علم الصواريخ كنت عاجزًا عن متابعتها حتى منتهاها، لأن ما كان في مشهد الإطلاق من توتر جعلني غير قادر على التركيز وأرغمني على السير مبتعدًا في ظلام الليل.

الآن، انتقل التحكم بالصاروخ من المهندسين الذين في قاعدة كورو، إلى سلسلة من محطات المتابعة الأرضية موزّعة على امتداد الأرض كلّها، محطات غير معروفة لدى عامة سكان البلاد المضيفة. أولى تلك المحطات تقع وسط المحيط الأطلسي، في جزيرة أسانسيون، حيث يقوم مبنى صغير فيه موظف فنّي وحيد أتت به سفينة من فرنسا قبل شهر. ليس هذا الموظف مسؤولًا إلّا عن متابعة مسار صاروخ أريان خلال الدقائق الأربع التي تعقب سقوط الصاروخين الدافعين. وبعد ذلك، تنتقل المراقبة إلى مركز متابعة منعزل اخر


مكتبة ياسمين

قائم في مدينة ليبرفيل في الغابون. ثم يأتي مركز ثالث في بلدة ماليندي في كينيا. آخر المحطات في تلك السلسلة منارةٌ في صحراء أستراليا الغربية، أحسستُ ذلك الوقت أنها تعيش عزلة تشبه عزلتي.

-9-

كانوا قد نظَموا حفلة بعد عملية الإطلاق في مطعم على شاطئ البحر في كورو. صالة طعام مزيَنة بصور لصاروخ آريان وقمره الصناعي، وبوفيه عامر بلحوم الماعز والأخطبوط، مع برج من الجمبري المشوي مبني على هيئة صاروخ الإطلاق. في الناحية الأخرى من كوكب الأرض -حيث بدأ الغد منذ الآن، مع أن الصاروخ لم يتركنا إلَا منذ سبع وعشرين دقيقة- توقَف عمل المرحلة الأخيرة من المحرك الصاروخي، وانفتحت مقدَمة صاروخ آريان كي تسمح للقمر الصناعي بأن يتابع تقدَمه بقواه الخاصَة.

كانت مشاعر الناس في مجموعتنا محتدمة، بل كان ذلك حبورًا عمَ الجميع. اصطف المديرون اليابانيون إلى جوار ثوب مدير وكالة الفضاء ذي اللون الأبيض، وبدأ العاملون في ناسا يحتسون البيرة، وفتح فريق الإطلاق بضع زجاجات من نبيذ بوردو. شاركتُهم تلك اللحظات المثيرة. الطبقات العليا من غلاف الأرض الجوي التي لم تخترقها إلَا أجسام معدودة طيلة تاريخها البالغ أربعة مليارات ونصف مليار سنة، سمحت قبل قليل بمرور رمحنا الأبيض الرشيق (كم كان الفضاء الخارجي هادئًا في زمن الرومان. وكم كانت الحادثات قليلة على ارتفاع مئتين وخمسين كيلومترًا إبان العصور الوسطى). لقد عرف المهندسون كيف يجعلون واحدة من آلاتنا تجد مستقرًا لها في موضع شديد الاختلاف عما


مكتبة ياسمين

عهده البشر. سرعان ما تصير عينًا جديدة مستقرة في السماء فوقنا. تذكّرت قصيدة «ممر إلى الهند» من ديوان «أوراق العشب» لوالت وايتمان. صوّر الشاعر نفسه في القصيدة ناظرًا من الأعالي إلى الأرض وإلى ما ابتدعه البشر والطبيعة: تجربة من تجارب المخيّلة لا يستطيع غير قمر صناعي حديث أن يضفي عليها أبعادًا ملموسة:

*أرى في قارتي سكة حديد الباسفيك تقهر كل عقبة؛*

*وأرى سلاسل متواصلة من عربات تتلوى على امتداد نهر بلات حاملة مسافرين وسلعًا*

*أسمع القاطرات مندفعة، صاخبة، وأسمع صفاراتها البخارية الحادة*

*أسمع الأصداء متردّدة بين جنبات أكبر مشهد طبيعي في العالم؛*

*أجتاز سهول لارامي - أرى الصخور. أشكالها الغريبة -أرى حدبات الأرض؛ أرى كثرة من نباتات وأبصال برية - الصحراء القاحلة، الحكيمة، لا لون لها ...*

وهنا، في صالة حسنة الإنارة تقع على تخوم أدغال أميركا الجنوبية، وقفت حاملًا بيدي كأسًا من الروم البرازيلي، وانقلبت على ميلي الفطري إلى الشك والتشاؤم. بدا الزعم بأن ما من شيء جديد تحت الشمس أمرًا ذا سهولة غير طبيعية، وذلك أن أي تقدّم ماديّ لا بد أن يقابله ويوازنه نكوص روحي، وأن أسلافنا الملوّحين برماحهم كانوا يضاهوننا حكمة وصلاحًا، وأن مسار التفكير المنطقي المنطلق قدُمًا لم يأت بشيء معه غير المأساة. هل يُدخل أي من هذه الأقوال في حسابه صورة صاروخ أريان صاعدًا في السماء؟ وهل يعترف بالمنطق الدقيق


مكتبة ياسمين

في أنظمته الهيدروليكية؟ بل أكثر من هذا. أفلا تشي تلك العبارات المبتذلة بما تحمله فئة مهزومة فقيرة المخيلة من بغض؟ أحسست بي ميلًا إلى المهندسين والفنيين الواقفين من حولي، أولئك «الحكماء الجدد» الذين يكثر بينهم من يضعون على رؤوسهم قبعات البيسبول، وينزعون إلى الاستمتاع بتبادل نكات ساذجة -لكنهم، مع ذلك كله، صاروا متمكنين من آليات اشتغال الكون-. يا لهذه المخلوقات المدهشة! ويا للآفاق الهائلة التي جعلوها مفتوحة!

كانت مذيعة التلفزيون الآتية من هونغ كونغ الشخص الوحيد الذي بدا لي غير قادر على عيش جو الفرحة والإثارة، فقد ظلت جالسة إلى الطاولة وعلى محيّاها ملمح اكتئاب. كانت تعبث بقطع الجمبري في طبقها. قالت مع ابتسامة واهية إنها وجدت عملية إطلاق الصاروخ مخيّبة؛ وأضافت أن عليها الآن أن تبدأ العد التنازلي الخاص بها: العودة إلى شقتها المطلة على ميناء فيكتوريا في هونغ كونغ. الظاهر أن مرارتها كانت ناجمة عن تأذّي إحساسها بضرورة أن يكون كل شيء متمركزًا من حول ذاتها. بدا لي أن البعوض كان موضوع الحديث الوحيد الذي يريحها. ليست قصص الآخرين عن لسعات البعوض التي أصابتهم بأقل إضجارًا من قصصهم عن أحلامهم؛ لكن المرأة مضت في سرد قصة طويلة وصفت فيها كيف التهمها البعوض أثناء إطلاق الصاروخ، ثم أتبعت ذلك بأن جعلتني أرى معصميها، راجية أن يكون وضوح شدة اهتمام ذلك العدد الكبير من المخلوقات الصغيرة بها عونًا لها في محاولة إثباتٍ يائسة لجاذبيتها التي لا سبيل إلى مقاومتها. فطنت عندها إلى أن من الناس من يمكن أن يغار حتى من صاروخ!


مكتبة ياسمين

تناولت شيئًا من لحم الماعز مع البطاطس الحلوة، ثم مضيت إلى طاولة في الخارج. سماء زاخرة بنجوم كثيفة إلى حدَ غير معقول كأنها حبيبات بَزاقة منثورة نثرًا سخيًا على مساحة من قماش صقيل أسود. على امتداد آلاف السنين، كان الإحساس بالرهبة والإجلال حكرًا على الطبيعة، وعلى خالقها. جبال الجليد، والصحارى، والبراكين، والجليديات، هي ما كان يجعلنا نرى مقدار ضآلتنا ومحدوديتنا، فيبعث ذلك فينا إحساسًا بالخوف والاحترام ممتزجين معًا في شعور «سارّ» إلى حدَ غريب، شعور بقلة الشأن. هذا ما كان فلاسفة القرن الثامن عشر يسمونه إجلالًا.

ثم أتى تحوَل لا نزال نعيشه حتى الآن... تحوَل أستطيع القول إن صاروخ آريان مثال واضح عليه. فعلى امتداد القرن التاسع عشر، كفَت الطبيعة عن كونها العامل الأول في إثارة إحساسنا بالإجلال. لقد مضينا شوطًا طويلًا في حقبة الجلال التكنولوجي حيث لم تعد الغابات وجبال الجليد أول ما يبعث فينا ذلك الإحساس بضآلة الشأن، إذ زاحمتها على الاضطلاع بذلك الدور الكومبيوترات والصواريخ ومسرّعات الجزئيات الدقيقة. الآن، لا يكاد يدهشنا شيء أكثر من أنفسنا وما نصنع من عجائب.

في تلك الأثناء، صارت الطبيعة محلّ قلق وشفقة، مثلها مثل خصم سابق أتِ إلى بابنا وهو موشك على الموت لفداحة ما أصابه من جراح. لم تعد مشاهد الطبيعة رموزًا لكل ما يفوقنا لأن الجراح الناجمة عن قوانا المفرطة صارت ظاهرة في كل ناحية منها. في وسعنا أن ننظر إلى تراجع الثلوج على جبل كليمنجارو، ونتأمل في الاثار الضارة


مكتبة ياسمين

التي تخلَفها محركاتنا التوربينية. وفي وسعنا أن نطير فوق مساحات تعرَت من غاباتها في حوض الأمازون، فندرك أن الغابة المطيرية ليست بأشد مناعة من زهرة وحيدة بين أيدينا. لقد تعلَمنا كيف نعيش مشاعر الاحترام إزاء لوحات الدارات الكهربائية ومشاعر الشفقة والإحساس بالذنب إزاء الجليديات.

## -11-

كانت الخطة تقضي بأن يعيدني بسيارته إلى فندق أتلانتس مهندس يعيش في مكان قريب منه؛ إلَا أن الساعة بلغت الواحدة بعد منتصف الليل، فوضع الرجل على رأسه قبعة من ورق وراح يراقص نادلة برازيلية، فغادرث المكان وحيدًا. ليست شوارع كورو بيئة مرحَبة على الإطلاق، لكنها بدت لي في تلك الساعة المتأخرة من الليل أكثر إقفارًا وأشد خطورة. المتاجر مقفلة، أكثرها غير مُنار. تعرَض مطعم الوايواي لحادثة سطو في اليوم السابق إذ أغارت عليه عصابة آتية عبر الحدود، من سورينام. من حوله الآن شريط تحذير أصفر اللون وضعته الشرطة.

ران عليَ مزاج سوداوي لم يكن متوقعًا؛ لعله كان ناجمًا عن إدراكي قلة ما أفلح من تلك الإنجازات الكثيرة الكامنة خلف إطلاق صاروخ آريان، في «النزول» وصولًا إلى تجارب الحياة اليومية. إذًا، ما أكبر ذلك الجزء من حياتنا الذي لا يزال محكومًا بأن يظل كعهده دائمًا، وبأن يظلَ خاضعًا للنوع نفسه من التنازلات الداخلية، والتجاذبات العنيفة، وحالات القنوط والإحباط نفسها التي عاشها أسلافنا من قاطني الكهوف. سوف تتحلَل أجسادنا، وسوف تخرج خططنا عن مساراتها، وسوف يواصل السخف

والقسوة والشهوة زيارة حياتنا، ولن نكون -إلّا في حالات عارضة- قادرين على استعادة ذلك التواصل مع ما يتجلى في الآلات العظيمة من سرعة ورشاقة وجلال وذكاء.

إحساس عميق بالتكيّفات النفسية المؤلمة التي لا بد منها لعيش زمن الحداثة: الحاجة إلى احترام الإمكانيات التي يتيحها العلم، مع إدراك أن منافعه قد تكون ضيقة الإطار، محدودة إلى درجة باعثة على قدر غير قليل من الحيرة. داعبني إغراء الأمل بأن تكتسي نشاطاتنا كلها ما تتسم به الهندسة من إثارة ودقة مع الإقرار بسخف من يبالغون في التأثر بالإنجازات التكنولوجية، فتغيب عن أعينهم حقيقة أننا سنظل معرّضين دائمًا لمخاطر الوقوع في أخطاء وتفاهات أكثر وضاعة.

-12-

كان اليوم التالي آخر أيامي في غويانا الفرنسية. خرجت في جولة في العاصمة كايين بغية قتل الوقت الباقي قبل موعد إقلاع طائرتي في المساء. انتهى بي المطاف إلى المتحف الرئيسي في البلاد الذي كان بيتًا على النمط الكريولي ذي سقف من صفيح، وكان مكانًا رديء الصيانة، غاصًا بالرماح


مكتبة ياسمين

واللوحات الكولونيالية والأفاعي المحفوظة في ماء مالح.

في غرفة خلفية، كانت معلّقة لوحات تمثل سكان البلاد يعكفون على أعمالهم في فترات تاريخية مختلفة. رأيت في اللوحة الأولى أسرة ترتدي جلود الحيوانات تقشّر ثمارًا. ورأيت في اللوحة الثانية بضعة صيادين محدَقين بنظرات كسلى وهم جالسون في زورق تقليدي. رهط من العبيد في اللوحة الثالثة يشعل النار في بيت مزرعة. وأخيرًا، لوحة حجمها ضعفا بقية اللوحات، فيها صورة زاهية الألوان لخمسة مهندسين في أثواب بيضاء يعملون على تركيب التوصيلات الكهربائية في قمر صناعي في صالة في مركز الفضاء. كانت العبرة واضحة: لقد تجاوزت غويانا الفرنسية ما كان في ماضيها من كدح وضيع شاق، وصارت ماضية صوب مستقبل ترعاه يد العلم.

مع هذا، أحسست بشيء من الغرابة في إجلال مهندسي وفنيي الصواريخ وتعظيمهم على نحو قد يكون أشبه بما اعتاده أسلافنا القدماء من تعظيم آلهتهم. وذلك أن من المستبعد، بل من المربك أيضًا، أن نستطيع جعل أولئك الاختصاصيين موضع إعجاب تصح المقارنة بينه وبين إعجابنا بالجبال وبسماء الليل. مهما تكن عيوب عصر ما قبل العلم، ومهما تكن نقائصه، فقد كان زمانًا يتيح لأهله -على أقل تقدير- فسحة من سلام ذهني ناجمة عن معرفتهم أن إنجازات البشر كلّها لا تعادل شيئًا إن هي قورنت بعظمة الكون. وأما نحن الذين حظينا بوفرة أكبر في الوسائل، لكن بنظرة إلى العالم أقل تواضعًا، فقد صرنا متروكين كي نصارع مشاعر الحسد والقلق والغرور النابعة من افتقارنا الشديد


مكتبة ياسمين

إلى ما نستطيع توقيره وتعظيمه غير أقراننا من البشر الأذكياء، الماهرين، محدودي النظرة، المقلقين أخلاقيًا.

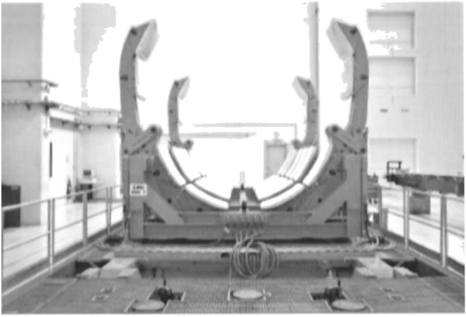

## -13-

بعد انقضاء أقل من أسبوع من عودتي إلى موطني، نجح القمر الصناعي الذي أنتجته شركة «لوكهيد مارتن» في الوصول إلى مداره، وانضمَ إلى مئات من زملائه الذين يحيطون بالأرض إحاطة السوار بالمعصم. صار الآن يبث إلى اليابان كلها، من عليائه، ما يتلقاه من برامج تلفزيون WOWOW؛ وصارت ممكنة رؤيته من هناك في الليالي الصافية، حين يظهر كأنه واحد من نجوم السماء الطبيعية الكثيرة.


مكتبة ياسمين

# الفصل السادس

# فنّ الرسم

## -1-

أمضى ستيفن تايلور الشطر الأعظم من السنتين المنصرمتين في حقل قمح في أنغليا الجنوبية، معيدًا مرة بعد مرة رسم شجرة بلوط ضمن شروط مختلفة من النور والأحوال الجوية. فصل الشتاء الماضي، كان يخرج في ثلوج يبلغ ارتفاعها قدمين. وهذا الصيف، يستلقي على ظهره في الساعة الثالثة فجرًا متابعًا بعينيه أغصان الشجرة العلوية في ضياء القمر وقت تمامه.

في كل يوم عادي من أيام الصيف، يكون هذا الفنان المجهول المتوسّط السن ماضيًا بسيارته مستعدًا للعمل منذ السابعة صباحًا. يعيش في بيت عتيق ذي شرفة في وسط مدينة كلوتشستر، التي يبلغ تعدادها نحو مئة ألف شخص وتقع على مسافة تسعين كيلومترًا شمال شرقي لندن. لقد بلغت سيارته السيتروين المتهالكة مرحلة تداعٍ تامٍّ، حتى صار ظاهرًا عليها أنها شارفت على موتها. على مقعد السيارة الخلفي أدوات مبعثرة على نحو يجعل المرء يظنها ناتجة عن حادثة اصطدام: لوحات الرسم القماشية، وحوامل اللوحات، وعبوات الرذاذ الذي يطرد الحشرات، وسندويتشات قديمة، وكيس فيه فراشي الرسم، وصندوق الألوان. على المقعد أيضًا حقيبة ممتلئة كنزات وأوشحة للعنق لأن من يرسمون المشاهد الطبيعية في الخارج يعرفون قصة الحمَى التي أصابت الرسام سيزان ذات صباح، عندما كان يرسم عصفورًا في حقل في بلدة أكس أون بروفانس، فمات مع غروب الشمس.


مكتبة ياسمين

تقود الطريق الخارجة من كلوتشستر تايلور عبر منطقة فيها مستودعات ومواقع بناء. زحمة الذاهبين إلى أعمالهم لا تطيق صبرًا، ولا تتأخر ثورة غضبها. على مقربة من محطة القطار، شجرة ناجية تقف وحيدة وسط ساحة صغيرة في الطريق: شاءت المصادفة أن تظل حية بعد موت صاحباتها عند شق الطريق. يبتعد تايلور عن المدينة ثمانية أميال، ثم ينعطف تاركًا الطريق الرئيسية ويمضي في درب زراعية غير مستخدمة كثيرًا. سوق الأعشاب المرتفعة حتى الخصر تتنحَى وتختفي تحت مقدَمة السيارة الماضية مثلما يمضي مشط بين الشعر. يبلغ تايلور مكان وقوفه المعتاد على مسافة خمسة عشر مترًا من شجرته، ويرتب «معسكره» في فسحة صغيرة في حقل القمح.

يقدَر عمر شجرة البلوط هذه بمئتَين وخمسين سنة. بالتالي، هي مأوى للزرازير والقبَرات مذ كانت جين أوستن طفلة صغيرة، ومذ كان الملك جورج الثالث حاكمًا على المستعمرات البريطانية في أميركا.

-2-

في أعين من اعتادوا رؤية اللوحات ناجزة لامعة معلَقة في المتاحف، قد تكون مفاجئة حقيقية رؤية تلك الجمهرة من أدوات الرسم الكثيرة المتسخة التي لا بد منها لابتداع اللوحة. إن لدى تايلور أكثر من مئة جنس من الفراشي، من بينها فراشِ مسطحةٌ من شعر الخنزير البري لها رؤوس ذات استدارة بيضوية، وفراشِ مدبَبة، وفراشِ مدوَرة، وفراشي الحلاقة، وفراشِ يابانية ناعمة للألوان المائية، فضلًا عن فراشي مزج الألوان المصنوعة يدويًا.


مكتبة ياسمين

إلى جانب تلك الفراشي كلها، يضع تايلور مجموعة لا تقلّ عنها تنوعًا من أنابيب الألوان المعوجّة التي تشكّل معًا أبجديته البصرية. يصعب تصديق أن من الممكن جمع هذه المكوّنات معًا لابتداع تصاوير شديدة الإتقان لقبّرات الحقول وأوراق النباتات في الربيع، وغصون كستها الأشنيات. هذه الألوان التي يمكن أن تحيلها أيدٍ أقلّ براعة إلى لطخات بشعة سوف تروّضها يد الرسام وتنثرها على اللوحة فتصير أرضًا وسماء.

ومع الوقت، لن يكون باقيًا أمامنا ما يستطيع تذكيرنا بأصول اللوحة الفانية. اللطخات الأرجوانية الداكنة على أصابع الفنان، والنقاط الحمراء المرشوقة على حذائه، والبقايا الدبقة من ألوان خضراء وزرقاء على لوحة الألوان، سوف تختلط وتذوب معًا تاركة اللوحة موجودة بذاتها، ساكتة عن أصولها مثلما تسكت طريق ريفية شُقت منذ فترة وجيزة. وإذ ينظر المرء إلى تايلور أثناء عمله يتذكّر أن بيروجينو ومانتينيا نفسيهما، هذين اللذين لا يعرفهما الناس عادة إلّا اسمَين غير مشخّصين في كتب تاريخ الفن الأوروبي، كانا في يوم من الأيام مخلوقَين لهما جسدان مادّيان يضعان الألوان على قطع من الخشب، مستخدمين أعوادًا مربوطة إليها شعرات خشنة من حيوانات بيتية، ثم يعودان من مرسميهما وقت المساء وعليهما لطخ من تدرجات الألوان التي استخدماها في تصوير غيوم قطنية سابحة بكل سكينة من فوق رأس المسيح الطفل.

-3-

يمضي تايلور في عمله على دراسة أغصان الشجرة السفلى من جهة اليسار. لقد بدأ دراسة هذه الأغصان منذ أسبوع. بين سبابته وإبهامه،

يحرك ريشة مدببة الرأس، ويغمس قمتها في بقعة من صباغ أرجواني وآخر بني مصفرَ. في ما بعد، سوف يندمج هذان اللونان الزيتيان ويتحولان -عند النظر إليهما من مسافة كافية- إلى صورة تامة لورقة من أوراق الشجرة في ضياء شمس الظهيرة. تحلّق حدأتان عاليًا فوق الحقل تبحثان عن الأرانب التي تتحرَك في الأسفل، فتثير اضطرابًا في سنابل القمح.

بنات البرجوازيين المحليين اللواتي يحدث كثيرًا أن تمضين ممتطيات جيادهن في الدرب المارَة بتلك الشجرة، تشحن بأنظارهنّ عن هذا الفنان ذي المظهر المشعث المنكب على لوحته. لكنه يتلقى نوعًا من تعويض عن ذلك عندما تأتيه إيماءة رأس وودود من متشرّد يتجول في تلك الناحية، وقد ربط بنطلونه بقطعة حبل. يمضي المتشرد في الطريق صائحًا بشتائم حماسية مقذعة في حق حكومة انفرط عقدها منذ عشر سنين.

صادف تايلور هذه الشجرة منذ خمس سنين مضت عندما كان خارجًا في نزهة ريفية على قدمَيه عقب موت صديقته. توقّف في استراحة قصيرة واستند إلى سياج قريب منها، فغمره إحساس بأن في هذه الشجرة العادية جدًا «شيئًا» يصيح به مطالبًا إياه بأن يجسّده في لوحة. كان إحساسه أنه، إذا تمكن من إيفاء ذلك التجسيد حقه، فسوف تنال حياته غفرانها بطريقة لا يدركها، وسوف تتسامى مشقاتها.

ليس غريبًا على تايلور أن ينسى الأكل عندما يكون في عمله. ففي ذلك الوقت، لا يعود إلّا عقلًا ويدًا تتحرَك على قماش اللوحة المربعة. يختفي الماضي والمستقبل، وتستغرقه مهمة مزج الألوان ومقارنتها بالعالم أمامه، ثم وضعها في أماكنها الدقيقة على


مكتبة ياسمين

اللوحة. قد يحدث أن تزحف حشرة على يده، أو أن تحظى باستراحة عابرة على أذنه أو رقبته. لا وجود بعد الآن للساعة العاشرة صباحًا، ولا لشهر تموز. وحدها الشجرة أمامه باقية، والغيوم من فوقها، والشمس ماضية في ارتحالها البطيء في السماء والفجوة الصغيرة بين غصن وغصن، فجوة يمثل اكتمال تصويرها عمل يوم كامل.

يعذّب تايلور إحساسٌ بالمسؤولية عن مظهر الأشياء. ومن الممكن أن يؤرّقه في الليل ما يعتبره ضعفًا في لون القمح في لوحته، أو ما يراه غلطة كبيرة في الخط الفاصل بين مساحتين في السماء. كثيرًا ما يضعه عمله في حالة مزاجية متوترة صامتة فنراه يذرع شوارع كلودشتسر. يصعب أن يتعاطف الآخرون مع ما يقضّ مضجعه، فما أقل من يمكن أن يخامرهم أي تعاطف مع بؤسه الناتج عن بقعة لون على قماشة رسم.

تقدّمه بطيء: قد يمضي خمسة شهور في رسم لوحة ليست أكثر من عشرين سنتيمترًا. لكن أسلوبه المرهف هذا ليس في حقيقته إلّا ميراث أكثر من عشرين سنة أمضاها في البحث والدراسة. اقتضاه الأمر ثلاث سنين حتى استطاع تقرير الطريقة المثلى لتصوير حركة القمح إذ تعصف به نفحة ريح؛ ثم مرّ زمن أطول إلى أن صار راضيًا عن الألوان. قبل عشر سنين، كان يستخدم ما لا يقل عن عشر درجات من اللون الأخضر لرسم أوراق شجرة، لكنه صار الآن يعتمد على ثلاث درجات فقط مع أن أوراق الأشجار التي يرسمها تبدو أغنى كثافة وحركة نتيجة هذا الإنقاص في التعقيد.


مكتبة ياسمين

الشجرة من طائرة شراعية على ارتفاع ألف قدم.

يجد تايلور معلَميه على جدران المتاحف. أولئك الأساتذة الكبار الراحلون. معلمون أسخياء: ليس أمرًا نادر الحدوث أن يقدَم واحد منهم نصيحة تقنية إلى تلميذ مولود بعده بخمسة قرون. فالأعمال الفنية التي قد يرى فيها زوار المتاحف العاديون نوعًا من تسلية كسلى هي دروس حيّة في نظر الفنانين.


مكتبة ياسمين

لوحة «رجل أكمامه مبطّنة» لتيتيان (1510) علّمت تايلور كيف يرسم أوراق الأشجار. بل إن ما كان محط اهتمامه خلال مئة ساعة أمضاها واقفًا أمامها في المتحف الوطني في لندن ليس إلّا جزءًا منها فحسب. لم يكن لديه أي اهتمام خاص بوجه الرجل بتلك اللوحة: الكم الأزرق هو ما استحوذ عليه؛ وبكلمات أكثر دقة، أسرَ لبّه نجاح تيتيان في الإيحاء بوجود امتداد للقماش، امتداد ثقيل بهيج معًا، على الرغم من اشتغاله بالحد الأدنى من الألوان. لقد علّم تيتيان تايلور كيف يكون مقتصدًا، وكيف يوحي بالأشياء بدلًا من أن يشرحها. علّمه أن لوحة فيها شجرة ينبغي ألّا تكون قصة كل ورقة مفردة، بل الكتلة الديناميكية للشجرة كلّها. ليس في الكمّ التي رسمها تيتيان إلّا خمسة من تدرجات اللون الأزرق؛ لكن العبقرية كامنة في اختيار تلك التدرجات اختيارًا متأنيًا وفي الدمج الحصيف الذكي بينها. ففي حين تبدو الطبَات السفلى


مكتبة ياسمين

مستوية، خالية، تُظهر الطيّات في الأعلى وجود ذراع فيها إظهارًا شديد الوضوح، إلى حدِ قد يجعل الرائي يحسب أنَ من الممكن أن يمد يده إلى اللوحة ويمسك بها.

-4-

يصف تايلور مكانة تيتيان بين الفنانين بأعظم وصف يعرفه: استطاع الفنان أن يرى في قطعة قماش شيئًا لم ير له نظيرًا من قبل.

تحتل دقّة التصوير موضع القلب في فكرة تايلور عن الرسم. يقول موضحًا إن السماء لا تكون أبدًا زرقاء فقط. ففي المواضع القريبة من الشمس، عند أعلى اللوحة، نراه يستخدم لونًا أزرق قويًا يضيف إليه كميات متزايدة من التركوازي مع انحدار ريشته نازلة صوب الأرض. وعند خمسة وعشرين درجة، يمزج كميات بسيطة من الأصفر المبيض اللامع مع لون أرجواني إلى أن يبلغ الأفق فلا يعود باقيًا إلَا لون أبيض ناعم كالغمام.

يقبل تايلور الطبيعة المقيّدة للتحدي الذي وضعه نصب عينيه. ففي مقالة كتبها كي ترافق معرضًا ضم أعماله على امتداد خمس سنين، أتت الافتتاحية تحمل الإعلان التالي: «على امتداد الشطر الأكبر من حياتي الناضجة، عملت على ملاحظات بعينها للعالم المادي. وعلى وجه التحديد -خلال السنوات العشر الأخيرة- كان اهتمامي منصبًا على تغيّرات الضوء عندما تنظر مقتربًا من الشمس، أو مبتعدًا عنها». هذا تلخيص لطموح يتخذ لنفسه موقفًا دقيق التحديد بين الانتقاص من الذات وبين الافتتان بعظمتها.

في السنة السابقة، على امتداد أسبوعين من شهر كانون الأول الرطب، كان تايلور يستلقي تحت شجرة البلوط على بساط واقٍ من الماء، ويجرب

دراسات في الأوراق والعيدان والأعشاب والديدان والحشرات. سقط من الشجرة ذلك الشتاء نحو مئة وثمانين ألف ورقة كان مكتوبًا لها أن تأكلها، بمعدل شديد البطء لا يكاد يبين، مئات ملايين البكتيريا التي تعيش بين جذور الشجرة. رسم تايلور ذلك الموئل البني الرمادي، موئل الحشرات النطاطة، والكائنات المكوّنة من بضع خلايا، والديدان الأفعوانية، وديدان الأرض، والديدان الألفية، والعقارب الزائفة، والبزّاقات والحلزونات. استفاض في دراسة دقيقة للأشنيات المنتشرة على امتداد قطعة لحاء، ثم انتقل اهتمامه إلى الفطر بعد معرفته أنها من النباتات التي تنمو على نباتات غيرها من غير أن تكون متطفِّلة عليها (أي إنها عضويات تنمو على شيء آخر من غير أن تتغذى عليه). لاحظ ساق نبتة متسلِّقة خضراء طويلة يعرفها علماء الطبيعة باسم «غاليوم آباراين». تنتهي أوراق هذه النبتة بخطاطيف دقيقة جدًا مغلَّفة بلعاب اليرقات، أي بتلك المادة اللزجة التي تفرزها يرقات نوع من أنواع الجنادب كي تقيها هجمات المفترسين عندما تكون عاكفة على امتصاص نسغ مضيفها.

إن المفردات المستخدمة في علم الأحياء غالية على قلب تايلور، فهي دليل على الاهتمام وعلى مجتمع مستعد لمنح التفاصيل الدقيقة ما يليق بها من اهتمام. ففي نظره، لا تعزلنا المصطلحات التقنية عن عالم الطبيعة، بل تساعدنا في الالتصاق بسوية أعلى من الإخلاص لظاهراتها الثمينة الأكثر رهافة.

-5-

صرنا في آخر يوم صيفيّ حارّ إلى حدّ غير مألوف. خرج تايلور إلى حقله وراح يستعد للعمل في الليل.


مكتبة ياسمين

القمر يعلو فوق قرية وست برغولت القريبة. مشهدٌ أمضى في رسمه أربع سنين ونصف السنة، قبل أن ينتهي إلى التقاط الإمكانيات الغنية التي تتيحها شجرة واحدة. لا يزال مثار دهشة عنده صعوبة تحديد اللحظة الدقيقة لظهور القمر في السماء. يكون أول الأمر مختبئًا وسط أنوار القرى والبلدات البعيدة، ثم يتحرَك حركة لا تكاد تميّزها العين، ويعلو إلى موضع يصير عنده بائنًا، تمامًا فوق غابة بعيدة. يصير نقطة صغيرة، لكنها واضحة القوة إذ يبدأ تألّقها. ومع ارتفاعه، يصيبه تحوَل لوني مستمر يبدأ بلون بين الأرجواني والبرتقالي؛ ثم لا تنقضي إلَا نحو عشر دقائق قبل أن يتخلَى عن ألقه الأرجواني ويسكبَ على خلفيةِ سماء تزداد اسودادًا ضياءً فضيًا مصفرًا يتحوَل بعد قليل، فيصير فيضًا أبيض صرفًا باهرًا.

شيئًا بعد شيء، تألف عينا تايلور ظلمة الليل. وتجعله غلبة اللون الأخضر في سماء الليل يحسّ كأنه داخل حوض أسماك فيه نباتات كثيرة. يُضاء مصباح كهربائي في بيت على مبعدة أميال معدودة. يظهر في الأفق نجم لونه بين البرتقالي والفوشيا، بينما تتمايل الأشجار تحته على وقع النسيم كأنها كوكبات مرجانية راقصة في تيار تحت الماء. يضيء تايلور مصباح جيب معلَق حول رقبته، ويوجّه النور إلى صندوق الألوان ولوحة الرسم.

يتراجع عالم البشر بطيئًا مع تقدَم ساعات الليل، ويترك تايلور وحيدًا مع الحشرات ومع تراقص ضوء القمر على سنابل القمح. إنه يرى فنّه وليد إحساسه باحترام كل ما لا يشبهنا وكل ما يتجاوزنا، ويأمل أن يخلق فنّه هذا الإحساس لدى الاخرين. لم يرد يومًا أن يرسم عالم البشر: مصانعهم وشوارعهم وما


مكتبة ياسمين

لديهم من لوحات كهربائية. انتباهه مشدود إلى ذلك الذي لا بدَ لنا -لأننا لم نصنعه- من بذل جهدٍ خاصّ وإعمال مخيّلة غير عادية حتى نفهمه، أي إلى بيئة الطبيعة المحيطة بنا لأنها بعيدة كل البعد عن أن تكون قابلة للتنبؤ بتقلّب أحوالها، ولأنها عصيّة على التوقّع بكل ما في هذا التعبير من معنى. إخلاصه المتفاني في نظرته إلى الشجرة ليس إلّا محاولة للدفع بالذات جانبًا والاعتراف بكل ما هو «آخر»، وبكل ما هو «بعدنا» ابتداءً بهذه الكتلة الضخمة التي تبدو عتيقة في ظلمة الليل، وبأغصانها الذاهبة في كل اتجاه، وبآلاف من أوراقها الصغيرة القاسية وخلوّها الواضح من أية صلة مباشرة بالدراما البشرية.

-6-

قد تكون كلمة استوديو فضفاضة إن هي استخدمت في وصف ملحق صغير مضاف إلى


مكتبة ياسمين

غرفة نوم في الطابق الأول من بيت تايلور، تملأ جدرانه دراسات شجرة البلوط في ساعات مختلفة من ساعات اليوم، وفي أوقات مختلفة على مدار السنة.

هي غرفة يسرَ العين مرآها مع أنها صغيرة جدًا. قليلة هي المهن التي تتيح للناظر رؤية ثمرة سنين طويلة بنظرة سريعة إلى أربعة جدران، وأقل منها تلك التي تتيح لنا فرصة لجمع كل ما ظفرنا به من حساسية وذكاء في مكان واحد. فعلى وجه العموم، لا يجد جهدنا وكدّنا تعبيرات فيزيائية دائمة ناطقة بلسانه. نضيعُ في مشروعات جماعية عملاقة متشابكة تتركنا متسائلين عما فعلناه السنة الماضية، وأين ذهبنا واختفينا، وما أنجزناه. تواجهنا حقيقة طاقاتنا الضائعة عندما نجد أنفسنا غارقين في «بؤس» حفلات التقاعد.

كم يكون كل شيء مختلفًا بالنسبة إلى صانعٍ ماهرٍ حوّل جزءًا من العالم بيديه وحدهما، صانعٌ قادرٌ على رؤية عمله من حيث هو عمل نابع من وجوده، قادر على أن يرجع إلى الخلف خطوة آخر النهار، أو آخر العمر، ويشير إلى شيء -سواء أكان قطعة مربعة من قماشة رسم، أو كرسيًا، أو إناءً من صلصال- فيراه مستودعًا مستقرًا ثابتًا لمهاراته وسجلًا دقيقًا لسنيّ عمره، فيحسّ بنفسه مجتمعًا كلَه معًا في موضع واحد، لا متناثرًا موزعًا على مشروعات كثيرة تبخّرت منذ زمن بعيد إلى لا شيء، إلى ما لا يستطيع رؤيته أو لمسه بيده.

يعلم تايلور أنه يبتدع أشياء تتجاوزه وتعلو عليه. إن له فرصة التعبير عن نفسه تعبيرًا صحيحًا على قماشة الرسم بطريقة لا يقدر عليها في مجرى حياته المعتادة. هو ليس ذلك المراقب الصبور


مكتبة ياسمين

المتأني دائمًا، لأن في ذاته الاجتماعية مواضع هشاشة كثيرة جدًا. يكون متوترًا عند وجوده مع أشخاص آخرين، وينزع إلى تمويه مخاوفه وقلقه بأن يبالغ في الضحك. ثم إنه ليس صاحب قوة بالمعنى التقليدي المتعارف عليه. لقد شابت مساره مشقات من نوع إنكليزي خاص. منجزاته التي لعل تحقيقها يكون أسهل منالًا في بلاد أخرى -تركه لخلفيته الريفية، وانتماؤه الأول إلى بيئة الطبقة العاملة، وتثبيته هويته الفنية في أوساط الثقافة والفن- كانت صعبة المنال هنا، ولا تزال هشّة.

لكنه يقف أمام لوحة الرسم، فيغدو قادرًا على القول إنه يعرف كيف يرسم، من غير إثارة أي إيحاء بأنه مغرور أو معتد بنفسه. في تلك اللحظات، لا يبقى أقرانه مقتصرين على شركائه في احتساء الشراب في حانات تلك الناحية، ولا يعود -هو نفسه- مجرّد ابن مفلس لساعي بريد وموظفة في


مكتبة ياسمين

متجر: إنه الآن وريث تيتيان، وريثه الواثق من نفسه.

-7-

في فصل الربيع، بعد ثلاث سنين من العمل، ساعد تايلور سائق شاحنة صغيرة في تحميل اثنتين وثلاثين من دراساته على شجرة البلوط. كانت الوجهة معرضًا فنيًا على أطراف مدينة لندن، حيث تفسح المباني التجارية البرجية الضخمة حيزًا مفاجئًا لشوارع ذات أشكال غير منتظمة تمتد على جوانبها متاجر ومكاتب صغيرة. سوف تعلَق اللوحات على الجدران في قبو المعرض وفي طابقه الأرضي، في حين تستضيف النافذة الزجاجية المواجهة للرصيف لوحة وحيدة ارتفاعها اثني عشر سنتيمترًا، تصوَر الشجرة إياها أوائل فصل الخريف.

تبدو شجرة البلوط ضيفًا غريبًا في مشهد هذا المحيط القاسي الذي تندفع جماهيره مسرعة إلى المكاتب، وتشمخ روافعه في الأعالي وتعبر طائراته من فوق الرؤوس منطلقة إلى مطارات في مشرق الأرض وفي مغربها. بشر في الخارج يشترون قهوة، أو سندويتشات، أو صحفًا، أو أحذية جديدة، أو يلبّون حاجاتهم العملية الأساسية. في وسط هذا النشاط الجاري هنا، يبدو أمرًا منطقيًا إلى حدّ كافٍ تساؤل المرء عما قد يكون من معنى لفن تايلور.

إنه يساعدنا في ملاحظة ما قد رأيناه بالفعل. تسعى اللوحات إلى إثارة انتباهنا وتوجيهه. بمعنى من المعاني، تصحّ مقارنتها بلوحات إعلانية، لكنها لا تقسرنا على التركيز على صنف بعينه من أصناف المارغرين، أو على تذاكر الطائرات ذات الأسعار المخفَضة، بل تحرّضنا على التأمّل في معنى الطبيعة، وفي دورات النمو والموت التي تتكرّر كل


مكتبة ياسمين

سنة، وفي تداخل المملكتين النباتية والحيوانية، وكذلك في انقطاع صلتنا بالأرض وفي ما تبثه عناصر الطبيعة المبرقشة المتواضعة فينا من إحساس بالانعتاق. قد يجوز لنا تعريف الفنّ بأنه أي شيء يدفع أفكارنا في اتجاهات مهمّة، لكنها ضحية الإهمال.

مع قول هذا، يظلَ تايلور متشككًا إزاء أية محاولة لتلخيص الفن بالكلمات. فهو مصر على أن من شأن لوحة قيّمة أن تقدِر، من تلقاء ذاتها، على إحالة كل كلام إلى تعبير قاصر عنها، لأن عليها أن تمارس تأثيرها على حواسنا، لا على ملكاتنا العقلية المنطقية. وبغية التعبير عن فرادة العمل الفني، يقتبس تايلور تعريف هيغل للرسم والموسيقى، ذلك التعريف الذي يقول إنهما جنسان فنيان مكرّسان لـ«تمثيل الأفكار تمثيلًا حسّيًا». يذهب هيغل إلى القول إننا نطالب بفنون «حسّية» لأن ثمة حقائق مهمة كثيرة لا تستطيع أن تنطبع في وعينا إلّا إذا


مكتبة ياسمين

صيغت من مادة حسّية، أو انفعالية. فعلى سبيل المثال، قد نكون في حاجة إلى أغنية تنبهنا، على نحو داخلي عميق، إلى أهمية مسامحة الآخرين، فهذه فكرة يمكن أن نكون قد قبلناها على نحو ميكانيكي محض، أو على نحو جامد بعد قراءتها في مقالة سياسية -هذا يشبه كثيرًا أن نقف أمام لوحة ناجحة لشجرة البلوط، فنجد أنفسنا في وضع يسمح لنا بأن نحسّ -والإحساس هنا أمر شديد الاختلاف عن الاقتناع، أو القبول- أهمية عالم الطبيعة.

من طبيعة الأعمال الفنية العظيمة أن تكون تذكرة لنا. إنها قادرة على تثبيت ما يتفلّت منا: الظلّ المنعش لشجرة بلوط بعد ظهر يوم صيفي حارّ لا نسيم فيه؛ مسحة اللون الذهبية البنية على أوراقها في أوائل الخريف؛ الحزن الصبور البادي على شجرة عارية نلمحها من قطار يمرّ بها سريعًا ومن خلفها سماء رصاصية ثقيلة. في الوقت عينه، يبدو أن للوحات قدرة غامضة على التواصل مع جوانب منسية من نفسياتنا. فمن الممكن أن يكون ما نتوق إليه من غير بوح، أو أن يكون فيض أشواقنا الصامتة، هو ما يفاجئنا في مرأى الأشجار... ولعل ذواتنا المراهقة هي ما نراه في تلك المسحة الضبابية الذهبية في سماء صيفية.

## -8-

كانت المبيعات في المعرض الفني بطيئة على امتداد ثمانية أيام أعقبت الافتتاح. وما من مراجعات فنية في الصحف المحلية. يصعب أن يشتري الناس اللوحات عندما لا يعرفون شيئًا عما تراه «القوى الوازنة (2)» فيها.

مع هذا، دخل بضعة أشخاص كانوا سائرين في


مكتبة ياسمين

الشارع؛ أتوا من غير موعد؛ أتوا تقودهم غريزتهم. بيعت إحدى لوحات الأشجار وقت الغداء. اشتراها تاجر أعمال فنية من دويتشه بانك. واشترى لوحة أخرى رسام من باو. لوحة ثالثة اشتراها رجل وامرأة أتيان في زيارة من ملبورن، دخلا المعرض بعد أن ضلّا الطريق إلى محطة ليفربول ستريت.

في الأسبوع الثاني من المعرض، اشترت طبيبة أسنان من ميلتون كينز أصغر لوحات شجرة البلوط على الإطلاق: لوحة ارتفاعها عشرة سنتمترات فقط، ألوان زيتية على قطعة خشب. سوف تعلّقها سوزان في غرفة المعيشة حيث يكون عليها أن تُساكن جهاز تلفزيون، ومجموعة جمال خشبية من الأقصر، ومجسّمًا لقرية مستوحاة من حكاية الأطفال «نودي آند تيسي بير»، وأن تنافسها جميعًا على استقطاب الانتباه.



مكتبة ياسمين

يسعد سوزان أن تعرض اللوحة أمام أصدقائها. ليس في هذا شيء من التباهي بالمال أو بالجاه. فعلى نحو ليس واضحًا تمام الوضوح بالنسبة إليها، تتمنى أن تقول للآخرين إنها تشبه هذه اللوحة قليلًا. لقد رأت الشجرة من قبل، فهي شجرة أيام طفولتها في سومرست، الشجرة التي كانت تمرّ بها في طريقها إلى مدرستها، الشجرة التي كانت تراها وقت خروجها في نزهات على الدراجة عبر الطرقات الريفية في دورهام أيام كانت في الجامعة. هي الشجرة الواقفة في حقل قبالة المستشفى الذي أنجبت فيه أول أبنائها.


مكتبة ياسمين

ومثلما تفعل أيقونة علمانية معاصرة، تخلق اللوحة من حولها حقلًا مغناطيسيًا موحية للناظرين إليها بموقف ملائم وبقواعد للسلوك. عادة ما ترتكب المشاغل اليومية المألوفة اعتداءات كثيرة على مجريات الحياة في غرفة المعيشة. للتلفزيون شاشة غيور. ونادرًا ما يُفوّت مجسَم قرية الأطفال فرصة جعلِ صوته مسموعًا. مع هذا، يحدث أحيانًا -أواخر الليل عندما تكون بقية أفراد الأسرة في نوم عميق- أن تتمهَل سوزان عند اللوحة بضع لحظات، فترى نفسها متناغمة تناغمًا خفيًا مع شخصية الشجرة، ويستيقظ فيها إحساس نشط بماضيها، ببشريتها.

**-9-**

وصل المعرض إلى خاتمته. خلال السنتين المنصرمتين، كسب تايلور ما يعادل الدخل السنوي الذي يجنيه سبّاك متواضع الحال. الحق أن في الطبيعة البشرية جانبًا غير عملي، مستعدًا لبذل



مكتبة ياسمين

تضحيات كبيرة كرمى لمهمة ابتداع أشياء أكثر جلالًا وذكاء مما نفلح في الوصول إليه عادة.

تايلور شقيٌ بحظه. لقد زار في الآونة الأخيرة قرية تقع إلى الشمال من كلوتشستر، حتى يلقي نظرة على روافد نهر كولني. يود أن يكون الماء موضوع مشروعه التالي. وهو يعتزم أن يتَخذ قاعدة لعمله على رصيف مرسى، حيث سيمضي بضع سنين في رسم النهر في مجموعة متباينة من أحواله وحالات متنوعة من الإضاءة. يطرح عليَ سؤالًا: «هل انتبهت إلى الماء يومًا؟ أعني... هل رأيته يومًا مثلما لم تره أبدًا من قبل؟».


مكتبة ياسمين

# الفصل السابع
# خطوط نقل الطاقة الكهربائية

## -1-

في حفل زفاف أصغر أبناء عمومة زوجتي، تحدثت إلى رجل دمث، حلو المعشر، في أواسط العمر، يعمل لصالح شركة كهرباء في اسكوتلندا. كنا جالسين إلى طاولة قريبة من حلبة الرقص نتناول موس الشوكولاته، ويحدّث كل منا الآخر عن صنعته، فقال لي إيان إنه يعمل في تركيب أبراج خطوط الكهرباء في الريف الاسكوتلندي، ويتخذ القرار في شأن أماكن إقامتها وفي شأن تحديد أوزانها ومقاساتها ومقدار ما تستطيع حمله من طاقة وأثقال.

وفي وقت فراغه، كان واحدًا ممن أسسوا «جمعية تقييم أبراج الطاقة الكهربائية»، التي هي مجموعة أشخاص تنظِّم -على الرغم من قلّة مواردها ومن كثرة ما تلقاه من ازدراء- رحلات على امتداد خطوط نقل الطاقة الكهربائية، وتتطلّع إلى زمن يحظى فيه الاهتمام بنقل الطاقة الكهربائية بمكان له ضمن مجموعة الاهتمامات التي يراها الناس


مكتبة ياسمين

مشروعة. ذهب منذ فترة وجيزة مع ثلاثة من أعضاء تلك الجمعية في رحلة إلى اليابان حيث أدهشته رشاقة خطوط الكهرباء الممدودة فوق الوديان العميقة ذات الغابات الكثيفة إلى الغرب من طوكيو. زار جنوب أفريقيا السنة الماضية حيث وجد، كما قال لي، أبراجًا كثيرة ذات بنية غير مألوفة أبدًا. على أقل تقدير، هكذا يمكن أن تبدو لعين أوروبية أو أميركية. وصف برجًا على مقربة من مدينة جوهانسبرغ له أذرع ممدودة على اتساعها من غير قاعدة واضحة، ومن غير قضبان تثبيت قُطرية. لم تسعفني معلوماتي عن أبراج نقل الطاقة الكهربائية في تصوّر ما وصفه لي تصورًا واضحًا.

أشار إيان إلى أن ثقافتنا التي تدعونا دعوة صريحة إلى الالتفات إلى الطيور والكنائس التاريخية، وتُحجم عن إيلاء أبراج نقل الطاقة الكهربائية اهتمامًا مماثلًا مع أن عبقريتها وذكاءها كثيرًا ما لا يقلّان أبدًا عما نجده في المواضيع التي اعتدنا أن تستقطب اهتمامنا وإعجابنا. استشهد بمثال «لوتش آو» في اسكوتلندا الذي هو وجهة سياحية رومانسية جميلة، أهمَ ما فيها خرائب قلعة تيلتشرن العائدة إلى القرن الرابع عشر التي تمرَ بها أبراج كهرباء بقدرة 400 كيلو واط تصل بين محطة الطاقة الكهرومائية في «بين كروتشان» وبين ضواحي مدينة غلاسغو. لكن البطاقات البريدية التي تحمل صور المنطقة وقلعتها تكاد كلها تكون خالية من أية إشارة إلى الكهرباء، إذ يتظاهر المشهد الطبيعي هناك ببراءة كاذبة ولا يبين منه شيء غير تلال عارية وبحيرة صافية على نحو يوافق ما شجبه إيان بقوله إنه أشبه بعقلية «أقزام الحديقة» التي كانت لدى محطمي الالات في القرن التاسع

عشر (كانت حماسته الغاضبة في تصاعد مستمر تحت تأثير كؤوس البراندي).

-2-

سجَل كل منا عنوان الآخر، لكني كدت أنسى هذا اللقاء نسيانًا تامًا. ثم وصلتني بعد ثمانية شهور رسالة، قال فيها إيان إنه يخطط لزيارة إنكلترا في «عطلة عمل» حتى يتتبَع مسار واحد من أهم خطوط نقل الطاقة الكهربائية في المملكة المتحدة، وهو خط مسؤول عن تزويد العاصمة بثلثي حاجتها من الكهرباء وقت الذروة، فضلًا عن اتصال إحدى نهايتيه بمحطة نووية للطاقة الكهربائية على ساحل كنت، واتصال الناحية الأخرى بمحطة فرعية في شرق لندن. سوف يرتحل سيرًا على الأقدام، وبالسيارة. سألني إن كنت راغبًا في مشاركته تلك الرحلة.

وهكذا التقينا ساعة الفجر في صباح صقيعي أواسط فصل الشتاء، وكان لقاؤنا إلى جوار المحطة النووية الجاثمة على شاطئ دنجي نيس. كان كل منا مرتديًا ملابس دافئة، ومعنا سندويتشات وشوكولاته في حقيبتَينا الظهريتَين. وجدنا المحطة في أوج نشاطها مع أن الوقت لا يزال مبكرًا، فهي جاهزة لتلبية المتطلبات الوشيكة لخمسة ملايين سخان وغلاية ماء. بعد سبعمئة وخمسين ألف سنة من امتلاك بني جنسنا ناصية النار، صار المفاعل النووي التمثيل الأكثر ذكاء وتقدمًا لمحاولاتنا لقهر الظلمة. تولِد هذه المحطة 1110 ميغاواط من الطاقة الكهربائية، ولا ينبعث منها شيء غير طنين حاد يبدو كأن ما من شيء يغذيه -خلافًا للصخب المضطرب الصادر عن المحطات العاملة على الفحم أو على البترول- غير المنطق الدقيق الحصين الذي


مكتبة ياسمين

يميّز الفيزياء والكيمياء المتقدمتين.

على أن المحطة كانت في حال مقلقة. القسم الأكبر من أنابيبها المكشوفة قد بدأ يصدأ في هواء البحر الأكّال؛ وقطعة قماش كبيرة مستخدمة في تضميد واحد من أبراج التبريد. الظاهر أنه كان ضربًا من ضروب الحماقة أن يُسمح للإنكليز بإقحام أنفسهم في ميدان الطاقة النووية، فأيَ بشر يمكن أن يكونوا أقل منهم أهلية للعمل في هذا القطاع الدقيق الذي تحكمه قواعد صارمة، وذلك بالنظر إلى قلَة ثقتهم بأية سلطة، وإلى ولعهم بالسخرية، ونفورهم من الإجراءات البيروقراطية. كان واضحًا أن الحكمة تقضي بترك هذا الميدان كلَه بين أيدي الأعراق التوتونية.

ثمة 542 برجًا كهربائيًا وأكثر قليلًا من 175 كيلومترًا من الكابلات بين دنجي نيس وبين نهاية الخط في كانينغ تاون الواقعة في شرق لندن. اتفقنا على أن تستمر رحلتنا يومين اثنين، في حين أن الكهرباء التي تنتقل بسرعة ثلاثمئة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة ليست في حاجة إلَا 0,00058 ثانية كي تجتاز تلك المسافة كلَها. ففي أقل من الزمن اللازم حتى أتخيَل أن هذه الكابلات الثخينة الأربعة، الخارجة من المحطة، ترسل الطاقة إلى قصابي المدينة ومتاجر الأنتيكات فيها، وإلى حضانات الأطفال، تكون قد فعلت ذلك - فكرة جعلها أقلّ قابلية للتصديق ذلك الشاطئ الحجري المقفر الذي تقع المحطة إلى جواره، حيث تكاد أية إشارة إلى الجنس البشري، ناهيك عن المدن الصاخبة، شيئًا في غير محلَه أبدًا.

## -3-

بدأنا السير تحت الخط متخذين جهة الشمال

الغربي. وكان إيان مسرورًا بالإشارة إلى أن الأبراج التي تحمل هذا الخط أبراجٌ من نوع L6، الذي يعتبره واحدًا من أكثر الأنواع جاذبية في البلاد، لأن له قوائم متباعدة وشبكة من قضبان داعمة وأذرع منحنية قليلًا صوب الأرض كأنها تعترف بثقل أحمالها، تلك الخصائص تجعل L6 نوعًا متميزًا عن نموذج L12 ذي القوائم الثقيلة والبنية الأكثر كثافة، ذلك النوع الذي لا يكنّ له صاحبي أيَ محبة.

أخرج إيان من جيبه موسوعة صغيرة لأبراج نقل الطاقة الكهربائية في العالم كله. إنها من إصدارات دار نشر في كوريا الجنوبية؛ وفيها صور لأمثلة كثيرة على أبراج من كل حجم وشكل يستطيع المرء تخيّله. فهمت من هذا أن التصميمات المختلفة الكثيرة لتلك الأبراج لا تقل تنوّعًا عن شخصيات بني البشر أنفسهم، بل إن أعيننا قادرة على تقييم هذه الهياكل الثابتة مستخدمة بعضًا من المعايير نفسها التي نلجأ إليها عندما نقيّم معارفنا الذين هم من لحم ودم. لاحظت في أجناس الأبراج المختلفة تنوّعات توحي بالتواضع أو بالغرور، بالصدق أو بالمراوغة؛ وفي نموذج تبلغ استطاعته مئة وخمسين ألف كيلوفولت ويكثر استخدامه


مكتبة ياسمين

في جنوب فنلندا، لاحظت قدرًا من الإغراء اللعوب في كيفية مدّ العمود المركزي ذراعًا رشيقة حتى تمسك الكابل الذي ينقل الكهرباء. الظاهر أن التحدِّي المسكوت عنه الذي يواجه مهندسي نقل الطاقة الكهربائية هو تصميم برج يمكن، لا شعوريًا، أن يكون موحيًا لنا بامتلاكه ذلك المزيج نفسه من الخصال الجسدية والنفسية، التي يبحث الواحد منا عنها في حبيب أو في صديق مثالي.

مع أنني كنت متأهبًا لمشوار طويل مرهق، لكنني لم أقدم أبدًا من قبل على الوقوف تحت خط الكهرباء، ففاجأني سماع الصوت الحادّ الصادر عنه، وكأن أشرطة من ورق قصديري تعصف بها مروحة فرن كهربائي عصفًا شديدًا. يحمل هذا الخط جهدًا كهربائيًا يبلغ أربعين ألف كيلوفولت، فيطلق تفاعلًا كيميائيًا نشطًا في الهواء الرطب، إذ تتباعد جزيئات النيتروجين والأوكسجين. حملت هذه الظاهرة المعروفة بـ«التفريغ التاجي» إيان على التفكير في زواجه الذي انتهى منذ فترة وجيزة بعد أن دام خمس عشرة سنة. قال لي إنه قبّل أول مرة المرأة التي تركها فجأة منذ شهر واحد، عندما كانا واقفين تحت خط نقل الطاقة الكهربائية الممتد من محطة تورنيس لتوليد الكهرباء وضواحي إدنبره، حيث كان هذا الصوت نفسه من حولهما.

أخبرني إيان إنه أخذ ميغان بالسيارة، في واحد من لقاءاتهما الأولى، كي يريها كيف أن الهواء هناك مشحون بالكهرباء إلى حدّ يجعله قادرًا على جعل جهاز كهربائي صغير يعمل من تلقاء نفسه. أخرج من سيارته مصباح فلوريسانت ورفعه عاليًا فوق رأسه، فتوهّج النور في المصباح عندما اجتذب إليه تيارًا كهربائيًا غير مرئي يحمله الهواء. ظلّت


مكتبة ياسمين

زجاجة المصباح ذات اللون الحليبي الساطع تلقي نورها على الاثنين عندما تعانقا على خلفية سفوح لامرموير المظلمة.

في آخر المطاف، كانت قلة الاهتمامات المشتركة العامل الذي باعد بينهما. هذا ما خلص إليه إيان بإيجازٍ جادٍّ حزين.

وحتى يخفّف من أثر ذلك المزاج الكئيب الناجم عن حديثه، نظر إلى الأعلى مائلًا برأسه إلى الخلف، ولفت نظري إلى أسطوانات صغيرة تشبه السيجار مثبتة إلى الكابلات الناقلة عند نهاياتها المتصلة بالبرج الذي كنا واقفين تحته. قال لي إن مخترعها مهندس من كاليفورنيا اسمه ستوكبريدج، لاحظ في عقد العشرينيات أن ما يحدد طول الكابل الذي يستطيع البرج حمله بأمان هو ميل ذلك الكابل إلى التأرجح تأرجحًا خطيرًا، حتى عندما لا تكون الريح شديدة.

لقد كان إنجاز ستوكبريدج متمثلًا في البرهان على أن من الممكن تخميد هذه الحركة تخميدًا ناجحًا إذا تم تطبيق اهتزاز معاكس للاهتزاز الناجم عن الريح على مقربة من كل برج، شريطة الضبط الدقيق


مكتبة ياسمين

لهذا الاهتزاز. كرّس الرجل لهذا الأمر عشر سنين، وخسر فوقها شيئًا من سلامته العقلية -هكذا كان ظنُّ عدد من زملائه في وقت لاحق- من أجل ابتكار أنبوب مؤلف من ثقلين كبيرين يفصل بينهما نابض له مجال تردّد مختلف عن تردّد اهتزازات الكابل، وذلك حتى يتم ضمان استقرار البرج كلّه. ما أقل اختراعات البشر التي لم تتطلب قدرًا غير متناسب من التضحية وإعمال الفكر.

ومع مضيّنا في رحلتنا، أعلمني إيان بأن خط نقل الكهرباء الذي فوقنا مكوّن من واحد وتسعين حبلًا من كابلات الألومينيوم المجدولة معًا، مثلما تُجدل الحبال؛ وهذا ما يجعله يحتل مكانة مهمة في أقصى طيف الكابلات لأنه عادة ما يجري نقل الأحمال الكهربائية الأصغر حجمًا عبر خطوط مجدولة من عدد أقل من الكابلات. قد ينخفض هذا العدد إلى سبعة كابلات فقط. علمت أيضًا أنه لما كان المقطع العرضي للخط يكشف عن تكوين يشبه تكوين المقطع العرضي لساق نبتة، فإن ثخانات الكابلات المختلفة تحمل أسماء أزهار مختلفة. يدعى كابل الألومينيوم المجدول من سبعة كابلات مفردة «poppy»؛ وأما الكابل المجدول من تسع عشرة حزمة فهو «laurel»؛ ويحمل الكابل المجدول من سبع وعشرين حزمة اسم «hyacinth»؛ في حين يدعى الكابل الذي فيه إحدى وستون حزمة «marigold»؛ ويحمل رفيقه الذي فيه مئة وسبع وعشرون حزمة اسم «bluebonnet». ولسوف نتابع مسيرنا صوب لندن تحت الظلّ المستقيم لكابل cowslip.


مكتبة ياسمين

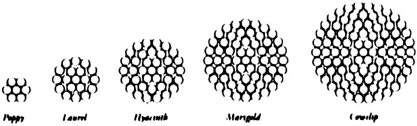


## -4-

أرغمتنا متابعةُ الأبراج على ترك الطرق والمسالك المعتادة كي نتجول وننعطف انعطافات غير متوقَعة في أرجاء المكان، فنجتاز أسيجة ونعبر غابات ونمرَ من تحت قناطر السكة الحديدية. ذكّرنا هذا بجملة كبيرة من الشبكات الأخرى الكامنة كأنها كتابةٌ بهتت ألوانها تحت الطرق والمسالك المهيمنة، طرق السيارات والقطارات: إن المسارات التي ترسمها أنابيب المياه، وخطوط الغاز، وكابلات الألياف الزجاجية، والطائرات، والطرق الرومانية، ومسالك الثعالب، وغيرها، بعيدة كلّها عما تهتم به أعين البشر التي لا تعلم شيئًا عن وجودها إلّا من خلال إشارات خفية أو غير واضحة - صف أعمدة، أو شيء من الروث، أو علبة رمادية شبه مختفية تحت اللبلاب النامي عند أطراف حقل.

في هذه المرحلة من رحلته، ظلّ الخط بعيدًا عن


مكتبة ياسمين

البشر. كان مرئيًا من عدد قليل من نوافذ المراحيض ومرائب السيارات. قد يلمحه المسافرون بالقطار إلى دوفر؛ وقد يراه أحدهم من غرفة نوم في مزرعة بيكني بوش. على أن أبراج الخط لا تفصح عن منطلق رحلتها، ولا عن وجهتها: غموض مألوف في هذا المشهد المبرقش بهياكل صناعية خرساء؛ لكن المرء يأسف عندما يرى لوحة إعلانية مثبتة على واحد من تلك الأبراج كتبها شاعر من شعراء الحياة المعاصرة كان في مقدوره -عبر أبيات معدودة- أن يبوح للمتسكّعين العابرين ببعض من معنى هذا الترحال الكهربائي ووجهته.

في بقعة من غابة كثيفة اسمها غابة «ستوكشيل»، رأينا سيارة حمراء تهتز اهتزازًا عنيفًا. كانت السيارة متوقّفة على طريق فرعية ضيقة، فعلّق إيان قائلًا إن من يرقب خطوط الطاقة الكهربائية عن كثب لا بد، بالضرورة، أن يكون شاهدًا على جوانب كثيرة من الجنسانية البشرية التي لا تجد سبلًا سهلة للتعبير عن نفسها ضمن ضوابط مجتمعنا الذي نعتبره مجتمعًا متحرّرًا.

كان الموت يعن على بالنا أحيانًا لكثرة اللوحات التي تحذر الناس من تسلّق الأبراج، مع أن شواهد


مكتبة ياسمين

أكثر وضوحًا كانت ماثلة في الحيوانات الكثيرة الراقدة تحت تلك الأبراج بعد أن صعقتها الكهرباء. كان واضحًا أن البجع من أكثر تلك الحيوانات تعرّضًا للخطر لأن المشيئة الإلهية لم تبالِ بأن تجعل عيني البجعة إلى جانبي رأسها مما ينتج عنه أنها كثيرًا ما تصطدم، في الظلام أو في الضباب الكثيف، بخطوط الكهرباء أثناء طيرانها بأقصى سرعتها. عادة ما يكون هذا من نصيب قائد السرب وحده لأن بقية السرب تسمع صوت اصطدام الطائر البالغ وزنه اثني عشر كيلوغرامًا بالكابل الكهربائي وهو مندفع بسرعة خمسين كيلومترًا في الساعة. ما تعرفه كلاب المنطقة وثعالبها عن خط الكهرباء كافٍ لأن يبقيها منتبهة إلى ما يحدث عنده؛ بل إنها كثيرًا ما ترقد عند قواعد الأبراج في الليالي المظلمة، حيث لا بد أن يحدث اللقاء المرتقب بين البجعات المصعوقة التي تفجرت رؤوسها وبين الكلاب المتشوقة إليها، تلك الكلاب التي ملّت طعامها المعلّب واكتشفت ما كان يجده أسلافها من لذة في لوك اللحم المدمّى والريش.

لاحظت أن إيان يكثر من قياس المسافات بين الأبراج، مستخدمًا أداة غريبة لها عجلة صغيرة على جانبها. لاحظت كذلك أنه يسجّل بعض الملاحظات في دفتر صغير ذي غلاف من الجلد. رأيت صفحات الدفتر الشاحبة التي عليها سلاسل معادلات جبريّة كان لعجزي عن فهمها فائدة إطلاق حريّتي في الإعجاب بها من زاوية جمالية محض، مثلما قد يعجب الجاهل بنوتة موسيقية أو بجملة مكتوبة بالعربية الفصحى.

$$T/T_H = \cosh\frac{wl}{2T_H} \doteq 1+\frac{w^2l^2}{8T_H^2} \text{ and if } \frac{w^2l^2}{8T_H^2} \ll 1 \quad T \doteq T_H$$



مكتبة ياسمين

لاحظ إيان حيرتي، فقال لي إنه يحسب قوة الجاذبية الأرضية المؤثرة على الكابل، وإن الحرف I في معادلته يمثل مسافة امتداد الكابل بين برجين، في حين يمثّل الحرف w الوزن الفعال لوحدة الطول من الكابل، ويمثل الرمز $T_H$ مقدارًا ثابتًا بالنسبة إلى على طول الخط. أوضح لي أن مهندسي نقل الطاقة الكهربائية ينعمون بأن في متناولهم مفردات عالمية موحَدة شديدة الدقة، يستطيعون من خلالها تمثيل أكثر الحالات الكهربائية تعقيدًا؛ فمن إيران حتى تشيلي، يشير الرمز ψ إلى التدفق الكهربائي، وμ إلى النفاذية، وP إلى كمية النفاذ، في حين يشير á إلى المكافئ الحراري للمقاومة الكهربائية. فاجأني مدى فقر اللغة العادية إن هي قورنت بهذه اللغة، فهي توجب على من يستخدمها ترتيب أعداد كبيرة من الكلمات في جمل صعبة غير سائغة، حتى يستطيع إيصال المعاني التي هي أساسية كثيرًا لكل ما هو متعلّق بشبكات الطاقة الكهربائية. وجدت نفسي أتمنى أن تسير بقية بني البشر على خطى المهندسين، وتتفق على سلسلة رموز قادرة على الإشارة بطريقة لا لبس فيها إلى حالات نفسية مخاتلة تتفلت من بين أيدينا، بل كثيرًا ما تكون مؤلمة لنا: نظام رموز قد يساعدنا على الإحساس بقدر أقلَ من انعقاد ألسنتنا، وبقدر أقلَ من وحدتنا، فيتيح لنا حلَ خلافاتنا من خلال تبادل المعادلات تبادلًا سريعًا صامتًا.

بدا لي أن ثمة كثرة من المشاعر التي قد يكون مفيدًا فيها استخدام هذا الأسلوب في الإيجاز الهندسي الفصيح. فعلى سبيل المثال، إذا استطعنا الاتفاق على أن حرفًا بعينه يشير إلى تلك الرغبة الغريبة التي يحدث أحيانًا أن يجدها أحد الناس،


مكتبة ياسمين

الرغبة في استدرار حب أشخاص لا يثيرون لديه أي إعجاب خاص (لنقل إنه الحرف β)؛ أو الانزعاج الذي قد يحسّه الواحد منا عندما يبدو معارفه أشدَ منه قلقًا على صحته (ω)؛ أو ذلك الإحساس الأكثر غموضًا الذي يمكن أن يجعل المرء كأنه في زمنين متعايشين معًا، فلا يكون عليه إلَا أن يعود إلى بيت طفولته، حتى يجد كل شيء مثلما كان في زمن مضى، لم يمت أحد، ولم يتغيّر شيء (ζ). إن امتلك المرء نظام الترميز هذا، فسوف يكون قادرًا على «ضغط» ما يحسّه بعد ظهر يوم أحد عادي من قلق، ومن توق غامض، ضمن صيغة رياضية واضحة لا لبس فيها (+ β 2 × ζ + ω)، فيحظى بعطف أصحابه الذين من حوله بعد أن كانوا عاجزين عن إدراك ما به.

-5-

تابعنا السير إلى كانتربوري. نصحنا كتيّب الدليل السياحي بإلقاء نظرة على كاتدرائيتها وعلى أطلال قصرها الروماني، لكننا خالفناه واتجهنا إلى حي سكني يقع في ضواحيها الشرقية الشمالية. لقد أصرَت السلطات على أن يمرَ الخط في ذلك الحي لعدم رغبتها في ترك الحداثة تعتدي على مظهر وسط المدينة المنتمي إلى العصور الوسطى. كان غريبًا أن أرى تلك الأبراج التي كانت، قبل كيلومترات معدودة، متتالية في غابات معزولة، لكنها صارت الآن واقفة في أفنية البيوت وحدائقها، مندمجة في الحياة العائلية كأنها غريب دخل البيت منذ لحظات فقط، فوجدهم يطلبون منه مساعدتهم في حمل المكنسة الكهربائية إلى الطابق العلوي. حبال غسيل مربوطة إلى برج، ودرَاجة طفل تستند إلى برج آخر. الكهرباء الذاهبة إلى ساحة ترافالغار


مكتبة ياسمين

تسير من فوق مجموعة كراسٍ، ومن فوق موقد لشيّ اللحم تقشّرت سطوحه.

إلّا أن الخط لم يلبث أن عاد إلى البرّية بعد ثمانية أبراج فقط. يعبر غابة كلاوز الشاسعة، ثم ينعطف غربًا صوب مستنقعات مصب نهر التايمز. سرنا في المطر ثلاث ساعات إلى أن أوصلنا الخط إلى أطراف بلدة سيتينغبورن حيث قرّرنا التوقف أملًا في العثور على شيء حلو نأكله. كانت البلدة مكانًا اختار فيه الجميع المهنة نفسها -قصّ الشعر وتصفيفه- يصعب تفسير هذا، لكنه كثير الحدوث في المجتمعات الصغيرة. كانت نتيجة هذا أن بدا القسم الأكبر من تلك المشاريع واقفًا على حافة الإفلاس. ابتسم لنا الحظ، فعثرنا على مقهى عليه إعلان يقول إن فيه حلوى منزلية الصنع مع شيء دعوه «جوّ العالم القديم». اتخذنا مجلسًا لنا في عمق الصالة. كم ينبغي أن يكون المرء سمِح النفس حتى يكون في مكان كهذا، من غير أن يأسف لوجوده. أتت امرأة على رأسها طرطور ذو مظهر تاريخي ومعها إبريق شاي. قالت لنا: «سأترك واحدًا منكما يقوم بدور ماما». كان هذا كفيلًا بإبقائنا، أنا وإيان، مُحجمين عن المبادرة إلى صب الشاي.

دخلت المرأة المطبخ، واختفت تاركة خلفها فتاة بدا لنا أنها ابنتها. شابة في أواخر سن المراهقة على رأسها طرطور تاريخي مثل طرطور أمها. كانت تكنس الأرض وقد ارتسم التصميم على وجهها. كان ذلك جميلًا. على الرغم من جسامة ثقل ما يحمله قرنان من فنّ رومانسي، ومن أغنيةٍ تجسّد الرغبة في الفرار من ظلمة البلدات الصغيرة، تظل سيتينغبورن بالنسبة إلى هذه الفتاة خصمًا لا سبيل إلى التغلّب عليه، فعناده يشبه عناد بقعة الحساء


مكتبة ياسمين

المتصلّبة التي كانت تبذل كل جهدها لنزعها عن الأرض بمكنستها. كان كفاحها هذا تمثيلًا لمعركة خاسرة أكبر نطاقًا في مواجهة قوى الممانعة التي تعترض حياتها.

شربنا الشاي، ودفعنا الفاتورة، ثم تابعنا طريقنا إلى بلدة لوَر هالستو، حيث داهمنا ظلام الليل المتزايد فنزلنا في غرفتين في فندق قائم إلى جوار واحد من أبراج الطاقة الكهربائية. كانت تلك ليلة غير مريحة. حاولت النوم، لكن نتيجة محاولاتي لم تكن إلّا إصابتي بحالة من أرق عنيد. على أن إرهاقي الشديد ظلّ حائلًا بيني وبين النهوض من الفراش. عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل أضأت نور المصباح واتخذت قرارًا رسميًا بأن أقرأ حتى مطلع النهار. وجدت صعوبة في التوفيق بين يقظتي وبين النتائج المترتبة على بقائي مستيقظًا. لم أستطع التركيز على أي شيء، فنظرت في درج الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير. وجدت في الدرج بروشورات كثيرة. من غير هذه البروشورات، يمكن أن يظنَ المرء الفندق نكرةً بين الفنادق، لكني اكتشفت أنه جزء من سلسلة فندقية لها فروع في أربعة وثلاثين بلدًا. وعودَ سخية بأن يحظى المرء بالخدمة والرفاهية المتوفَرتين هنا في أماكن بعيدة، من بينها الدانمارك وفنزويلا. كان نتيجة هذا أن بدا لي العالم أصغر حجمًا وأسوأ حالًا.

على الأقل، كانت مبعث راحة للنفس معرفة أن كل واحد من هذه الفنادق متصل بشبكة كهربائية. ففي تلك اللحظة عينها، يستمدّ فندق شقيق في بوخارست الطاقة من محطة -قد تكون محطة الطاقة النووية في سيرنافود- بغية تشغيل البرادات الصغيرة في غرفه البالغ عددها اثنتين وأربعين.

ينير فندق آخر في الأورغواي ملعب الغولف الصغير العامل على مدار أربع وعشرين ساعة بتيار كهربائي تنتجه المحطة الكهرمائية في سالتو غراندي. وأما الفندق الجبلي الذي في التيرول، فقد ظهرت صورة برج كهربائي ذي شبكة متينة من القضبان الداعمة متلطيةً عند زاوية من صفحة البروشور. خلصت إلى أن الحياة المعاصرة ليس فيها إلّا قلة من الحالات المقلقة التي لا يستطيع المرء فيها أن يتخلَص من مخاوفه عن طريق التفكير في المصدر الذي تأتي منه الكهرباء.

هبَت عاصفة في الخارج. صار الخط في تلك المنطقة المستنقعية جديرًا بالإعجاب، إذ ظل واقفًا في الظلمة متزنًا ثابتًا تحت وقع رياح بحر الشمال. أضيء مصباح كهربائي وحيد في الحديقة عند آخر البركة التي كست سطحها أوراق الأشجار المتساقطة. تأرجح المصباح في الريح كأنه رمز واضح مريح للصبر على الشدائد. فكَرت في اللافتات التي أظنها لا تزال مضاءة في هذا الجزء من مقاطعة كنت، أمام محطات الوقود والفنادق على الطرقات والمتاجر التي تبيع طعام الحيوانات الأليفة ومستلزمات الحدائق.

فكَرت أيضًا في لا مبالاتنا إزاء الشبكة الكهربائية. فالبشر الوحيدون الذين يستحقون أن نكون ممتنين لهم ماتوا -على الأرجح- منذ زمن بعيد، في الخمسينيات، لأنه يندر أن يُعجب المرء بتكنولوجيا نشأ عليها منذ طفولته. إن مكانة المصباح الكهربائي تعتمد على ذكريات قديمة عن الشموع، مثلما تعتمد مكانة الهاتف على ذكريات الحمام الزاجل، وتعتمد مكانة الطائرة على ماضي السفينة البخارية. يوحي هذا بأن تاريخ التكنولوجيا ينبغي أن يتحدد لا بما


مكتبة ياسمين

يظهر من ابتكارات جديدة فحسب، بل أيضًا بما تم نسيانه منها. أي عندما تغيب الابتكارات من الوعي الجمعي لشدَة ما تصير مألوفة لدى الناس فتبدو أمورًا عادية لا تميّز فيها، مثلها مثل حصاة أو غيمة.

لا أستطيع القول متى انتهى هذا التيار من أفكار لا بهجة فيها ولا معنى لها؛ لكني استيقظت فوجدت الفجر قد سبقني، ووجدت نفسي جالسًا على الكنبة متدثرًا بمعطفي وفي حضني نسخة من البروشور مفتوحة على صفحة فيها صورة فندق على سفح جبل في أندورا، لا شك عندي، تقريبًا، في أنه يستمد الطاقة من محطة التوليد الكهرومائية القريبة من لا ماسَانا.

## -6-

غادرنا الفندق في ساعة مبكرة وعدنا إلى خط الكهرباء. كانت الظلمة شديدة إلى حدَ يحسب معه المرء أن النهار قد صرف النظر عن المجيء. وعلى امتداد الطريق، كان ضوء المصابيح يتراقص كأن الحساسات الأوتوماتيكية التي فيها ممزقة بين احترام التوقيت الذي صار مؤذنًا ببدء نهار جديد، وبين الانحناء مذعنة أمام حقيقة أن مستوى الضوء الذي تتلقاه لا يزال متدنٍ إلى حدٍّ كبيرٍ.

تقاطع مسارنا مع مسار الطريق الرومانية القديمة الداخلة إلى لندن. لكننا لم نتجه مباشرة إلى داخل العاصمة، بل تابعنا تجوالنا عبر بلدات منطقة ميدواي، غيلينغام وتشاتام ورودتشستر. لم يعد الأفق متسعًا لأن المدن والبلدات صارت هنا متلاصقة، كأن كل واحدة منها متسرِبة إلى التي تليها، فبات صعبًا تحديد نهاية هذه أو بداية تلك. مررنا بمراكز ركوب الخيل، وبمدارس لطب العظام، وبأضرحة تذكارية مزينة بالزهور تخلد ذكرى شبان

لهم شعر مسرّح بالزيت، وشابات لهن عيون مذعورة متوسّلة. لافتات شديدة الادعاء معلّقة على واجهات بعض المتاجر -«قل لنا ما تريد، نحن مستعدون»، ولافتات أخرى ناطقة بذلك الإيجاز الشعري الموحي بمكائد صالحة لأن تُبنى عليها دراما مسرحية: «غسل سيارات: إدارة جديدة أفضل من السابقة». وعند مركز لغسل الملابس في تشاتام، أكلنا سندويتشاتنا ونحن نشم رائحة تجفيف الملاءات المغسولة، وهمهمة الآلات.

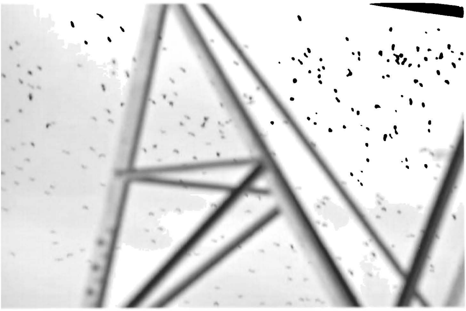

بعد ذلك، عبر الخط بلدة وورثهالينغ، ثم مرّ بمنطقة سكنية مقامة على نمط يحاكي نمط البناء الجورجي، حيث انتبه إيان إلى ثلاثة بيوت تنتصب أمامها طواحين هواء صغيرة مصنوعة من نحاس. ذكّرته رؤية الطواحين بكتاب هولندي كان يُكثر من استعادة الفكرة الرئيسية التي يعبّر عنوانه عنها: « *De Schoonheid van hoogspanningslijnen in het hollandse landschap*». إنه عمل من تأليف اثنين من الأكاديميين من جامعة روتردام، آن ميكي بيكر وآريا دو بود. كان كتاب «*جمال خطوط الكهرباء في المشهد الطبيعي الهولندي*» دفاعًا عن مساهمة هندسة نقل الطاقة الكهربائية في الجاذبية


مكتبة ياسمين

البصرية التي تشتهر بها هولندا؛ فهو عمل يحاول لفت الأنظار إلى العظمة -التي كثيرًا ما يتجاهلها الناس- التي يوحي بها مشهد الأبراج في مساراتها من محطات توليد الطاقة إلى المدن. على أن أكثر ما يثير اهتمام إيان كان كامنًا في ما يطرحه الكتاب عن تاريخ العلاقة بين هولندا وطواحين الهواء. تشدّد هذه الأطروحة على أن الناس كانوا يشعرون بأن تلك المنشآت الصناعية المبكرة (طواحين الهواء) لها ما لأبراج الطاقة الكهربائية الآن من صفات غريبة توحي بالخطر، ولم يكونوا يلمسون فيها ملامح السحر اللعوب التي صار المعاصرون يرونها. كانوا يدينونها من على المنابر؛ بل كثيرًا ما عمد القرويون المتشككون إلى حرقها وتسويتها بالأرض. في جزء كبير منها، كانت إعادة النظر في أمر طواحين الهواء نتيجة عمل الرسامين الكبار «خلال العصر الذهبي الهولندي» إذ تأثروا بما رأوه من اعتماد بلادهم على هذه المنشآت الدوارة النافعة، فاحتفظوا لها بموقع الصدارة في لوحاتهم مهتمّين أقصى اهتمام بإظهار أفضل خصائصها التي من بينها الثبات في وجه العواصف، ولمعان أجنحتها في شمس بعد الظهر. أعمال من بينها «*قلعة البرج في أمستردام*» لأبراهام فونيريوس، و«*طاحونة في حي قريب من مدينة ثرية*» لياكوب فان روزديل، هي ما جعل الهولنديون يخصّون هذه الآلات التي تهبهم الحياة بقدر وافر من الاحترام، ومن الاهتمام الجمالي.

انتهى إيان إلى القول بأنه قد يكون من مهمة الفنانين في زماننا أن يبينوا لنا كيف نميّز فضائل منجزات التكنولوجيا المعاصرة. وقد تمنى أن تُعلّق صور النواقل الكهربائية -في المستقبل- فوق طاولات الطعام، وأن يكتب واحد من الناس كلمات


مكتبة ياسمين

أوبرا تكون شبكة الطاقة الكهربائية موضوعًا لها.

أخيرًا، مضى خط الأبراج الكهربائية شاقًا طريقه إلى لندن عبر حقولٍ تعصف بها الريح تقع إلى الشرق من سوانزكومب، ثم تابع سيره مجتازًا نورثفليت حتى وصل إلى ضفاف نهر التايمز. وهناك، على مقربة من ملعب كبير لكرة القدم، صادفت الأبراج أكبر عقبة طبيعية في مسارها حتى الآن: اجتياز مسافة ألف وثلاثمئة متر من فوق تلك المنطقة من النهر التي تعلو فيها مياه المدَ. بغية الحيلولة دون تدلَي الكابلات تدلّيًا خطيرًا عند اجتيازها هذه المسافة الكبيرة، مسافة تستدعي، في الأحوال العادية، إقامة ثلاثة أبراج. ولما كانت حركة الملاحة المزدحمة في النهر تحول دون إرساء قواعد الأبراج في مجرى الماء، لم يبق متاحًا أمام البرجَين الأكثر قربًا من الضفتَين غير خيار واحد: أن يزدادا علوًّا حتى ارتفاع مئة وتسعين مترًا، أي أعلى من بناية شاهقة مكوَنة من أربعين طابقًا. مصباحان أحمران قانيان في أعلى البرجين مرئيان عبر الضباب. كان اعتزازنا كبيرًا بأن نرى هذا الخط الذي عرفناه منذ زمن قادرًا على اتخاذ هذه الخطوة الجريئة.

على أن هذا العناء لم يكن له أن يلقى مكافأة


مكتبة ياسمين

منصفة لأن الخط لا يلبث -بعد أن يعبر إلى الضفة الأخرى- أن يمضي عبر منطقة ملؤها مستودعات وخزانات وفنادق رخيصة، يتشدّق واحد منها بأن لديه ثلاث قنوات تلفزيونية إباحية وإطلالة على جسر الملكة إليزابيث.

حان وقت الغداء، ففكرنا في متاجر بيع المأكولات في مركز التسوق في ليكسايد. لكن إيان قال إننا، إن تابعنا السير، سنجد الخط مارًا بمحاذاة محمية للطيور في رينام مارشيز. هذه المحمية من أملاك الجمعية الملكية لحماية الطيور، وهي محطة استراحة مهمة تؤمها أجناس الطيور المهاجرة وفيها مركز للزائرين افتتِحَ منذ أمد قريب. يقدّم هذا المركز حساء القرع وحلوى بالجزر، صنفان هما عماد كافيتيريات المؤسسات «ذات التفكير السامي» في العالم كله.

ولكن، على الرغم من الكرسي المريح، ومشهد منطقة المستنقعات المفتوح أمامنا، وعلى الرغم من رحلتنا الطويلة التي انتهت بجلوسنا على هذه الشرفة القريبة من طيور الحسون ذات المناقير المتصالبة، فقد وقع إيان فريسة حالة مزاجية سيئة. في كل مكان من حولنا، كانت ظاهرة معالم


مكتبة ياسين

ثراء جمعية مراقبي الطيور وازدهار أحوالها: لديها إصدارات منشورة باسمها، ومتجر للهدايا، فضلًا عن أنها تتاجر بمناشف المائدة. على مقربة من آلة القهوة، مجسّمٌ من البلاستيك لطائر أبي الحناء له عينان متوسّلتان تستحثّان الزائرين على إلقاء قطع نقدية عبر شقّ في رأسه. استغلت الجمعية هذه الفرصة البسيطة، فرصة إعجاب الناس بالطيور، وأفلحت في تحويلها إلى نشاط تجاري مربح لا يفوته أن يزعم لنفسه -وإن كان ذلك زعمًا خفيًا- تفوقًا أخلاقيًا على أي شكل آخر من نشاطات تزجية الوقت. لقد قامت بعمل أصيل من أعمال الثقافة: تناول واحد من الاهتمامات المعزولة التي لا صيغة رسمية لها، وتحويلَه إلى لغة عامة محترمة.

كم كانت «جمعية تقييم أبراج نقل الطاقة الكهربائية» قليلة الشأن إن هي قورنت بهذه الجمعية. لا يتجاوز أعضاؤها حفنة صغيرة؛ وليس لديها كافيتيريا؛ ولا تكاد تستطيع تحمّل نفقات توزيع نشرة إخبارية عن نشاطاتها. نتيجة هذا، تظلّ أية استجابة متعاطفة مع نشاط جمعية إيان وليدة مصادفات عارضة أو دوافع غير مؤكّدة، قد تتجلّى للمرء مدة دقيقة واحدة أثناء انتقاله على الطريق السريعة أو عند سيره على امتداد قناة مائية. لكن هذه المصادفات لا تخلق أية مكانة اعتبارية لخطوط نقل الطاقة، وليس مرجوًا منها أن تدرَ منافع كثيرة.


مكتبة ياسمين

في مقالة حملت عنوان «الشاعر»، ظهرت سنة 1844، يأسف الكاتب الأميركي رالف والدو إيمرسون لضيق تعريف الجمال لدى أقرانه الميالين


مكتبة ياسمين

إلى قصر استخدام هذا التعبير على المناظر الريفية، والمشاهد الطبيعية النقية، التي احتفت بها أعمال الفنانين والشعراء المعروفين في الماضي. على أن إيمرسون نفسه، الذي كان يكتب في فجر العصر الصناعي، يلاحظ مهتمًا توسّع انتشار السكك الحديدية والمستودعات والمصانع، ويتمنى إفساح متّسع لإمكانية وجود أشكال بديلة للجمال. لقد أقام تعارضًا بين من يحنون إلى الشعر التقليدي ويتمسّكون به، وبين من يعتبرهم أرواحًا شاعرية معاصرة حقيقية، ويرى أنهم يستحقّون هذا الوصف، لا مقابل ما أنتجوه من كتابات، بل مقابل استعدادهم لتناول العالم من غير تحيّز أو مواقف مسبقة. يقول إيمرسون جازمًا إن المعسكر الأول «يرى سكة الحديد والمصنع، فيعتبر أنهما يفسدان جمال مشاهد الطبيعة. وذلك لأنهما لم يفلحا بعد في حيازة موقع لهما في أفهام أهل هذا الزمان. وأما الشاعر الحقّ فيرى أن لهما مكانًا في نظام الطبيعة العظيم مثلما يكون فيه مكان لخلية النحل، أو لشبكة العنكبوت ذات البنية الهندسية الدقيقة. الطبيعة قادرة على تبنّيهما بسرعة كبيرة، وعلى ضمهما إلى دوائرها الحية، وقادرة على محبة سلسلة عربات سائرة على سكة الحديد كأنها من جملة بناتها».

-7-

بدأ خطّنا يواجه مشكلات. في المناطق الريفية المفتوحة، كثيرًا ما كان يتمتع بأن يكون فيه اثنا عشر برجًا، أو أكثر، على استقامة واحدة. لكن تزايد كثافة المدينة جعل العقبات تنتصب أمامه في كل حين. فحتى يضع أقدامه على الأرض، صار عليه هنا أن يتحلّى ببراعة رجل ضخم الجثة يحاول السير


مكتبة ياسمين

على سجادة تناثرت عليها أشياء كثيرة. صار كأنه يسير على رؤوس أصابعه من حول خزانات الغاز وخطوط القطارات، ويتوقَف حتى يسمح بمرور أقنية الصرف، ويجثو كي يتفادى أجنحة الطائرات المنطلقة من مطار سيتي. على مسافة أميال معدودة من قلب لندن، في منطقة صناعية تضم شركة لاستيراد أحواض الجاكوزي، وأخرى لصنع الكيك، قرَر خط نقل الطاقة الكهربائية أن يختفي تحت الأرض وألَا يظهر فوقها بعد ذلك.

أليس مفاجئًا ألَا يكون هناك أي مظهر احتفالي يرافق هذه اللحظة، ولا ترحيب من جانب التلال الجيرية، والمراعي الممتدة، وحدائق البيوت في كانتربوري، والإوزات السابحة في البحيرات المستنقعية في كنت. قبل أن تدخل الكهرباء مقاطعة مدينة لندن، لا بد من «ترويضها» عبر سلسلة من النواقل المصنوعة من البورسلان، وخراطيم مقوَسة، وأجسام على هيئة أعمدة ذكَرتني بالأدوات الشعائرية المستخدمة في الطقوس السماوية في قبيلة بدائية. رأيت في نهاية واحد من تلك الأعمدة الطويلة أنبوبًا مطاطيًا ثخينًا أسود اللون يستقبل الطاقة التي يحملها الخط كلَه بعد أن تمت «تهدئتها»؛ ورأيت ذلك الأنبوب داخلًا، من غير احتفال، في حفرة صغيرة في الأرض لا يكاد يعلم عنها شيئًا أحدُ من المستخدمين النهائيين البالغ عددهم خمسة ملايين.


مكتبة ياسمين

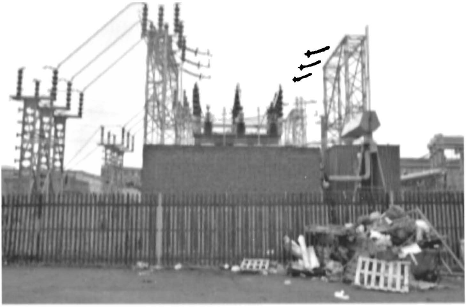

كان على إيان أن يلحق بالقطار. باح كل منا للآخر بما لديه من أسف غير متوقَّع لانتهاء هذه الرحلة ومجيء لحظة الوداع، لأن إحساسنا كان يقول لنا إننا عشنا معًا تجربة يصعب أن نجد من يفهمها إن أحببنا الكلام عنها.

إنه ظهور جديد متواضع: صار الخط الآن متّجهًا إلى محطة فرعية مختفية عند جادة شافتزبوري خلف مطعم صيني متخصّص في تقديم بط شيزوان مع الفلفل. ومن هناك، تتوزّع الكهرباء على محلات التجميل في نوتس في شارع أكسفورد، وعلى آلات المحاسبة في متاجر طريق توتنهام


مكتبة ياسمين

كورت، وعلى مقر شركة بريتيش بتروليوم في ساحة سان جيمس، وعلى لافتة عند نادٍ في شارع برؤر تعلن عن خدمات تقدّمها مجموعة من الراقصات الإستونيات في واحد من الأقبية هناك.

في مساره تحت الأرض، ينقسم الخط إلى خطوط أقل قوة، من أربعمئة كيلوفولت إلى توتر متوسّط قدره 275 كيلوفولتًا، ثم يبلغ الشوارع السكنية فينخفض من جديد إلى 132 كيلوفولتًا قبل أن تخرج الكهرباء من المقابس وقد فقدت شدتها الأولى وصار توترتها 240 فولتًا. وفي مروره، يظهر التيار الكهربائي قدرًا عظيمًا من السخاء: إنه يعفي مستهلكيه من مشقة التفكير فيه ويضمن لهم ألَا يجد أيٌ منهم نفسه في حاجة إلى التأمل في سلسلة الأبراج المعدنية الضخمة، وتتبعها عائدًا إلى أصولها في ذلك المكان المقفر على الساحل الجنوبي حيث محطة الطاقة الكهربائية الضخمة الجاثمة على شاطئ حجري، صابرةً على أمواج القناة الإنكليزية العاتية وعلى ريح البحر الأكَالة، مطلقةً همهماتها الخفيضة من غير انقطاع.

# الفصل الثامن
# عالم المحاسبة

-1-

إذا وقفت موليًا برج لندن ظهرك، ناظرًا عبر النهر، فقد تنتبه إلى مجموعة جديدة من مباني المكاتب مصطفَة عند الضفة الجنوبية. استغرق بناؤها ستة شهور فقط، لأنها مكوَنة من أطر فولاذية يكسوها غلاف بسيط من زجاج مموَه - لكنها لا تبدو منتمية إلى المدينة انتماء تامًا لأن فيها نظافة غير معهودة، ولأنها غير متأثَرة بالتاريخ المحيط بها. يبثَك هذا المشهد إحساسًا «غير محلَيٍ» بتفاؤل أكثر تلاؤمًا مع مدن من أمثال تورنتو أو كليفلاند. وإلى جهة الشرق من هذه المباني، في ساحة عامرة بأشجار ونوافير يعتني بها أهل تلك المنطقة ويحافظون عليها بأنفسهم، جماعات من تلامذة مدارس أجانب تصل بالباصات لالتقاط صور النهر، في حين يجلس موظفون وموظفات ممن حلت علَيهم نعمة نادرة فلم يتأخر القطار، أو لم تكن الطرقات مزدحمة، وينظرون في الرسائل التي أتت إلى هواتفهم منتقلة انتقالًا غير مرئي عبر هواء الصباح المتلألئ.

العلامة الوحيدة التي تشير إلى بلوغ المرء مقر الإدارة الأوروبي التابع لواحدة من أكبر شركات المحاسبة في العالم، هو شعار غير بائن كثيرًا على قمة واحد من تلك المباني البرجية. على الرغم من هذا الـ«تكتم»، يتيح المبنى للعابر الفضولي إلقاء نظرة غير مقيَدة على ما يجري في الداخل. يبدو العاملون هناك أكثر انتباهًا إلى أنهم قادرون على النظر إلى الخارج عبر تلك النوافذ من حقيقة أن من في الخارج يستطيعون النظر إليهم أيضًا، فهم


مكتبة ياسمين

يريحون أقدامهم المحشورة في أحذيتها على صناديق محابر آلات الطباعة، ويقفون عند النوافذ كي يتناولوا وجبة الغداء من غير اكتراث بغيرهم، ويدورون يمنة ويسرة على كراسيهم، ويتحلّقون لإجراء تمرينات جماعية غامضة، ويكتبون رموزًا على ألواحٍ بيضاء في صالات تغصّ بزملاء يبدو على وجوههم أشدّ تركيز - مسلكهم كلّه يجري من خلف نوافذ ذات ثلاث طبقات من الزجاج، فيبدون كأنهم ممثلون في فيلم صامت ترافقه موسيقى زعيق النوارس والزوارق العابرة في النهر وريح تهبّ من ناحية الشرق.

وعند دخول المبنى، تقابل المرء ردهة مصمّمة بحيث يميل رأس كل قادم جديد خلفًا -لا محالة- كي تتابع عيناه تتالي الطوابق صعودًا كأنها تمضي إلى اللانهاية، فيحسّ احترامًا لا بد منه إزاء تشييد هذا المبنى العملاق وإدارته، تمامًا مثلما كان بناة الكاتدرائيات ينتظرونه من زائري صحون الكنائس ذات السقوف المقبّبة. على أن الأمر في هذا المكان مختلف عما هو في كاتدرائية تشارتر، لأن ما يتعيّن إجلاله هنا ليس واضحًا. لعله العمل


مكتبة ياسمين

الدؤوب، والدقة، والاندفاع، وما تتسم به عمليات التدقيق المالي من تشابكٍ وتعقيدٍ مدهشين. تعلن لوحة مثبتة إلى جدار، «نحب الناس الذين يتَّصفون بالاستقامة والحماسة والطاقة».

احتكامًا إلى عدد الأشخاص الجالسين على الأرائك الحمراء في الردهة، يمكن القول إنه ليس من المستغرب هنا بقاء المرء منتظرًا عندما يأتي في موعد، وذلك حتى تنطبع في نفسه (خفيةً) أهمية من سوف يستقبله في واحد من الطوابق العليا. منطقة الاستقبال جاهزة لطقس الدخول القصير المتمثل في مناولتك بطاقة تعريفية وتوجيهك إلى الأرائك مع وعد بألَا يطول انتظارك كثيرًا. وعدٌ هشٌ لا تستطيع الركون إليه. ليست هذه الموظفة بأقل من كاهنات معبد دلفي إدراكًا لأهمية دورها. هنا وهناك، صحف مجانية وقوارير مياه عليها اسم الشركة. يبدو الانتظار كأنه واحد من أقدم نشاطات بني البشر، إذ يعود تاريخه إلى السيناتورات الذين كانوا يذرعون صالات القصر الإمبراطوري في روما القديمة، والتجار المصطفين لرؤية الخلفية في قصره المرمري في قرطبة إبَان العصور الوسطى. وفي الخلفية، مجموعة مصاعد ترن أجراسها من وقت إلى آخر ويخطر الحرَاس الأمنيون أمام أبوابها مترقبين حدوث مواجهة تقطع ضجر يومهم.

على غرار ما يحسّه المرء في عيادة طبيب، يمكن أن يغريه هنا النظر إلى زملائه من الزائرين المنتظرين، والتساؤل في سرّه عن المشكلات التي أتت بهم إلى هذا المكان. من المستبعد أن يقدّموا إجابات واضحة، فالناس لا يأتون إلى المحاسبين لمعالجة الحالات السطحية في الحياة. بل إن عمل المحاسبين نفسه لم يظهر إلى حيّز الوجود إلا


مكتبة ياسمين

في مرحلة متأخرة من تاريخ قطاع الأعمال بعد أن اجتمع ملايين الناس في المدن وتوزعوا على قطاعات كثيرة - فحتى ذلك الوقت، كانت المحاسبة لا تشغل إلّا لحظات عارضة معدودة يمضيها المرء مع دفاتر الحسابات في غرفة خلفية تنيرها الشموع. يبدو أن ظهور الاختصاصيين الماليين المتفرغين -ممن لا يعرفون كيف يصطادون الأسماك، أو يبنون البيوت أو يخيطون المعاطف، لكنهم جاهزون للإجابة عن الأسئلة المتّصلة بمعدلات الإهلاك والعائدات المعيارية على الاستثمارات والضرائب المترتبة على التعاملات- تتويجًا لتاريخ طويل من تقسيم العمل بدأ في مصر القديمة قبل ثلاثة آلاف سنة فصار عملهم الآن -في واحات مثل هذا المكان، على الأقل- يدرّ أرباحًا كبيرة ترافقها آثار نفسيّة جانبيّة متميّزة.

يبدو كل ركن في مبنى المحاسبين أنيقًا، معتنى به. لا نرى هنا شيئًا من أنسجة العناكب التي يكثر وجودها في العالم الذي ألِفناه. يجتاز الناس الممرّات والمعابر المرتفعة بخطى ملؤها العزم. خمسة آلاف موظف يتوزعون على أقسام لها أسماء من قبيل «التدقيق المالي»، «الضرائب»، «الأعمال المصرفية»، «أسواق المال»، «العقارات»، و«الخدمات الاستشارية الخاصة بالمخاطر المالية». يساعدهم في عملهم كادر الدعم المكوّن من مئتي شخص يهتمون بإصلاح الكراسي، وتقديم البسكويت أثناء الاجتماعات مع العملاء، وإعادة توجيه الإيميلات، وتوزيع البطاقات التعريفية. متجر للقرطاسية في القبو عامر بوفرة لم يحظ بها كهف علاء الدين نفسه. يفخر هذا المتجر بأن فيه ثلاثة آلاف «قلم علام» قادرة على إحاطة الأرض كلّها بخط من حبر أصفر لامع، فيدعوك هذا إلى التفكير


مكتبة ياسمين

في البلدان والمواضع الكثيرة التي ستذهب هذه الأقلام إليها. فمثلًا، يمكن أن يمضي واحد منها عمره في فندق في كييف بعد أن يترك أثره على نقاط غامضة كثيرة، في دراسة تقع في خمسمئة صفحة، تحمل عنوان «*المعدل الوسطي التثقيلي لتكلفة رأس المال في صناعة استخراج النحاس*».

مكتبة ياسمين

في نظر عامَة الناس، قد تكون المحاسبة مرادفًا للعناء البيروقراطي؛ لكن المرء ينظر إليها عن كثب، فيرى أن هذا التجميع للمواهب الرقمية يعرض أمامه حالة عيانية لما في المكاتب من سحر خفي بما تمتاز به من مزيج محيّر من روح الرفقة والذكاء، مع كونها لا ثمار ملموسةً لها. إن هذا المقر الواقع على ضفة النهر مسرح لمجموعة سلوكيات لا تقل فرادة وغرابة عما قد يكتشفه عالم إثنوغرافي لدى القبائل التي في ساموا.

قررت قضاء بعض الوقت في برج المحاسبين الزجاجي هذا، وكذلك في واحد أو اثنين من بيوتهم بغية تكوين صورة عمّا يكونه يوم عملهم المعتاد.

-2-

إنها السادسة من صباح يوم في أواخر شهر يوليو، في قرية تقع في ريف بيركشاير على بعد خمسين كيلومترًا من المكتب. لو قلنا إن «حالة النوم» تبلغ الآن نهايتها المؤلمة تحت وقع زقزقة إلكترونية ملحّة لا ترحم، فإن هذا الوصف لا يكاد يقارب ما كان، في حقيقة الأمر، يجري خلال الساعات السبع الماضية، مع أن واحدة من المحاسبين اللذين حاولت متابعتهما كانت قد غفت، وفقدت اتصالها


مكتبة ياسمين

بذاتها الواعية وهي تتابع برنامجًا إخباريًا محليًا، فحملتها أجنحة بجعات النوم. لعلها كانت مستلقية تحت لحاف في غرفة لا يعكِّر صفوها شيء غير نور متقطِّع تلقيه على السقف مصابيح سيارات عابرة بين فينة وأخرى، لكنها كانت كأنها محمولة في رحلة مضطربة تتخلَّلها وجوهٌ وعواطف وانفعالات غير متوقَّعة.

رأت نفسها عائدة إلى مدرستها الثانوية، جالسة في امتحان الجبر إلى جوار صبي اكتشفت أنه أيضًا -من غير أي تعارض ظاهر بين الأمرَين- واحدٌ من زملائها في «وحدة المنتجات الخاصة بالعملاء الأفراد». ثم رأت نفسها في صف الانتظار في السوبر ماركت حيث كانت الملكة تصيح قائلة إن أحدهم سرق قرطَيها. ثم لم يلبث ذلك كلّه أن تحوَّل إلى لقاء على سفينة مع عاشق لم تره منذ عشر سنين، لكنه حدّثها عن انفصالهما بدقة لا يمكن لعقلها الواعي أن يدركها أبدًا. عجيب كيف نفلح في أن نكون غارقين في هدأة النوم، ذراعٌ أو ساق تتحرَّك هذه الناحية أو تلك، لكننا نرتحل على متون هذه القطارات الشبحية.

بعد أن انطلق رنين المنبه، لم يعد للمحاسِبة من خيار غير أن تقوم إلى الحمام من غير أن تفي رؤاها حقَّها من المتابعة. يوصد الباب أمام التداعيات الحسَاسة والأشواق المستحيلة، وتستجمع النفس شتاتها فتصير وحدة متماسكة في الظاهر لها التزامات ثابتة ومستقبل مرسوم. لكن المحاسبة تحسَ، بضع لحظات في غبش الفجر، أنها لا تزال تضع إحدى قدميها في هذا العالم والأخرى في ذاك، إذ يتمسَك جزء منها بالأحلام ويمضي الجزء الاخر صاحيًا إلى فتح الصنبور واستخدام فرشاة الأسنان.


مكتبة ياسمين

لكن الجسر المتحرّك الذي يصلها بالليل لا يلبث أن يُرفع ولا يعود من حولها شيء غير صوت الماء الجاري، وعبوة شامبو على حافة النافذة مطبوعة عليها بحروف كبيرة، كأنها تأكيد ضمني على أولوية الواقع النهاري، عبارة مألوفة لكنها عجيبة: «ملطِّف للشعر ذو استخدام عامّ». كم كانت الأمّة كلها هادئة منذ خمس وأربعين دقيقة فقط. وكم سيحدث من غسل للشعر، وإحكام لربطات العنق، وبحث عن المفاتيح، وإزالة للبقع، وتصايح بين الأزواج، خلال الدقائق الثلاثين التالية عندما يتكرّر ما يجري في بيت المحاسِبة في مئة ألف بيت آخر ضمن دائرة عملاقة مرسومة حول العاصمة، من فيلكستون حتى آيلزبري، ومن هيسلماير حتى تشيلمزفورد. ينطلق رنين الساعات المنبهة في روتينغدين وهارويتش، ساعات جاثمة على رفوف من خشب الصنوبر، وعلى سطوح مرمرية لطاولات صغيرة إلى جوار الأسرَة، ساعات منبهة تهتز، وأخرى تطلق أصوات المذيعات الحريرية يتحدثنَ عن تفاصيل حركة الأعاصير وتقلّبات أسعار العملات.

بعد الاستحمام وارتداء الملابس، يأتي وقت تناول طبق من حبوب الإفطار يعقبه بحث عن حقيبة اليد والمعطف الواقي من المطر، الذي لا بد منه للسير حتى محطة القطار في هواء الصباح البارد النديّ. ما إن خرجت من بيتها حتى بدا لها أمرًا خارقًا أن يكون العالم الطبيعي موجودًا كعهده، وأن يكون حاضرًا فيه ذلك الهدوء والصفاء من غير أي اكتراث بما يُقلق بني البشر: سماء جديدة أزاحت عن نفسها ما كان فيها يوم أمس من اكفهرار ولم تعد بها أية ضغينة. مظهر جمال بريء قادر على تعزيز أية محاولة يبذلها المرء كي يبحث في نفسه عما لديه من قوة ومزاج حسن.


مكتبة ياسمين

تقول الشاشات في المحطة إن القطار سيصل في موعده، فتسير المحاسبة حتى نهاية الرصيف تحت القناطر الفيكتورية، التي صار مظهر سطوحها إسفنجيًا لتراكم طبقات الطلاء عليها، على امتداد عشرات السنين. تمرّ بإعلانات لمسرحيات في ويست إند، ولرحلات نهارية إلى قلاع تاريخية. تمرّ طائرة فوق الرؤوس. لقد سبق إقلاعها خروج الناس إلى أعمالهم. لعل فيها طفلًا ينظر إلى الأسفل في هذه اللحظة، فيرى عبر إطار النافذة امتدادَ سكة القطار كلها، من الساحل حتى المدينة، ويرى على الأرض قطارًا آتيا من بعيد يتمايل قليلًا إلى هذه الجهة وتلك، تسبقه أنوار مصابيحه، وينبعث الشرر من حول عجلاته. يظهر القطار الأخضر لأعين المنتظرين مطلقًا صوب الأفق الواسع صفارته الشبيهة بصفارات الألعاب.

ينتاب المرء عندما يدخل العربة إحساس من يقاطع قدّاسًا. يهاجم الهواء البارد المندفع من الأبواب أحلام اليقظة، التي لا بد أن تكون قد بدأت منذ مسافة بعيدة وتنامت عابرة حقول القمح. لا يرفع المسافرون الجالسون رؤوسهم ولا يبادر أيٌ منهم غيره بإشارة واضحة تُنبئ بأنه يراه.


مكتبة ياسمين

لكن انتباههم إلى دخول مسافرة جديدة لا تلبث أن تفضحه مسارعتهم إلى تعديل وضع أطرافهم بحركات سريعة بارعة، حتى يسمحوا لها أن تشقَ طريقها متجاوزة إياهم إلى واحد من المقاعد التي لا تزال شاغرة. يتحرّك القطار متابعًا سيره ويستأنف قعقعته على قضبان السكة الممدودة منذ مئة وخمسين سنة مضت، عندما بدأت العاصمة تقتلع العمال من أسرَتهم في قرى بعيدة كانت المزارع المحيطة بها، ذات يوم، ترسم أقصى حدود العالم الذي يعرفه سكانها.

بالنظر إلى ما يتَصف به بنو جنسنا من نزعة اجتماعية طبيعية، ثمة شيء غير معقول في الصمت الذي يسود العربة. لكن، ما أهون على أولئك المسافرين أن يتظاهروا باستغراقهم في أمور أخرى بدلًا من أن يكشفوا عن مدى تورَطهم الخفي في تقييم الآخرين من حولهم أو الحكم عليهم، أو إدانتهم، أو اشتهائهم. يبادر البعض بإلقاء نظرات سريعة هنا وهناك. نظرات هاربة كأنها عصافير تلتقط الحبّ وتطير. فقط إذا تدهور القطار، يمكن أن يعرف أيّ واحد من أولئك المسافرين أمورًا عمّن كانوا معه في العربة، أن يعرف ذلك معرفة


مكتبة ياسمين

أكيدة، وأن يكتشف أي جزء من اقتصاد الأمة كان جالسًا على مقربة منه قبل وقوع الحادثة: عمال في الفنادق، وموظفون حكوميون، وعاملون في عيادات التجميل ومشاتل الفاكهة والشركات التي تنتج بطاقات الأفراح.

يقرأ الجميع الصحف. وبطبيعة الحال، ليست الغاية من قراءتها الحصول على معلومات جديدة، بل إغراء العقل بأن يهجر ما فيه من انطواء على النفس ناتج عن أثر النوم. عندما ينظر المرء في الصحيفة فهو كمن يرفع قوقعة بحرية إلى أذنه، فيغمره هدير البشرية. في الصحيفة اليوم ثمة قصة عن رجل غفا خلف مقود سيارته بعد تأخره في السهر ليلًا، لأنه كان يرتكب خيانة زوجية على الإنترنت: خرج عن الطريق عندما كان يعبر جسرًا، فقتل أسرة من خمسة أشخاص كانت في عربة تحته. تتحدّث مقالة أخرى عن طالبة جامعية جميلة ذات مستقبل واعد اختفت بعد أن كانت في حفلة، ثم وجدوا أشلاءها في صندوق شاحنة صغيرة بعد خمسة أيام من ذلك. تورد مادة أخرى تفاصيل علاقة غرامية بين مدرّب تنس وتلميذته البالغة ثلاثة عشر عامًا. المفارقة هي أن هذه القصص الكارثية المجنونة جنونًا واضحًا فيها نوع من السلوى لأنها تساعدنا على الإحساس بأننا لا نزال محتفظين بعقولنا وبأننا في نعمة كبيرة إن قورنت حالنا بحال أصحابها. نستطيع الإشاحة عنها بوجوهنا وعيش إحساس جديد بالارتياح إزاء مسارات حياتنا التي يمكن التنبؤ بها. ولنا أن نحسّ امتنانًا لأننا ضبطنا شهواتنا ضبطًا شديدًا. ولنا أن نفخر بما تحلّينا به من ضبط نفس، فلم نسمم زملاءنا ولم ندفن أحدًا من معارفنا في الحديقة.


مكتبة ياسمين

في الخارج، تتتالى مشاهد مألوفة: محطة الكهرباء، وبقعة أرض خالية، ومستودع للبريد، وأجمات من أشجار عتيقة، ومجموعة فتيات بملابسهن المدرسية باللونين الرمادي والأزرق، وحزمة سحب ركامية تنتشر آتية من جهة الغرب، ومركز تسوّق واقع إلى الناحية الأخرى من الطريق السريعة، وملابس داخلية ترفرف على حبل غسيل، ثم يبدأ شيئًا فشيئًا ظهور الحدائق خلف فيلات الضواحي منبئًا باقتراب القطار من مركز لندن.

في مبنى المحاسبين، بدأ الموظفون يدخلون الأبواب الزجاجية المغشّاة. لقد نزلوا من عربات القطار في فيكتوريا وفارينغدون، وفي جسر لندن ووترلو، أو قادوا سياراتهم عبر الأنفاق، أو نقلتهم باصات عاملة بالديزل، أو جروا عابرين صالات المطارات، أو هرولوا مجتازين الحدائق، أو قادوا دراجاتهم بين التلال وفي الشوارع العريضة. وفي كل حالة من تلك الحالات، كانوا يخفون عن بقية العالم مركز شبكة العنكبوت الذي هم إليه ذاهبون.

ما تناولوه وقت الإفطار متباين أيضًا مثل تباين مساراتهم إلى عملهم: المعجنات الدانماركية، أو الأرز بالكاري الباقي من وجبة العشاء، أو النقانق، أو البيض الأسكوتلندي، أو أطباق من تشيريوس وكوكو بوبس... اسمان تجاريان بهيجان مهمتهما أن يبعثا أملًا في نفوس المستهلكين الذاهبين إلى أعمالهم.

يصعد العاملون السلم من غير أن ينظروا حولهم. أن تشعر بالألفة في المكتب يعني ألّا تلاحظ المنحوتة الفضية الغريبة في الردهة، وأن تنسى كم أحسست هذا المكان غريبًا في يومك الأول. تعني بداية العمل نهاية الحرية، لكنها تعني أيضًا نهاية


مكتبة ياسمين

الشك والتوتر والرغبات المتفلتة. لقد انخفضت احتمالات المحاسبة في الحياة من عشرة آلاف إلى حفنة صغيرة مقبولة. لديها بطاقة باسمها تقدمها إلى الناس في الاجتماعات: بطاقة تقول للأشخاص الآخرين -ولعل أكثر أهمية أنها تذكّر صاحبتها أيضًا- إنها «مديرة رئيسية في وحدة عمل»، لا مجرد شخص ضبابي عابر في كونٍ كله مصادفات. كم هو مُرضٍ أن يضبط المرء ما يظنه زملاؤه فيه بدلًا من اضطراره إلى التأمل، في وحدة ساعات الصباح المبكر، في كل ما كان يمكن أن يكونه ولن يكونه أبدًا. بعد نصف ساعة من الآن، لدى هذه المحاسِبة اجتماع عمل مع فريق آتٍ من شركة تأمين على الرهون العقارية؛ وهذا ما يتيح لها وقتًا لأن تشتري من الكافيتريا قهوة وقطعة مافن. لقد أحرقت بداية يوم العمل في المكتب ما كان باقيًا من توقٍ إلى ما مضى، مثلما أفلحت الشمس في تبخير ندى الصباح. لم تعد الحياة غامضة، ولا حزينة، ولا مؤثرة، ولا مربكة، ولا كئيبة، ولا عامرة بالهواجس: إنها مسرح عملي تجري عليه نشاطات مضبوطة يعرف أصحابها ما يريدون.

## -3-

في غرفة اجتماعات في الطابق السابع، التقى عشرة أشخاص كي يناقشوا تقدَم سير العمل في تدقيق حسابات شركة في برمنغهام تنتج مواد تغليف بلاستيكية من أجل الصناعات الغذائية. تتدرَج مستويات المجتمعين من شريك جالس عند رأس الطاولة إلى موظَف جديد يرتدي بدلة مخططة لم ينه الجامعة إلّا الصيف الماضي. في الصالة ثرثرة ومزاح يشبهان ما يجري من أحاديث بين معلَم ومجموعة من طلبة معجبين بأنفسهم، لكنهم


مكتبة ياسمين

مهذبون. يسأل الشريك الشاب الجالس إلى يمينه وقد سرّح شعره بالجل تسريحة متقنة: «هل تابعت المباراة ليلة أمس؟». يجيبه الآخر: «بالطبع، يا روبنسون. لكننا سنمسح هذه الابتسامة عن وجهك في المباراة القادمة».

كان خمسة أفراد من المبتدئين من فريق التدقيق المالي يذهبون إلى برمنغهام كل أسبوع على امتداد الشهر الماضي، فينزلون في فندق قريب من مصنع البلاستيك عند مدخل المدينة الجنوبي. يعملون وقت النهار في قسم المحاسبة في الشركة فيراجعون الملفات ويجرون اختبارات البيانات على كمبيوتراتهم المحمولة. وفي المساء، يذهبون إلى مطعم بنغالي اسمه «نجمة الهند»، واقع إلى الناحية الأخرى من خط القطار المزدوج الآتي من كولديتز (هذا هو الاسم الذي أطلقوه على فندقهم). تقضي سياسات السفر في شركة المحاسبة أن يتقاضى الموظفون الذين لم يبلغوا سوية المديرين ما يصل إلى 20,50 باوندًا من أجل وجبة العشاء.

ليس من السهل جعل المحاسِبين يتوسّعون في الحديث عما يفعلون. يحسّون بأن كل فضول يبديه بقية الناس إزاء عملهم لا بد أن يكون منطويًا على سخرية خفية، لأن هذا ما يقابله به العالم الواسع منذ إعلانهم أول مرة عن المهنة التي اختاروا العمل فيها عقب تخرجهم. وأما إذا ثابر المرء على محاولة جعلهم يتكلمون، فسرعان ما يتنحى ميلهم إلى الانتقاص من أنفسهم، ويختفي شيئًا فشيئًا ليحلَّ محله تعبير صادق عن الاعتزاز بإتقانهم صنعتهم التي تشبه متاهة متشابكة.

تجاذبت أطراف الحديث مع إيميلي وان. إنها في الثامنة والعشرين من العمر؛ وقد انتقلت إلى


مكتبة ياسمين

لندن في الآونة الأخيرة آتية من مكتب الشركة في شنغهاي، حيث وجدت وظيفة عقب تخرجها بدرجات استثنائية في جامعة جياوتونغ. تشبِّه إيميلي عمليات التدقيق المالي بالنجارة. تقول مبتسمة إن الرأسمالية تصير عاجزة عن العمل من غيرها. إن الإجراءات المستخدمة من أجل التدقيق المالي متماثلة في العالم كله؛ وهي تسمح للمحاسبين بالعمل مع زملاء أجانب من غير أية مشكلة، مثلما هي الحال بالنسبة إلى الطيارين. جرى تنظيم قواعد العمل ضمن «إنجيل» من أربعة آلاف صفحة يحمل عنوان «*منهجية التدقيق المالي العالمية*». أخذت معي هذا الكتاب حتى أقرأه في السرير. في برمنغهام، جرى تكليف كل واحد من أفراد الفريق بمعالجة جانب من جوانب موازنة شركة مواد التغليف: يتحقَّق أحدهم من سجل الأصول الثابتة، وآخر من سجل الديون، وثالث من الالتزامات، ورابع من الدائنين، وخامس من الاحتياطات. وفي ختام العملية، يوقِّع رئيس الفريق على ستمئة استمارة تشهد على دقَّة الحسابات في الشركة. هذا ما يسمح للمستثمرين المحتملين بامتلاك القدر الكافي من الثقة كي يتركوا أموالهم تبحر في رحلات رقمية طويلة متشابكة تنطلق في اتجاه هذه الشركة.


مكتبة ياسمين

في الآونة الراهنة، يستنبط الفريق طرقًا للتحقق من موثوقية منظومة الفوترة الخاصة بضريبة القيمة المضافة. إنهم يتتبّعون حركة مئة مليون باوند جرت عبر «أنابيب» الشركة في العالم كله خلال الشهور الستة الماضية. ونتيجة نقص واحد من الملفات، حدث تأخير مزعج في إنجاز «استمارة خدمات التواصل السنوي المستقلة غير المدققة»، الخاصّة بالنشاطات السنوية مع أطراف أخرى.

مع أن التمييز بين ما هو «طبيعي» وما هو «من صنع الإنسان» يتبدّد عند إلقاء نظرة عن كثب، فمما لا شك فيه أننا ابتعدنا كثيرًا عن الشرط البشري، مثلما عبّر عن نفسه أول مرة في الوادي العظيم في أفريقيا قبل مئتين وخمسين ألف سنة. يصعب ألّا يُعجب المرء بالتفاني المبذول من أجل الشروط التفصيلية. إن مستويات الالتزام التي كانت في المجتمعات السابقة محل اختصاص المغامرات العسكرية والتبشير الديني صارت الآن منقولة إلى نشاطات رقمية في مثل دقة التطريز. لعل التاريخ يعتمد كثيرًا على الدراما وقصص البطولات، لكن قلّة صغيرة منا تخرج إلى أعالي البحار، في حين يظلّ أكثرنا في الميناء حيث نحصي الحبال ونفك


مكتبة ياسمين

تشابكات سلاسل المراسي.

واضح تمامًا أن المحاسبة تُكسب من يمارسونها أسلوبًا خاصًا في النظر إلى العالم. لا يسألني المحاسبون كيف أؤلف الكتب، أو لماذا أكتبها، بل ينصبَ اهتمامهم على ما إذا كانت الضريبة المفروضة على الكتاب تصير مستحقة بعد مضي بضع سنين، أو ينبغي تسديدها كلّها لحظة صدور الكتاب. إنهم أشبه بجرَاحي الأمراض البولية الذين يرون في المريض كلية قبل أي شيء آخر.

قد تكون أكبر أثرًا مما سبق حقيقة أن المحاسبين يبدون غير راغبين أبدًا في محاولة الاضطلاع بأعمال يمكن أن تترك «ميراثًا» دائمًا. إن لديهم حرية داخلية لممارسة ذكائهم بالطريقة التي يمارس بها سائقو التاكسي مهاراتهم في التوجه من مكان إلى مكان: إنهم مستعدون للذهاب حيث يوجَههم العملاء. قد يُطلب منهم في أسبوع من الأسابيع التعامل مع مسألة تمويل منصَة تنقيب عن النفط، ثم مع المستحقات الضريبية المترتبة على متجر كبير، أو على شركة لصنع كابلات الألياف الضوئية في الأسبوع التالي، وذلك من غير أن يعرقل عملهم ضغط المشاريع الجارية في الشركة، أو ما قد تسبَبه تلك المشاريع لأناس آخرين من معاناة أو أمراض. ليس لديهم أي طموح إلى أن يكونوا معروفين لدى أشخاص غرباء أو إلى تسجيل أفكارهم وحفظها من أجل مستقبل غير واضح، وغير مهتم بهم. لقد صاروا مرتاحين إلى بقائهم طيّ النسيان؛ وهم متقبَلون تمامًا -بكل وقار- ندرة فرص الخلود التي يتيحها ميدان التدقيق المالي.

-4-

في غرفة اجتماعات في الطابق الأرضي، يجلس

خمسة وعشرون موظفًا جديدًا. إنهم في الأسبوع الثاني من برنامج تدريبي في المحاسبة يستمر ثلاث سنين. قدِموا إليهم في الأسبوع الماضي لمحة عامة عن مبادئ التقارير المالية؛ وسوف يسيرون بهم هذا الأسبوع عبر آليات أنظمة التأمين لدى الشركة. لقد أخذتهم هذه الشركة، في محاولة ترمي إلى المحافظة على روحهم المعنوية، إلى فندق جميل خارج لندن بغية لقاء رئيس مجلس الإدارة، وكذلك حتى يستمتعوا بجلسات التدليك والمعالجة الفيزيائية بعد الظهر. فضلًا عن هذا، تعرَف الموظفون الجدد على المعالج النفسي في الشركة، وعلى المسؤول عن أعمال التنظيف، وعلى مدير تكنولوجيا المعلومات، ثم على رئيس جمعية المثليين والمثليات في الشركة، تلك الجمعية التي يلتقي أعضاؤها لتناول الشراب معًا أول يوم سبت من كل شهر. والآن، مضى على المتدرّبين جالسين يستمعون إلى المحاضرة أكثر من ساعة ونصف الساعة، فبدأت تظهر على عددٍ كبيرٍ منهم علامات الإرهاق. لهذا، قرر المحاضر إطلاق سراحهم في وقت مبكر حتى يستمتعوا في الخارج بتناول الكرواسان والمعجَنات الدانماركية.

مكتبة ياسين

خلال الشطر الأكبر من تاريخ البشرية، كان السوط الأداة الوحيدة اللازمة لجعل العاملين ينجزون مهماتهم بهمة وبراعة. لما كان غير مطلوبٍ من العمال غير أن ينحنوا على الأرض حتى يلتقطوا أكواز الذرة في مكان درسها، أو أن يحملوا إلى قمة تلَةٍ حجارةً مأخوذةً من المقالع، فقد كان ممكنًا ضربهم ضربًا شديدًا، مرارًا وتكرارًا، لأن ضربهم يحقق فائدة من غير أن تترتب عليه أية مساءلة. لكن، كان لا بد من إعادة صوغ أنظمة العمل مع ظهور المهمات التي يشترط حسنُ أدائها قدرًا كبيرًا من رضا القائمين بها، بدلًا من الاكتفاء بجعلهم مذعورين خاضعين. فبعد اتضاح أن شخصًا ننتظر منه إجراء جراحة لاستئصال أورام دماغية، أو إنجاز وثائق قانونية ملزمة، أو إبداء طاقة قادرة على إقناع الناس بشراء شقة سكنية، لا يجوز أن يكون متجهمًا أو مستاءً أو كارهًا، فقد بدأ حُسن حال العاملين من الناحية الذهنية يصير هدفًا يحتل موقعًا متقدمًا ضمن اهتمامات الإدارة.

لا يمكن إنجاز الوظائف في الأبراج المكسوَة بالزجاج المنتشرة في العالم كله بدافع من الخوف من قوة خارجية. ولم تعد الرقابة كافية لتشجيع العاملين على بذل أفضل ما لديهم في إعداد جداول الضرائب السنوية. يؤدَي هذا إلى اضطرار كبار المديرين إلى التعامل مع موظفيهم بقدر كبير من الصبر والاحترام. صار أولئك «اللوردات العظام» مجرَدين مما كان لدى مالكي السفن في القرن الثامن عشر من سلطان، أولئك الذين كانوا متمتعين بحرية يُحسدون عليها في أن يقذفوا بعبيدهم وسط المحيط الأطلسي عند ظهور أول بادرة تمرّد أو عصيان. صار على أصحاب السلطة الجدد أن يبدوا اهتمامًا بمراكز الرعاية النهارية وباللقاءات الشهرية


مكتبة ياسمين

مع العاملين، وأن يسألوا موظفيهم، بحرارة نابعة من القلب، إن كانوا مستمتعين بعملهم.

جين أكستيل هي المسؤولة عن تغليف قبضة السلطة الحديدية بقفاز من مخمل، فهي على رأس قسم الموارد البشرية في شركة المحاسبة، ذلك القسم الذي تقع مكاتبه في الطابق السادس. لقد نظَمت في الآونة الأخيرة مسابقة رسم مناظر طبيعية لمساعدة المدقِّقين الماليين في الشركة على إطلاق ما لديهم من روح إبداعية لا تزال غير مكتشفة؛ وهي الآن تعمل على تعزيز الروح المعنوية، عن طريق تزيين ممرات المبنى وصالات الاستقبال بلوحات تحمل الشعار التالي: «هذا هو إعلان قيمنا: من نحن وما نعمل من أجله».

لو كانت أكستيل حاضرة في قصر فيرساي، لما بقي لـ«سان سيمون» الذي كان مدوِّن يوميات قصر لويس الرابع عشر ما يفعله. فبفضلها، صارت لدى الشركة الآن سياسة عدم تسامح مطلق مع النميمة والتنمّر إذ أقيم «خط ساخن» من أجل تلقّي مكالمات الموظفين الذين يعانون أية مشكلة، وذلك على مدار اليوم، فضلًا عن منتديات يمكن فيها تقديم الشكاوى في حق الزملاء وعن إجراءات


مكتبة ياسين

حاذقة يستطيع واحد من المديرين استخدامها كي يخبر أحد أفراد الفريق بأن لأنفاسه رائحة كريهة.

إن خلف هذه الابتكارات كلّها اعتقاد مفاده أن ديناميكيات مكان العمل ليست أقل تعقيدًا، ولا أهون شدّة مما يظهر في ميدان العلاقات العائلية، مع صعوبة إضافية هنا ناجمة عن أن العائلات تظلّ، على الأقل، مواضعَ يُقبَل أن يحدث فيها ما يشبه المشاهد الهستيرية التي في مسلسل *«ميديا»*، في حين تجري حياة المكاتب عادة خلف قناع من مظاهر الابتهاج السطحية، فتترك العاملين أقل قدرة على التعامل مع ما لا يكف زملاؤهم عن إثارته في نفوسهم من مشاعر الغضب أو الأسى.

مهما تبدو الاستراتيجيات التي يعتمدها قسم الموارد البشرية مصطنعة، فالحقيقة أن طبيعتها المصطنعة نفسها هي ضمان نجاحها، لأن النغمة الرتيبة المجتهدة في اللقاءات التي تقام للعاملين في الخارج، وفي التمرينات الجماعية على تقديم الملاحظات في ما يخص العمل، تتيح للعاملين فرصة الاعتراض بالقول إنهم لا يتعلمون شيئًا جديدًا من خضوعهم لهذه الأنظمة. عندها، تمامًا مثلما يحدث في حفلة منزلية عندما يسخر ضيف


مكتبة ياسمين

من اقتراح مضيفه أن يستمتع الجميع بلعبة ورق، ثم يفاجئه أن يجد نفسه -أثناء سير اللعبة- قد بات قادرًا على التعبير عن حنقه، وعلى إظهار حقيقة عواطفه والفرار من عذاب الثرثرة غير الصادقة التي كانت قبل بدء اللعبة.

من المعروف أنه لم يحدث كثيرًا من قبل أن وُجدت ألقاب وظيفية تشبه اللقب الوظيفي الذي تحمله أكستيل، ولا وُجد معجم مثل معجمها المهني («التواصل مع العملاء»، «الترويج الشخصي»). قد تقود ندرة السوابق المرء إلى إصدار حكم على وظيفة هذه المرأة بأنها «مرض لا حاجة له». لكن هذا من شأنه أن يكون إساءة تفسير للتميّز الحقيقي الذي يتمتّع به المكتب المعاصر: هو مصنع للأفكار يعتمد على قدرة عشرات آلاف العاملين على التواصل الحسن في ما بينهم بغية تلبية حاجات عملاء متطلّبين قليلي الصبر. وهكذا، يصير المكتب كيانًا ذا حساسية شديدة لأية خصومات داخلية، وللأساليب التافهة القائمة على حجب قسم من الأقسام ما لديه من معلومات عن بقية أقسام الشركة، ولمضغ أحقاد سامة ناشئة عن عدم عدالة توزيع الرواتب، ولظهور قشرة الرأس على ياقات المديرين، وللتعامل الأخرق مع الصلات الحسّاسة. إذًا، فالمكتب كيان ليس بأسمى شأنًا من «عبد جمعي» مندسَ خفيةً في كل ما تقيمه الشركة من حفلات غنائية و«مسابقات موظف الشهر»، التي تكافئ الفائزين برحلات نهرية، ودعوات إلى المشاركة في مآدب العشاء التي يقيمها مجلس الإدارة ويحضرها رئيس الشركة.

-5-

ظللت زمنًا طويلًا أحاول لقاء هذا الرئيس؛

لكنه كان أول الأمر في روسيا، ثم في الهند، ثم في الولايات المتحدة. لكني واثق من أنني رأيته في الفترة التي قالوا إنه ذهب فيها إلى الولايات المتحدة يدخل مصعد مقر الشركة في لندن. ثم أتت فترة كان خلالها موجودًا «من الناحية الرسمية» في مكان عمله الواقع في الطابق الأعلى، لكن مشاغله لا تسمح له برؤيتي، إلى أن خصَصوا لي نصف ساعة كي أجلس وأتحدَث عن مستقبل الشركة وعن التحدَيات التي تواجه مهنة المحاسبة والتدقيق المالي.

جلسنا متقابلَين في غرفة عارية أخرى، ومعنا مدير العلاقات العامة الذي كانت الغاية من حضوره غير واضحة، اللهم إلَا إذا كانت تعزيز الانطباع بأن عليَ توخَي جانب الحذر.

لطفٌ ظاهريَ كبير ظل شبه عاجز عن إخفاء ضيق صدر رئيس مجلس الإدارة إزاء الكتَاب. مثلما يحدث في كل يوم آخر من أيام الأسبوع، استيقظ هذا الرجل في الخامسة صباحًا، وخرج لممارسة رياضية الجري مدَة أربعين دقيقة، ثم صار خلف مكتبه قبل السابعة. يعمل تحت قيادته اثنا عشر ألف شخص، مُوزعين على مقرات في الدانمارك والكاميرون والهند والسنغال والسويد واسكوتلندا وألبانيا وإيرلندا الشمالية ومولدوفا وجنوب أفريقيا.

مع سعة سلطانه، يرفض هذا الرجل القسم الأكبر من أدوات السلطة ورموزها. يخاطبه الجميع باسمه الأول. ليست لديه طائرة خاصَة، ولا حتى سائق. لديه سكرتيرة مشتركة مع أشخاص آخرين. يأتي إلى عمله بالقطار. بل حتى ليس له مكتب خاص به. لقد صمَم المعماريون من أجله مكتبًا يشرف على «جسر البرج»، لكنه أصرَ على الجلوس وسط طابق

من الطوابق العادية خلف طاولة مكتب، لا فرق بينها وبين طاولة أي موظف من الموظفين المتمرّنين الجدد. لا يتميز مكتبه إلّا بوجود قطعة مسطحة من البلاستيك إلى يمين هاتفه مطبوع عليها قول ورد في كلمة لثيودور روزفلت تطرق فيها إلى ضرورة أن يسعى كل إنسان إلى التفوق، «وإذا فشل، فقد فشل وهو يخوض محاولةً جسورًا. أبدًا، لن يكون مكانه مع تلك الأرواح الباردة الوجلة التي لا تعرف طعم النصر ولا طعم الهزيمة».

يستحضر مظهر طاولة مكتب رئيس الشركة إلى الذهن قصيدة للشاعر و. أودين عنوانها «المديرون» (1948):

*أيام الماضي الرديء، لم يكن الأمر رديئًا جدًا:*

*كانت قمة السلم مكانًا يسرّ المرء أن يجلس فيه؛*

*يعني النجاح أمورًا كثيرة - رفاه، ووجبات ضخمة،*
*ومزيد من القصور فيها مزيد من المقتنيات*

*والكتب والفتيات والخيول*

*أكثر مما يستطيع أن يستخدمه كله؛*

*وكذلك أن يُحمل إلى القمة في حين يرى الآخرين*
*سائرين على أقدامهم.*

مكتبة ياسمين

لكن أودين كان عارفًا الوجهة التي تسير القيادة إليها. ففي الأزمنة الحديثة:

*هل يُقدِم أي رسام*
*على تصوير المرء ناهضًا منتصرًا من بحيرة*
*على صهوة دلفين، عاريًا*
*تحرسه مظلة من ملائكة؟*

بطبيعة الحال، لم تختف السلطة اختفاء تامًا، بل أعيد تشكيلها فحسب. لا يمكن أن يحظى هذا الرئيس بأفضل فرصة للمحافظة على علوّه فوق الآخرين، إلّا بأن يقوم بدور موظف عادي. مرؤوسوه معجَبون بصدق تظاهره بأنه يقاسمهم أقدارهم، في حين يعلم في دخيلة نفسه أن هذا الإظهار المُقنِع للمسلك العادي هو، وحده، ما يقيه الحاجة إلى أن يكون شخصًا عاديًا من جديد.

فوق هذا، صار الرئيس مضطرًا إلى التخلّي عن حقه في أن «ينبح» بالأوامر. لا يستطيع توبيخ الخرّيجين الآتين من «وارتون» أو من «INSEAD». ما من وسيلة باقية لديه غير الإقناع. ثلاث مرات في الشهر، أو أربع مرات، يصعد إلى المنابر في أماكن مختلفة من إمبراطوريته الكبيرة، ثم يخلع سترته وينظر إلى جمهور الحاضرين المكوّن من ثلاثة آلاف محاسب، ويقول لهم، ومن خلفه شعارات يعرضها برنامج باوربوينت Powerpoint على الشاشة، إنهم محاسبون محترفون رائعون، قبل أن يدسّ بطريقة بارعة توصية لهم بأن يطوّروا أساليبهم، وذلك بطريقة متواضعة تشبه الطرق التي صار الواعظون يستخدمونها في هذا الزمن الذي تراجع فيه الإيمان.

من الواضح أن نجاحه في عمله ليس معتمدًا، آخر المطاف، على أي شيء يمكن أن يفعله بقدر ما هو


مكتبة ياسمين

متوقّف على استطاعته التوفيق بين «خكمه» وبين ما يصادفه من تيارات مواتية في حركة الاقتصاد. إنه مثل قائد عسكري في ميدان معركة، يحاول، من غير جدوى، أن يحافظ على مظهر السيطرة والتحكّم بكل شيء في خضم فوضى انفجارات القذائف في كل مكان من حوله.

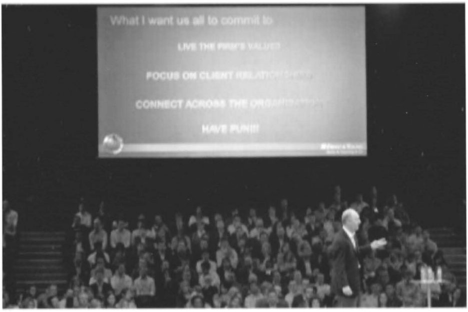


لعل رئيس الشركة أحسّ ما بنفسي. الظاهر أنه لا يرى في مقابلتنا هذه فرصة لإعطائي معلومات مفيدة، بل اختبارٌ خطيرٌ لقدرته على تفادي قول أي شيء قد يكون من شأنه أن يشغل باله في وقت لاحق -بكلمات أخرى، يعتقد بأن عليه أن يكون مضجرًا إلى أقصى حدّ ممكن. يظلّ مصرًا على الكلام معي بتلك النبرة اللطيفة غير الشخصية، التي يستخدمها في مخاطبة جمع من الناس. أسأله أن يستفيض في الكلام عن مستقبل الشركة: «لا يخامر أحد أي شك في أننا نواجه بضعة تحديات كبيرة. لكن، ما من ريب في ذهن أحد من أن لدينا أيضًا عددًا من الفرص الرائعة». ما تطلعاته فيما يخص موظفيه؟ «يريد موظفونا وشركاؤنا جميعًا أن نكون واحدة من المؤسسات الناجحة، الفائزة، أن نكون مؤسسة تكسب حصصًا في السوق فتحقق


مكتبة ياسمين

فرصًا متنامية لأناسها جميعًا». هل يحب السفر؟ «نحن محظوظون بأننا صرنا جزءًا من الأعمال الدولية الناجحة. لكن علينا بذل المزيد حتى نكون ملتزمين التزامًا تامًا بمؤسساتنا على المستوى العالمي، وبالسوق الدولية أيضًا». بم تتميز شركته عن منافسيها؟ «العاملون لدينا هم ما يميزنا في أعين عملائنا. وليس ممكنًا التوصل إلى خلق تجربة متميزة بالنسبة إلى العميل إلَا عندما يعيش كل واحد منا القيم التي تحملها شركتنا».

بعد مضي عشرين دقيقة من هذا، أجد نفسي واقعًا تحت إغراء سؤاله متى كانت آخر مرة تزعجه فيها أمعاؤه في واحد من اجتماعاته. لكن لعله يتكلَم بهذه الطريقة لا لأنه راغب في كتم أسرار عني، بل نتيجة سنين من سفره في أنحاء العالم، وتنفَسه هواء المكيفات، وترؤسه مؤتمرات كثيرة، هذا ما جعله ذا شخصية مفرغة. ربما تكون قد مرّت عشر سنين منذ آخر مرة وجد نفسه وحيدًا في غرفة من غير شيء يفعله. أحسست بضجري يتحوَل إلى شفقة على شخص قد يحسب الناس أن ليس في حياته إلَا قليلٌ جدًا مما يستدعي الشفقة.

-6-

جاء وقت الغداء حاملًا معه رائحة المأكولات المقلية المغرية المتصاعدة من أسفل المبنى حتى طوابقه العليا. يستطيع الموظفون أن يروا ما لدى الكافيتيريا من خلال الإنترنت. يقدّمون يوم الجمعة «سمكة مقلية مع صلصة التارتار وشريحة ليمون»، وأرزًا بالكاري أيام الأربعاء؛ و«شرائح مشوية مع الإضافات كلها» أيام الخميس. وبغية تجنيب من يريدون تناول الطعام أي تأخير غير متوقَع، تنقل الكاميرا عبر الإنترنت صورًا لصف الانتظار في

الأسفل.

لا يستطيع كل واحد الاسترخاء وتناول وجبة منتصف النهار. ففي أعلى المبنى، في سلسلة من غرف الطعام الخاصة بالمديرين، يجلس كبار الشركاء عاكفين على مهمة معقدة وهي تحصيل رسوم بالملايين من ممثلي أكبر الشركات في البلاد مع تظاهرهم بأنهم غير مهتمين بشيء غير عطلاتهم الأخيرة، وحسن أداء أطفالهم في المدارس. ومع أن المبالغ التي يتداولونها هنا أكبر كثيرًا جدًا من أية مبالغ يتعامل بها البائعون بالمفرق، أو مندوبو مبيعات شركات الهواتف، أو أولئك الذين يتوسَلون إلى الزبائن في العالم القاسي الذي في الأسفل، فقد تعلَم الشركاء الجالسون هنا كيف يتبنَون مظهر الهدوء وشرود الذهن الذي يستخدمه الأطباء وأساتذة الجامعات.

الشريك مارك يتناول وجبة غدائه في الجناح الشرقي. لقد أتقن أسلوبه خلال دورة تدريبية حملت عنوان «التعامل مع العميل»، وكانت غايتها مساعدة المشاركين في تطوير عدد من المهارات: الثقة، والروح التجارية، والتواصل، والقدرة، والالتزام. أقيمت الدورة في فندق عند أطراف غابة تقع على مقربة من نورثامبتن. وخلال واحدة من الجلسات المسائية، وقف زوج من الثعالب يسترق النظر إلى مارك عبر النافذة وهو جالس إلى طاولة عليها طبق من الورق المقوَى وشوكة وسكين من البلاستيك: كان يتمرَن على الأسلوب المناسب لتناول وجبة الطعام مع عميل مُتخيَل! وأما الآن، فإن الجالس قبالة مارك عميل حقيقي اسمه أرون. إنه كبير المديرين الماليين لدى ثالث أكبر شركة إنكليزية لصناعة التجهيزات الخاصة بطب الأسنان. توقف

الحديث بينهما.

لم يصل الطبق الأول من الوجبة حتى الآن، لكن الكلام بين الرجلين استنفد بعد أن أنجزا دورة كاملة على مواضيع كثيرة: الكريكيت، وبحيرة كومو، وسباق فورمولا ون، وقلَة جدوى الألواح الشمسية، وحمائم لندن. اليوم، يحسّ مارك تعبًا أكثر من المعتاد لأنه عاد إلى بيته متأخرًا ليلة أمس بعد مؤتمر للصناعات النفطية في فندق ماريوت في أبردين. ناقش المؤتمر آليات استخدام «صفقات التبادل المسبقة»، و«فرص شراء الأسهم» بغية تأمين القروض والحصول على تدفَقات نقدية مسبقة لتمويل تكاليف التطوير. على الأقل، كانت النافذة مطلَة على مشهد جميل، واستطاع مارك إنفاق بضع دقائق إضافية في محاولة تمييز أبراج شركة لويدز في الأفق. أيضًا، كانت على الجدران أعمال فنية كثيرة. الشركة من محبَي الفنون؛ وعندما انتقلت إلى مقرها الجديد هذا، عهدت إلى شركة متخصَصة في شراء اللوحات الفنية بأن تزود كل حيَز تقريبًا بأعمال لفنانين شباب شريطة أن تكون مثيرة، باعثة على التفكير. من هنا، كانت في غرفة الطعام هذه، صورة كبيرة لبقرة يبدو كأنها تحاول أن ترمي بنفسها في نهر موحل بني اللون. قد تكون الصورة ملتقطة في الهند؛ ولعل هذه البقرة تحاول الانتحار.

في غضون ذلك، كان غيوليرمي يسكب الطعام للرجلين. إنه شخص في الثانية والأربعين من العمر جاء من بيغي الواقعة جنوب البرازيل. لقد استخدمته شركة خارجية لتقديم المأكولات حتى يكون نادلًا هنا في وجبات الغداء والعشاء. التقى هذا الرجل كبار المديرين في مجموعة «إكسون»، و«بريفهارت إنفستمنت»، و«دانا بتروليوم»، و«إنداغو بتروليوم»، و«أوميغا دياغنوستكس غروب»، و«زيترونك بي إل سي» - لكن من الإنصاف القول إنه كان في غرفة واحدة معهم فترة وجيزة، لأن من المستبعد أن يستطيعوا تذكّر هذا الرجل الوسيم ذي العينين البنيتَين الذي أنجب ستة أطفال، ولم يتجاوز احتكاكه بأولئك الناس لحظات وجيزة عندما وضع أمامهم لفافات الخبز المغبَرة بالدقيق التي أتى يحملها في سلة فضية اللون.

تبدأ وجبة اليوم بأشرطة الباستا مع الكابوريا، ثم تلي ذلك شريحة من لحم التونة مع بطاطس روستي. إذا أردت استئجار مارك حتى يفكر من أجلك فسوف تكون تكلفة ذلك خمسمئة باوند للساعة الواحدة، في حين تستطيع الحصول على غويليرمي مقابل سبعة باوندات فقط - فارق كبير لا يكفي لتفسيره تاريخ بلدي الرجلين والثراء النسبي



مكتبة ياسمين

لكل منهما، وذلك أن مارك درس ثلاث سنين من أجل شهادة في القانون، وبعدها سنتين في كلية BPP في كينغزتروس بغية إتقان مبادئ التدقيق المالي والتقارير المالية، ثم صار عضوًا في جمعية المحاسبين القانونيين المعتمدين، وأمضى خمسة عشر عامًا في مراكمة الأرباح، وارتقى من مرتبة مدير مساعد إلى مرتبة خبير مساعد إلى مدير تنفيذي، ثم من مرتبة مدير تنفيذي إلى مدير معاون، ثم من مرتبة مدير معاون إلى مرتبة مدير رئيسي، ثم صار واحدًا من الشركاء، ثم صار شريكًا رئيسيًا.

بعد شهور كثيرة، وبعونٍ من بطاقات من أجل *«Così fan tutti»*، ومن افتتاح معرض يضم لوحات طبيعية لرينوار، سوف يستجيب آرون أخيرًا لمحاولات مارك البارعة الرامية إلى الحصول على المال. وأما غويليرمي، فسوف يعود مرغمًا إلى بلاده بعد انتهاء مدة تأشيرته.

-7-

فترة ما بعد وجبة الغداء هادئة هدوءًا غريبًا، كأن ذكرى قديمة للقيلولة التي كان يحظى بها الأسلاف قد استيقظت فأخمدت شيئًا من طاقة النهار المعتادة. في الطابق السابع، عاملون يجلسون إلى مكاتبهم، وقد تركز اهتمامهم كله على الوثائق ولوحات المفاتيح. ومن وقت إلى آخر، تعود الآلات الطابعة إلى الحياة مصدرة خريرها المعروف، مطلقة من أجوافها صفحات ذات إيحاء غير طبيعي بحرارة أرغفة خارجة من فرن.

على نحو يعصى على الانتظام الشديد في صالة العمل المفتوحة، حيث المكاتب مرقمة ترقيمًا واضحًا باستخدام رموز من قبيل (ML6W.246)، ينجح العاملون في فرض نوع من الفردانية الخفية


مكتبة ياسمين

في مواقع عملهم. صور عائلية مثبتة إلى لوحة مغلفة باللباد، وأكواب تظهر هنا وهناك ومعها أشياء صغيرة ترمز إلى فرق رياضية، ووجهات سياحية يقصدها الناس في العطلات. وإذا ما جثم المرء على الأرض، فسوف يستطيع رؤية عدد الأشخاص الذين خلعوا أحذيتهم، وراح الواحد منهم يدعك قدميه المجوربتين على السجادة جيئة وذهابًا: حركة لا يكون أثرها مقتصرًا على ذلك الإحساس الغريب لاحتكاك الألياف الغنية بالنايلون مع الجوارب القطنية، بل إن فيه أمرًا آخر، هو ذلك الانطباع بأن المرء قد وجد طريقةً لكسر القواعد، وإن تكن طريقة بسيطة، فأدخل إلى مملكة العمل هذه لمحة من حميمية البيت.

صار العاملون القدامى في المكتب ماهرين في «استئناس» البيئة المحيطة بهم. يعرفون أين يخبئون طعامهم في المطبخ المشترك، وكيف يضبطون أوقات ذهابهم إلى المراحيض، بحيث يقلّلون من مخاطرة الاضطرار إلى تجاذب أطراف الحديث عند المغسلة مع زميل جديد تم في الآونة الأخيرة إجلاسهم على مقربة منه في جو صالة العمل المتوتر العابق برائحة عطرة. موجات النشاط المنتج تقطعها ترتيبات خاصة بوجبة الطعام، أو آخر أخبار علاقة غرامية، أو تحليلات لسلوك نجوم الأفلام والقتلة. ما أقل لحظات النهار التي يجري فيها إنتاج المال حقًا. ومن ناحية أخرى، ما أكثر الفترات المنقضية في الاستراحة، أو في أحلام اليقظة.

يظهر عبر النوافذ بشر يسيرون على ضفة النهر، مرتدين ملابس غير رسمية. إن استمتاعهم بأوقات فراغهم يجعل المرء يتساءل عن المنطق العميق


مكتبة ياسمين

الكامن في العمل الجاري في المبنى. على أن من عادة الأسئلة الكبرى أن تبدو قليلة الأهمية عندما يكون المرء منغمسًا في واحد من النشاطات. شخصٌ يعكف على إعداد وثيقة من أجل اجتماع سوف يعقد في الساعة الرابعة بعد الظهر، أو لأن أندريه طلبه، أو لأن كاترين في حاجة إليه من أجل عرض تقديمي في مدينة بنغالور. لا بد من القول أيضًا إن المحاسبين خبراء في الوصول إلى زبدة معنى حياة العمل التي يعيشها أي إنسان. تستمد الشركة القسط الأكبر من دخلها من مهارة موظفيها في إعداد البيانات المالية آخر السنة، تلك البيانات التي تعلن -بعد مقدَمات مطولة- عن الأصول المالية العاملة، وفواتير رأس المال، والقروض والمستحقات. وتعلن أن من الممكن إيجاز معنى السنة كلَها على النحو التالي:

| | السنة الحالية (باوند) | السنة الماضية (باوند) |
|---|---|---|
| الإيرادات | 50,739,954 | 30,719,640 |
| إجمالي الأرباح | 10,305,392 | 7,003,417 |

تعبّر هذه الأرقام عن حقيقة في شأن حياة المكتب، لا تقل صلابة وعدم قابلية للدحض -وأيضًا، ليست بأقل ثانوية أو إزعاجًا، في آخر المطاف- عن تذكيرٍ آتٍ من واحد من علماء البيولوجيا الارتقائية، بأن غاية الوجود كامنة في توالد جيناتنا. إن الوضوح الساطع لحسابات آخر السنة المالية تأكيد على أن توليد المال ذريعة، في الحقيقة، لفعل أمور أخرى: للنهوض من الفراش صباحًا، وللوقوف أمام أجهزة إسقاط تعرض صورًا في محاضرة، ولتشغيل أجهزة اللابتوب في غرف فنادق في بلاد أجنبية، وتقديم عروض تحلّل حصص السوق، والتوق عند رؤية بنطلون كيتي القطني الرمادي الذي يبلغ ركبتيها. قبل زمن طويل من تعلمنا كسب


مكتبة ياسمين

المال، كنا ندرك الحاجة إلى الانشغال الدائم: عرفنا في الطفولة متعة بناء المكعبات، وسكب الماء في أوعية ثم سكبه منها، ونقل الرمل من حفرة إلى أخرى من غير أن تشغل بالنا الغاية الأسمى الكامنة من خلف أفعالنا هذه.

-8-

عن بنطلون كيتي: كيتي فتاة في الثانية والعشرين، تعمل مساعدة لرئيس قسم شؤون العملاء في أوروبا الشمالية. إنها اليوم منكبّة على إعداد مخطط جولة رئيسها في البلاد الاسكندنافية، تلك الجولة التي تستمر أسبوعين اثنين. على مكتبها نسخة من كتاب *«اكتشف كوبنهاغن»*. حجزت له غرفة هادئة في الطابق العلوي من فندق إمبريال من تلك المدينة، ونظمت له إفطارًا عند الساعة السابعة والنصف صباحًا يحضره كبار العاملين في مكتب الشركة هناك، ومن بينهم سورن ستروم، ولاسه سكوف كريستنسن، ومورتن استوكهولم بوهل.

لعل كيتي هي الشخص الوحيد في هذا المكان الذي يستطيع التركيز على أي أمر غير الطبيعة الاسرة لوجهها وقوامها. ما أشد إلحاح الأفكار التي


مكتبة ياسمين

يثيرها جمالها، وما أبعدها عن أن تكون أفكارًا لائقة. يسهل الانزلاق إلى سلوكٍ حادّ، نافد الصبر، عند الحديث معها، سلوك قد يُفهم منه، فهمًا خاطئًا، أنه يوحي بقلّة الاهتمام، أو حتى بالوقاحة. إلّا أن نظام السلوك في الشركة ينص بكل وضوح على: «نحن لا نتسامح أبدًا إزاء المضايقات الجنسية في مكان العمل. تشتمل المضايقات الجنسية على أية ملاحظات تتناول مظهر واحد من الأشخاص، وأية عبارات غير لائقة، وأية أسئلة تخص حياة الشخص الجنسية، وكذلك الاحتكاك الجسدي الذي ينتهك كرامة الشخص، أو يجعل بيئة عمل الشخص المعني متسمة بالتخويف، أو الكره، أو التحقير، أو الإهانة، أو العدوانية».

من حيث الظاهر، يبدو نظام السلوك مهتمًا اهتمامًا شاملًا يستحق الإعجاب بالإعلاء من شأن حقوق العاملين البريئين. على أن من الممكن أن يظهر في هذه الفقرة، التي لم تغفل عن ذكر شيء، جانبٌ فيه تهكّم وسخرية بعيدان كل البعد عن فكرة حب الخير للآخرين. فما تجري حمايته حقًا قد لا يكون شخصًا بعينه وقع ضحية اهتمام غير لائق من جانب شخص آخر، بقدر ما هو الشركة نفسها. المشاعر التي يثيرها بنطلون كيتي خطيرة لأنها تهدد بتقويض الأساس المنطقي للشركة كلّها. إنها تهدّد بأن تضع تحت الأضواء حقيقةً مرعبة: كم يمكن أن نرى الجنس أكثر أهمية لدينا من العمل.

ما من شيء مفاجئ في «غيرة» الشركة. فعلى مرّ التاريخ، كان على كل مجتمع من المجتمعات أن ينظّم الدافع الجنسي حتى يصير ممكنًا فعل أي أمر آخر وإنجازه. وحده إيماننا الساذج بأن لنا عقولًا منفتحة هو ما يحول بيننا وبين الإقرار بمدى


مكتبة ياسمين

الحاجة إلى دفن القمع الجنسي على النمط القديم، وإخفائه ضمن «أنظمة السلوك المهني».

على نحو مماثل، ويا للمفارقة، يكون لهذا القمع عواقب جنسية غير متناسبة؛ ذلك أن من الصفات الأساسية في الأعمال الإباحية أنها تزدهر أشد ازدهار حيث يشتد حظرها. في القرن الرابع عشر، كانت الأديرة من أكثر الأماكن التي تحمل في أذهان الناس شحنة جنسية، تمامًا مثلما يصعب في زماننا هذا العثور على مكان مثير للمخيلة الجنسية أكثر من أماكن العمل المفتوحة في الشركات الكبرى. فالمكتب بالنسبة إلى العالم الحديث يماثل ما كانته الأديرة لدى مسيحية القرون الوسطى: مكان طاهر لا يكاد يضاهيه أي مكان غيره من حيث قدرته على إثارة الرغبة الجنسية.

إن كانت هاتان المؤسستان تفرضان عقوبات قاسية على من يُظهرون علامات على سلوك فيه اعتداء على الآخرين، فذلك لأن كل واحدة منها محلٌ -أو كان محلًا- للقيم التي يُجلّها مجتمعها أكبر إجلال: تعاليم المسيح من ناحية، والمال من ناحية أخرى. فالمال بالنسبة إلى المكتب مثله مثل ما كانه الرب بالنسبة إلى الدير -وسواء أكانت الرغبة الجسدية مُدانة بلغة «السياسة الخاصة بالمضايقات الجنسية»، أو بلغة «الخطيئة والشيطان»-، فإن المخالفات الناجمة عنها تظلَ توحي بأن في العالم عناصر قد تكون أكثر قيمة، وأكثر جاذبية، من أسعار الأسهم أو من المسيح المخلّص.

إن للقمع مرابحه من ناحية واحدة، على الأقل: على نحو منطقي تمامًا، حظي كل من المكتب والدير بشعبية واضحة في مخيّلة منتجي الأعمال الإباحية. ولا يجوز لنا أن تفاجئنا معرفة أن الروايات


مكتبة ياسمين

الإباحية في أوائل العصر الحديث كان فيها تركيز طاغٍ على الفجور، والعنف الجنسي في أوساط القساوسة في الكنائس والأديرة، تمامًا مثلما تفرط الأعمال الإباحية المعاصرة على الإنترنت في الاهتمام بالجنس الفموي والشرجي اللذين يمارسهما عاملون في المكاتب ومن خلفهم طاولات العمل وأجهزة الكمبيوتر.

**-9-**

بدأ المكتب يخلو من الناس عند الساعة السادسة؛ وبعد ساعة واحدة لن يبقى فيه غير أولئك العاملين القائمين على إعداد تقارير مستعجلة، إذ تنتظر بعضهم ليلة طويلة خلف طاولة المكتب، لا يقطعها إلّا وصول الكوكا كولا والبيتزا قرابة الساعة الواحدة صباحًا.

اقتربت الشمس من الأفق وراحت ترمي ضياءً برتقاليًا عبر زجاج نوافذ البرج. فما الذي تم إنجازه اليوم. قدَم واحد من الموظفين المشورة إلى عميلٍ بخصوص التبعات الضريبية الناتجة عن استيراد التفاح من سلوفينيا. وأعدّ موظف آخر ورقة عمل فيها مقارنة بين الضرائب على المبيعات في خمسة


مكتبة ياسمين

بلدان في غرب أفريقيا. ووزع موظف ثالث لوحات اسمية وسجَل ثلاثمئة مكالمة هاتفية واردة. لا شك في أن هذه الإنجازات سوف تفقد بعضًا من أهميتها مع مرور الزمن. فبعد ثلاث سنين من الآن، سوف يصير تعداد ما جرى بعد ظهر هذا اليوم، يوم التاسع والعشرين من يوليو، يكاد يكون غير مفهوم لأنه موزّع على فواصل زمنية طول الواحد منها ساعة كاملة، ولأنه مخصَص لمواعيد مع زملاء ستصير أسماؤهم ووجوههم شبه مختفية من الذاكرة.

موظفٌ في قسم «الخدمات الاستشارية» متّجه إلى محطة جسر لندن كي يعود بالقطار إلى بيته في مقاطعة كنت، لكنه يتوقّف عند سوبر ماركت في الطريق كي يشتري زجاجة نبيذ وصدر دجاجة بصلصة الجبن. لم يغادر المبنى طيلة النهار لأنه ظلَ منهمكًا في إعداد تحليل لمشروع استثماري خاص بشركة أميركية للتشخيص الطبي، ولأنه كان يردّ على إيميلات أتته من زملائه في مشروع آخر في دنفر. يخرج من الردهة ذات الهواء المكيَف فيفاجئه دفء الجو في الخارج، ويفاجئه مظهر النهر العتيق، وكثرة البشر المتحرَكين هناك، ومدى تباين أشكالهم وملابسهم.

على غير العادة، يتيح له القطار الليلة التمتّع وحده بنصف عربة من عرباته. لقد ظلَ يقوم بهذه الرحلة طيلة اثني عشر عامًا مضت. في الصيف، عندما تغمر النافذة أشعة الشمس المائلة، وتدخلها رائحة العشب المجزوز آتية من الحقول المفتوحة، يقع هذا الرجل فريسة مشاعر حنين غامضة. يرفع قدميه ويضعهما على المقعد المقابل، وتحمله أفكاره إلى أمسيات أخرى بدت مثل هذه الأمسية تمامًا -الدفء نفسه والصفاء نفسه- لكنه عاشها عندما كانت أمه


مكتبة ياسمين

لا تزال حية، قبل أن يولد أطفاله، وقبل أن يصير مطلقًا. يتأمل في كل ما كان صعبًا، أو غير ضروري، أو مأسوفًا عليه؛ لكنه يتأمله الآن من مسافة بعيدة، ويلقي نظرة هادئة ثاقبة على عيوبه وعلى فرص فاتته. وكأن الحياة ليست إلا فيلمًا عاطفيًا رديئًا يلعب فيه صاحبنا هذا دور البطولة نِصف مُقبلٍ ونِصف كارهٍ. لقد بلغ الآن السن التي يبدأ الناس عندها تذكّر الماضي، لكنه يرى بين البيوت المتناثرة في الخارج صبيًا في السادسة عشرة: صبي سيكون هذا الصيف بالنسبة إليه صيفًا حارًا كلّه توق واكتشاف، وسيكون صيفًا يتذكّره بعد ثلاثين سنة عندما يرتحل في قطار لم يُصنع بعد، ولا يزال حديدًا خامًا في الصحارى الحمراء في غرب أستراليا.

الشقة هادئة كأنها تشعر بالذنب. لم يتحرك هنا شيء بينما كان هذا المحاسب يلتقي العاملين في تكنولوجيا المعلومات عند ضفاف النهر، ويبذل الجهد حتى يضبط أعصابه مع موظف جديد. ينتبه إلى منشفة الحمام التي رماها على الأريكة متعجلًا بعد حمامه الصباحي. التحدّي كامنٌ في معرفة كيف يصل بهذا اليوم إلى ختامه. لا يزال عقله مضبوطًا


مكتبة ياسمين

على درجة التركيز التي يقتضيها العمل في المكتب. وأما الآن، فليس من حوله شيء غير الصمت، والنور الوامض في ساعة التوقيت في المايكروويف. يحس كأنه كان غارقًا في لعبة كومبيوتر تتحدَى منعكساته من غير رحمة، لكنها انقطعت انقطاعًا مفاجئًا. إنه نافد الصبر، لا يعرف استقرارًا، لكنه مرهق أيضًا. ليس في حالة تسمح له بأن يباشر أي أمر ذي معنى. وبطبيعة الحال، من المستحيل أن يقرأ. لا لأن قراءة كتاب حقيقي تستلزم وقتًا، بل لأنها في حاجة إلى مساحة انفعالية صافية من حول النص يمكن أن تظهر وتتبدَد فيها أفكارٌ ومخاوف لها صلة بما يقرأه. في حياته كلَها، لن ينجح إلَا في فعل أمر واحد.

هذا المزيج من الإرهاق والطاقة العصبية ليس له حل مُجدٍ غير النبيذ. لم يكن ممكنًا لمدنيّة المكاتب أن تنجح من غير ما يُحدثه النبيذ والقهوة من صعود وهبوط شديدين. ولسوف يجري الفصل الأخير لهذا اليوم تحت إشراف نبيذ كابَرنيه المستورد من تشيلي مع استعراضٍ غير مبالٍ لما توروده أخبار المساء من كوارث وآثام.


مكتبة ياسمين

# الفصل التاسع
# ريادة الأعمال

## -1-

قبيل انتهاء هذا المشروع، صادفت مخترعًا (اخترع «سكوتر» يعمل بالطاقة الشمسية) قال إن ما من بحث في عالم العمل الحديث يمكن اعتباره مكتملًا إذا اقتصر على معالجة الصناعات المستقرة، العاملة في الميادين المعروفة التي اكتمل نضجها. وقد حثني على التفكير في جحافل رواد الأعمال ممن يعمل أكثرهم وحيدًا في مكاتب رديئة الإنارة، على طاولات عتيقة من غير شيء إلَا شعار وبطاقة تعريفية (من أجل الإيحاء بقدر من المشروعية). كل سنة، يأتي أولئك الناس باختراعات وخدمات لم يألفها الناس، آملين أن ينجحوا في إحداث تحوّل في حياتنا، وفي أن تتحسَن حظوظهم في الدنيا.

بناء على توصيته، ارتحلت بعد بضعة شهور من ذلك، قاصدًا مركز مؤتمرات يقع في ناحية معزولة في شمال غربي لندن بغية حضور مناسبة سنوية منظَمة لتيسير اللقاء بين المشاريع الصغيرة والمستثمرين المحتملين. مئتا مشروع، من ليبيا إلى نيوزيلاندا، استأجر كل واحد لنفسه كشكًا هناك، واستفاد من فرصة الإقامة بأسعار مخفَضة في فندق «بست وسترن» القريب من المكان.

مقترحات جديدة في كل قطاع من قطاعات الاقتصاد يستطيع المرء أن يتخيله: أنظمة تتبَع الماشية عن طريق الأقمار الصناعية، وأجهزة رادار محمولة باليد للبحث عن كرات الغولف الضائعة، وغرفة عمليات جراحية ميدانية قابلة للنفخ، وسدادات آذان عالية الكثافة من أجل من يزعجهن


مكتبة ياسمين

شخير أزواجهن (ومن يزعجهم شخير زوجاتهم)، وبرامج تنتج كوبونات هدايا من أجل بائعي النظارات. شركات كثيرة تفكّر في طرق جديدة لتوليد الطاقة واستخراج الماء العذب. جلب ثلاثة سويديون نموذجًا مصغرًا لمحطة طاقة تعمل على زرق الدجاج، ومعها إحصاءات داعمة تبيّن بالأطنان ما يوجد في العالم من ذلك الوقود. وعلى مقربة من مدخل الصالة، كانت مجموعة من المعالجين النفسيين تعرض صيغًا مختلفة للاستفادة من خدمة ثوفَز الاستشارة النفسية لمديري الشركات خلال رحلاتهم الجوية التي تستغرق أزمانًا طويلة.

كان اتساع مجال تلك العروض يوحي بأن الرأسمالية، في مستوى تطوّرها الحالي، لا تزال في طفولتها. قد نحسب أنفسنا نعيش في مرحلة متقدَمة من تاريخ المجتمع الاستهلاكي، لكن الأجيال القادمة سترى في اقتصادنا المتطوّر اليوم حالة ليست بأقل بدائية مما كانت أوروبا تعيشه في العصور المظلمة. لم ينقضِ على ظهور مستحضرات إزالة رائحة الجسم إلّا ثمانين سنة؛ ولم يمض على وجود الأبواب العاملة بجهاز التحكم عن بعد إلّا نحو خمس وثلاثين سنة؛ ولم يكتشف الجراحون إلّا في السنين الخمس الأخيرة كيف يستأصلون الأورام من الغدد وكيف يتقنون زرع صمَامات في شرايين قلوبنا. لا نزال في انتظار أن تساعدنا الكومبيوترات في تحديد من يصحّ أن نتزوَجهم من غير تردَد؛ ولا نزال ننتظر الماسحات الضوئية القادرة على العثور على مفاتيحنا الضائعة. لا نزال من غير وسيلة ناجعة للتخلّص من العثّ المنزلي. ولا نزال في انتظار أدوية تضمن لنا حياة أبدية. عدد لا حصر له من شركات جديدة لا يزال كامنًا تحت ما لدينا الآن من نواقص ورغبات. سوف يظل تحقيق قسم كبير،


مكتبة ياسمين

لعله القسم الأشد أهمية، من ممكنات حياتنا فاتحًا أبوابه أمام أليات عالم الأعمال والتجارة.

-2-

نظرت في محتويات البروشور الذي يستعرض المشاركين في المعرض، فنشأت لديّ رغبة خاصَة في لقاء الإيراني محسن بهماني الذي اخترع زوجًا من الأحذية للسير على الماء. تتألف كل فردة من فردتي الحذاء من قطعة فايبر كلاس على هيئة مغزل مثبت عليها محرك خارجي صغير، يسمح للمستخدم بالارتحال بسرعة خمسة عشر كيلومترًا في الساعة، مع المحافظة على توازنه بمعونة من عصاتَيِ تزلج معدّلتَين لهذه المهمة. لقد أمضى بهماني سنين طويلة في تطوير هذا المنتج وإتقانه، ثم اختبره على الماء في منطقة قريبة من بيت والدته في مدينة محمود أباد على ساحل بحر قزوين. يتوقَع بهماني أن يلقى هذا الاختراع إقبالًا من أجل الاستخدامات الترفيهية والعسكرية على حدَ سواء.

وضعنا، عبر الإيميل، خططًا كي نلتقي على وجبة غداء في متجر «بيتزا هت» الواقع قبالة صالة المعرض. دخلت وطلبت خبزًا بالثوم مع زجاجة مياه غازية، لكني تلقيت أنباء تقول إنهم اعتقلوا بهماني في مطار هيثرو، بسبب شكوك في إقدامه على إدخال مكوّنات يمكن استخدامها لصنع قنبلة. أخذوه إلى مركز الهجرة في هولسلو بغية استجوابه هناك. أتتني هذه الرسالة من واحد من زملائه اسمه محمد شورابي: رجل توحي لباقته ذات الطراز العتيق، ولغته الإنكليزية المتقادمة، وبدلته المصنوعة من التويد، بنوع من «محبة الإنكليز» لم تعد مصادفته اليوم ممكنة إلَا لدى من


مكتبة ياسمين

صارت صلتهم بالمملكة المتحدة مقيّدة أو مقتصرة على الأعمال الأدبية العائدة إلى حقبة ما قبل الحداثة. قال لي شورابي إنه نجح -على الأقل- في تخليص بروشورات بهماني الترويجية من الجمارك، فعرضها في كشكه. كان الاثنان زميلان في «معهد المخترعين» الذي هو مركز أبحاث في طهران أقامه الرئيس خاتمي، أملًا منه في تحويل إيران إلى واحة ابتكار. وكانت تُعرض هنا خمسة من منتجات ذلك المعهد من بينها حذاء المخترع بهماني.

لما كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة وثلاثين دقيقة، ولما كنت مدركًا أن الرجل لا بد أن يكون قد أنفق طاقة غير قليلة في العثور عليَ هنا، فقد سألته إن كان راغبًا في مشاركتي وجبة الغداء. طلبنا اثنين من «سوبر سوبريم»، وتكلَمنا في اختراع شورابي الذي هو نظام للوقاية من الاصطدام مصمَم للسيارات والدرَاجات الآلية. استنادًا لما وصفه المخترع بأنه أخطاء في قانون الحركة الأول لنيوتن، يشتمل الجهاز على نظام من الأثقال والبكرات يثبّت على عجلة الدراجة، أو على مصدم السيارة الأمامي. قال لي شورابي: «لن يكون أحد مُعرّضًا لخطر الموت في حادث اصطدام بعد الآن». هذا هو شعار شركته. بعد ذلك، أخرج من جيب سترته ورقة من صحيفة طهران تايمز بدأ لونها يتحوَل إلى الصفرة. كان فيها تقرير عن اختبار ناجح لاختراعه أُجري على سيارة جيب في قاعدة عسكرية في «ميانه». رأيت أسفل الصفحة مادة لا صلة لها بالموضوع: الأداء الناجح لعضو الفريق الوطني الإيراني للتزلج، محسن صافي شمشاكي، في مسابقة للتزلج المتعرج في تركيا. عبَر شورابي عن أسفه لأن القيود على الاستيراد منعته من أن يجلب إلى لندن السيارة التي استخدمها في


مكتبة ياسين

اختبار اختراعه، لكنه دعاني إلى زيارة كشكه بعد الغداء كي ألقي نظرة على دراجة أطفال تمكّن من اصطحابها معه. قال إن هذه الدرّاجة تقدم دليلًا كافيًا على صحة المبادئ الكامنة خلف اختراعه. ولما عدنا إلى المعرض، لم أجد حاجة إلى بذل جهد في إقناعه بأن يقود الدراجة في الممرات المفروشة بالسجاد. كان جسمه محدودبًا في انحناءة غريبة فوق تلك الدراجة الصغيرة الشبيهة بالتي كانت عندي في طفولتي. وكان في غضون ذلك، يتكلّم سريعًا بلغة إنكليزية دقيقة النطق -لكني وجدت صعوبة متزايدة في فهمها- مستعرضًا أهمية تدابير السلامة في السيارات والدراجات، ومعرّجًا على ما زعم أنه حصارٌ فرضته الاستخبارات الأميركية على اختراعاته جعل كبرى شركات صناعة السيارات الغربية تقاطعها.

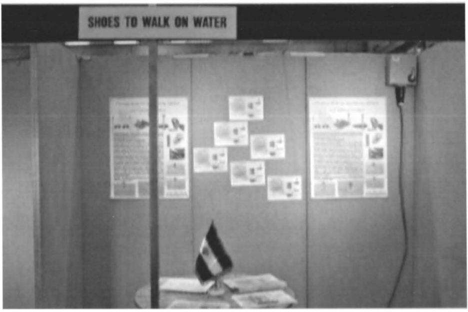

على مبعدة بضعة أشكاك من حيث الإيرانيين، التقيت كارولين أوكلي، التي هي أم شابة من مقاطعة كنت اخترعت «Crisp Bar»، المكوّن من اثني عشر سنتيمترًا من حبوب الإفطار المقرمشة المقلية -تعادل ما نجده عادة في عبوة من زنة خمسة وعشرين غرامًا- مضغوطة معًا في كتلة دبقة واحدة. أتت الفكرة إلى أوكلي خلال لحظة غضب وإحباط لاضطرارها إلى استخدام يديها الاثنتين حتى تتناول وجبتها الخفيفة المفضّلة. كان إحساسها ينبئها بأن منتَجها سيصير واسع الانتشار، مع الوقت، ومع وجود المستثمرين المناسبين، مثله مثل بقية زملائه من منتجات حبوب الإفطار التي تُباع في المتاجر. ما كان معها إلَا نموذج واحد صنعته في البيت؛ وكانت ترحب بأن يمسّه الزائرون وهي تستعرض لهم عددًا من المزايا الواضحة التي تتفوّق فيها حبوب الإفطار المضغوطة على شكل قطعة واحدة على تلك التي تكون في كيس: هي أسهل وضعًا في علب المأكولات التي يأخذها الأطفال معهم إلى المدرسة، وتشغل حيزًا أصغر في خزائن المطابخ، هذا فضلًا عن إمكانية تشكيلها على هيئة أشجار صنوبر من أجل عيد الميلاد، أو على


مكتبة ياسمين

هيئة قلوب من أجل يوم الفالنتاين. وقد كانت مهمة تسويق هذا المنتج من نصيب صديق أوكلي، ذلك الشاب النشط الذي كان واضحًا ما يكنه لمواهب صديقته من احترام كبير. ألحّ عليّ أن أتناول قضمة من زاوية نموذج المنتج، وأن آخذ معي نشرة المعلومات المطبوعة. حاولت التفكير في بقية المنتجات الاستهلاكية التي تستخدم عبوات غالية الثمن مملوءة بالهواء، ومن الممكن، ذات يوم، أن تستفيد من سحقها وضغطها على هيئة هذا المنتج، لكني لم ألبث أن ضيّعت سلسلة أفكاري. تحوّلت إلى التفكير في كيف سيستطيع هذان الاثنان اللذان جلبا إلى المعرض منتجًا اسمه «Crisp Bar» أن يحفظا كرامتهما بعد انسحابهما من هذا المكان الزاخر بطاقة ريادة الأعمال: كيف سيردَان على التساؤلات حسنة النيّة، المهينة من غير أن تقصد ذلك، من جانب الجيران؟ وكيف سيتأمّلان هذه التجربة عندما يصيران آمنين في سن متقدّمة، ولا يعود لديهما تذكار عن هذه المغامرة غير عبوة مطبوعات تسويقية موضوعة في زاوية الغلّية إلى جوار ألعاب تخلى عنها أطفالهما منذ زمن بعيد؟

الظاهر أن ريادة الأعمال معتمدة اعتمادًا تامًا على


مكتبة ياسمين

إحساسِ يقول لأصحابها إن الطلب الموجود حاليًا في السوق ليس إلَا مؤشرًا جبانًا غير موثوق على ما هو ممكن، مؤشر لا يمكن الاعتماد عليه. يرى رواد الأعمال أن غياب منتجات بعينها ليس أمرًا صائبًا ولا محتومًا، بل هو دليل على انقياد القطيع وفقر مخيلته. على أن هذا المناخ يفرض أيضًا على أبطاله امتلاك إدراك صلب لمجموعة حقائق متداخلة، قانونية ومالية، فضلًا عن إحساس صائب بما يعجب بقية البشر. يبدو أن هذا الميدان في حاجة إلى تركيبة من الواقعية وسِعة المخيلة معًا، تركيبة تكاد تكون ندرة وجودها مؤلمةً لمن يتأمل فيها.

-3-

نظرًا لندرة وجود هذا المزيج، فقد كانت مشؤومة رؤية هذا العدد الكبير من الأشخاص الذين تشجَعوا على المضي قدمًا. إنَ الشعبية الواسعة التي يتمتع بها المعرض (فضلًا عن الترويج النشط له من جانب السلطات المحلية، ومن جانب مؤسسة حكومية)، تشير إلى شدَة ارتباط فكرة إطلاق مشروع أعمال جديد بمفهوم «تحقُق الذات»، الذي هو مفهوم حديث. وهو ما يظهر في مجتمعنا من خلال الإعجاب الذي تلقاه قصص رواد الأعمال الذين حققوا نجاحات كبيرة، إلى جانب الصمت النسبي عن قصص الإفلاس، وكثير من حالات الانتحار التي ينتهي إليها زملاؤهم الذين لم يصيبوا نجاحًا. قد تكون الشركة الناشئة حديثًا فكرة مركزية في مُثلنا المعاصرة، مثلما كانت مركزيةً تقاليد الصلاة على أرواح الموتى، أو المحافظة على عذرية الفتيات لدى أسلافنا في العصور الوسطى.

وأما في الواقع، فإن احتمال الوصول إلى قمم المجتمع في يومنا هذا ليس بأفضل، إلا بمقدار

هامشيّ، مما كانت فرصة قبول وافد جديد إلى طبقة النبلاء الفرنسيين منذ أربعة قرون. على أن عهد الأرستقراطية كان أكثر صراحة من زماننا في شأن حظوظ الطامحين إلى هذا الارتقاء؛ ومن هنا، كان أكثر رفقًا. لم يكن ذلك العهد يروّج هذا الترويج الشديد للإمكانيات المفتوحة أمام جميع من يريد بلوغ المستقبل على متن واحد من المنتجات الغذائية؛ وبالتالي لم يكن يقيم هذه المضاهاة القاسية بين الحياة العادية والحياة الفاشلة.

ما أشد حماقة زماننا إذ يعتبر الاستثناء قاعدة. لقد اتضح أمامي الاحتمال الإحصائي للنجاح في سلوك درب الواقع التجاري من خلال رأسمالي مغامر ظريف أتى إلى المعرض لا يتوقّع أن يظفر بالشيء الكثير غير اغتنام فرصة قضاء نهاره كلّه بعيدًا عن مكتبه. قال لي إنه يتلقى ألفي خطة أعمال كل سنة، فيرمي على الفور 1950 منها، ثم يلقي نظرة أكثر تدقيقًا على الخمسين الباقية، فينتهي الأمر بأن يستثمر في عشر خطط فقط. وفي غضون خمس سنين، يفلس أربعة من هذه المشاريع العشرة، وتظلّ أربعة مشاريع غيرها عالقة في ما يسمونه «دورة القبر» التي تعني تدني الأرباح. لا يبقى غير مشروعين اثنين يدرّان إيرادات ذات قيمة تسمح له بمتابعة أعماله. تضمن هذه النظرة إلى النجاح خيبة أمل 99,99 بالمئة ممن يخاطرون ويقدمون على المخاطرة.

إذًا، من جديد، ثمة جمالٌ بطولي أكيد في الدمار الوافر الذي يصيب كلًا من رأس المال والآمال التي تحملها نشاطات روّاد الأعمال. ففي فورة تفاؤل ناجمة عن خطة أعمال تبدو جذابة، يُسلِّم المال الذي تجمّع بطيئًا من أعمال قليلة الشأن، على


مكتبة ياسمين

امتداد عشرات السنين إلى مدير تنفيذي يتمتع بقدرة عابرة على الإقناع، فيسارع إلى إضرام النار فيه من غير داعٍ.

كان مقدرًا لأكثر المشاركين في المعرض أن يرمي بنفسه من فوق جرف النجاح في ريادة الأعمال، فيسقط على الأرض. على سبيل المثال، رأيت أشخاصًا مثل بول مولان الذي جاء بنظام خزائن ذات رفوف توضع تحت حوض الاستحمام كي تكون مكانًا لمنتجات التنظيف ومستلزمات الحمام؛ أو إدوارد فان نورد الذي هو صاحب حانة من أمستردام كرّس مدّخرات عمره من أجل تطوير اختراع اسمه «1 - 2 - 3 أطفئ النار»، إنه نظام إطفاء حريق يُستخدم مرة واحدة، لكن قابلية استخدامه في العالم الحقيقي محدودة جدًا. ليس هذان الشخصان غير اثنين من المشاركين في المعرض ممن سيجدون أنفسهم، يومًا من الأيام، مرغمين على الرجوع إلى طرق أكثر تواضعًا للعثور على حوافز كافية من أجل وجودهم.

مع هذا كله، يصح الاحتفاء برواد الأعمال أولئك، لأنهم يجسّدون جانبًا من جوانب الطبيعة البشرية يتميّز بعناد يستحق الإشادة والتكريم. إنه الجانب الذي يدفعنا، في مجالات أخرى، إلى الإقدام على الزواج من غير أن يُكرهنا أحد على ذلك، وإلى التصرّف وكأن الموت يمكن أن يكون تفاديه ممكنًا. إنهم برهان على مدى تفضيلنا الإثارة مع الكارثة، على الضجر مع التمتّع بالسلامة.


مكتبة ياسمين

عرَجت في ساعة مبكرة من بعد ظهر اليوم نفسه على جلسة لجمعية المخترعين البريطانيين، حيث كان واحد من أعضاء الجمعية يعرض فكرته عن آلة لمزيل الرائحة، مصممة بحيث تُركَب في محطات القطارات -فكرة قائمة على إدراك صاحبها أنه، وغيره من المسافرين، يتعرَق تعرقًا غزيرًا في طريق الذهاب إلى محطات المدينة المزدحمة وأثناء خروجه منها. كان أعضاء الجمعية متحدين في إيمانهم بأن طريقة تنظيم عالمنا اليوم لا تعكس أبدًا كل ما فيه من ممكنات. لقد اعتادوا النظر في بيوتهم، وفي البيئة المحيطة بهم، بحثًا عن أي شيء لا يعمل على أحسن وجه: أكياس قمامة لا تُغلق إغلاقًا جيدًا، أو علب طعام يصعب تنظيفها، أو أعمدة في أماكن وقوف السيارات لعل من الأفضل لها أن تنخفض من تلقاء ذاتها عندما توشك الشاحنات على الاصطدام بها. صحيح أنني لم أخترع شيئًا في يوم من الأيام، لكنني شعرت مع مرور الوقت (ومع ظهور أثر بضع كؤوس من النبيذ طلبتها وقت الغداء)، بأنني قادر على مشاركة هذه المجموعة بعضًا من أفكاري الأولية من أجل نشاطات أعمال لا تزال غائبة عن اقتصاد العالم، ومن بينها نوع جديد من شركات العطلات التي


مكتبة ياسمين

تأخذ السائحين في جولات على المناطق الصناعية بدلًا من المتاحف، وسلسلة معابد علمانية يستطيع الملحدون زيارتها بغية تهدئة حنينهم المضطرب إلى الدين الذي هجروه، ومطاعم ينصبّ تركيزها على تزويد من يأكلون فيها بإرشادات معيّنة بفنون الصداقة وتبادل الأحاديث بدلًا من تركيزها على الطعام نفسه. لكن الأفكار التي طرحتها لم تلق غير صمت متوتر، حتى من جانب المخترعين الذين هم بشر ذوو عقول متفتّحة.

كثيرًا ما يُقال إن أي أحمق يستطيع أن يأتي بفكرة حسنة، إنما قلّة من العقول العظيمة تمتلك القدرة على إطلاق مشاريع أعمال مربحة. لكن الظاهر أن أعضاء جمعية المخترعين البريطانيين قلبوا هذه المعادلة المزعجة رأسًا على عقب (هذا أمر يُسرّ أعين الكتّاب، لأنهم جنس أكثر تلاؤمًا مع التعامل مع الأفكار منه مع معرفة ما يفعله بها). كان أولئك المخترعون يرتقون بصياغة أفكار ريادة الأعمال إلى مرتبة نشاط رؤيوي. صحيح أنهم مرغمون على تبرير مساعيهم بلغة المنافع التي يمكن أن يجنيها أصحاب رأس المال المغامر، لكنهم يظلّون في أعماق قلوبهم مفكّرين طوباويين، توّاقين إلى تغيير العالم صوب الأفضل، اختراعًا بعد اختراع.

-4-

كانت قد دُعي عدد من المتحدّثين ممن يزعمون أنهم أصحاب بصيرة في ميدان ريادة الأعمال، وذلك حتى يخاطبوا الحاضرين في تلك الساعة المتأخرة من بعد الظهر. ألقى الموظف الحكومي تريفور ثوايت محاضرة حملت عنوانًا فيه قدر من الخفة، ولم يفلح في إخفاء القلق الكامن في موضوعه، «كيف نحوّل الفكرة الجوهرة إلى خزانة عامرة

بالمال». كان الحضور ثلاثة أشخاص من بينهم رجل من ماليزيا اخترع مانعة صواعق محمولة.

إلّا أن الصالة صارت أكثر امتلاء بالحاضرين عندما حظي المعرض بمساهمة شخص سيكون آخر المتكلّمين. إنه صناعي شهير من سكوتلندا يكاد يكون معروفًا في كل مكان باسم السير بوب. على امتداد أربعين سنة أمضاها في عالم الأعمال، جمع السير بوب مليار باوند؛ وقد اعتزم أن يذهب هذا المال كله عند موته إلى مكتبة جامعة غلاسغو، وذلك، في جزء منه، حتى يُعلّم طفلَيه شيئًا عن قيمة المال. كانت بداية السير بوب من بلاط الحمامات. فبعد إدراكه عندما كان سبّاكًا متمرّنًا في السادسة عشرة من عمره أن ذلك القطاع كان شديد البرودة والهدوء، أقام سلسلة مستودعات عرض فيها ثمانية آلاف نوع من أنواع البلاط المصنوع في رومانيا مقابل جزء بسيط من أسعار البيع بالتجزئة. هذه المتاجر الضخمة ذات الإنارة الساطعة، حيث تتردّد أصوات المديرين المنهالين على الزبائن بمعلومات كثيرة عن تخفيضات على الأسعار لا يجوز تفويتها، كانت إعلانًا عن موت كل متجر بلاط صغير من أبردين حتى سينت ايفز.


مكتبة ياسمين

وكانت على صلة وثيقة بما تحمله أذهان الناس من ذكريات مريرة عن تلك المرَات الكثيرة التي أُحبطت فيها مشاريعهم لشراء البلاط نتيجة الطقس الماطر. ثم أتت الجوهرة الجديدة في تاج السير بوب فكانت سلسلة نوادٍ رياضية أفلحت في جني القسم الأكبر مما جنته من مال خلال الأسبوعين اللذين أعقبا رأس السنة، وذلك من أشخاص تشغل بالهم بدانتهم الزائدة، إلى حدّ ألهاهم عن قراءة الشروط التفصيلية الملحقة بعروض العضوية في تلك النوادي. ثم كان من المناسب تمامًا أن يعقب ذلك إنشاء خمسين متجرًا في سكوتلندا وشمال إنكلترا، تقدِم خدماتها إلى ما دعاه السير بوب «السيدة الكبيرة». والآن، صارت مصالحه الكثيرة ممتدة من الرعاية الصحية حتى الخدمات المالية. صار من جملة أملاكه أكثر من عشرة جسور على طرق السيارات في الدانمارك، فضلًا عن مصنع للأسمنت في ألبانيا.

كان رئيس جمعية المخترعين البريطانيين مكلفًا بمهمة تقديم السير بوب للحاضرين. لكنه أساء التعبير عما يكنه من نية حسنة بأن استطرد كثيرًا في الكلام على رحلة حملته إلى جزر الباليار، وكذلك على تفاصيل الخطط الموضوعة لحفل زفاف ابنه، قبل أن يقول بكلمات بطيئة على نحوٍ استثنائي، إن مما يشرَفه كثيرًا ويشرف رفاقه من منظمي المناسبة أن يستضيف السير بوب، الذي كان واقفًا إلى جانبه، وعلى وجهه تعبير جامد وفي قدميه حذاء ذو كعب ثخين، فبدا كأنه نادم على قبوله هذه الدعوة بعد تتالي فصول ذلك التقديم الذي طال كثيرًا، حتى ظنه لن ينتهي.

أخيرًا، عندما جاء دور السير بوب البالغ طوله


مكتبة ياسمين

مترًا واحدًا وخمسين سنتمترًا في الوقوف خلف المايكروفون، بدا الرجل أدنى إلى الغضب منه إلى أن يكون تجسيدًا لعنوان كلمته -«رائد الأعمال الموجود في كل واحد منا»- ولعله كان أكثر قربًا إلى الغضب مما توقَّعه الحاضرون. انطلق الرجل في هجوم لاذع، ذي إيقاع سكوتلندي، على البيروقراطيين والأنظمة المعقدة، والمسيئين، والطفيليين، وممولي الصناديق الاستثمارية، ومفتشي الضرائب قبل أن ينتقل تركيزه إلى عشرة أمور عن فنَ جني المال تعلَّمها على امتداد عشر سنوات من عمله. لكن ما كان مبعث أسف، هو أن القائمة التي قدَّمها كانت شديدة الابتذال، إما لأنه أراد إبقاء الأسرار الحقيقية دفينة في قلبه إلى أن تصير في أمان تام معه عندما يذهب إلى القبر وتصير أمواله في طريقها إلى هيلهيد، أو لأنه لا يعرف على وجه التحديد كيف أو لماذا نجح وهو ابن عامل ميناء عاطل عن العمل في كلاسغو، في أن يصير واحدًا من أوسع الناس ثراء على وجه البسيطة. إن كان الأمر كذلك، فلعله استقى بعض الأفكار عن المواهب التي قادته إلى النجاح من كتب الأعمال التي تباع في أكشاك الصحف في المطارات.

مهما تكن نقاط قوة السير بوب، فقد بدا أن القلق هو الميدان الوحيد الذي يمكن القول إن له تميزًا فيه. لقد اشتهر بقدرته الدائمة في العثور على «عيوب» في تواضع حال الآخرين -هذا ما يوحي بأن نوعًا بعينه من أنواع الذكاء قد لا يكون، في جوهر الأمر، أكثر (أو أقل) من قدرة متميزة على أن يكون المرء غير راضٍ عن شيء-. أقرَ الرجل بأن لديه انعدام ثقة تامًا بموظفيه جميعًا، وبالمقاولين الفرعيين جميعًا، وبأن هذا ما يجعله دائم الإصرار على أن يوقّع بنفسه على كل ما تنفقه شركاته، فضلًا


مكتبة ياسمين

عن إقراره بأنه يسهر حتى ساعة متأخرة من كل ليلة كي يدقق جداول حساباته. لا شك في أنه يسهر أكثر من إدوارد فان نورد، صاحب «1 – 2- 3 أطفئ الحريق» الذي ينام نومًا هانئًا في بيته في ضواحي أمستردام.

إن بنا نزوعًا إلى التعلّق بفكرة أن الخصال البشرية كلها ينبغي أن تكون متوافقة أو منسجمة. فكرة أننا يمكن أن نتمتّع بالجمال والفطنة معًا، بالحذر والاسترخاء معًا، بالموهبة والتوازن معًا. ولكن، كان واضحًا أن السير بوب -مهما تكن إنجازاته موضع إعجاب، ومهما تكن طاقته كبيرة- ليس بذلك الشخص الذي يسعد امرأة أن تكون زوجته، أو يسعد أحدًا أن يكون ابنه.

على أقل تقدير، كان السير بوب شخصًا ديمقراطيًا إلى حد يثير الحماسة. فقد كان يرفض، في أي ميدان من ميادين الأعمال التي فكر فيها، تصديق


مكتبة ياسمين

أن تحقيق النجاح يمكن أن يكون مستحيلًا بالنسبة إلى شخص مثله. لقد زوّدته نشاطاته المتنوعة بإحساسٍ حادّ، إلى درجة غير معتادة بـ«كيف تسير الأمور»، فحرّره هذا من المنظور الطفولي الساذج الذي لا يزال أكثرنا يرى العالم من خلاله. لقد نظر إلى عجائب الصناعة والمال المحيطة بنا من كل ناحية، تلك التي نفترض أنها محتومة، مثلها مثل مظاهر الطبيعة على كوكب الأرض -المستودعات ومراكز التسوق وأبراج التسوق والمنتجعات- فلم ير فيها نتاجًا لعمليات غامضة أو بعيدة عن متناوله، بل نتاج جهود أشخاص ليسوا مختلفين عنه كثيرًا: أشخاص مقدامون، مجدّون في عملهم، يرون أنهم قادرون على صوغ أقدارهم بأيديهم. أدرك كيف السبيل إلى النجاح. أدرك كيف يموّل سوبر ماركت، ويشرع في بناء ناطحة سحاب من اثنين وخمسين طابقًا. أدرك أين يستطيع العثور على محامٍ يساعده في الاستحواذ على منصة للتنقيب عن النفط، وكيف يفاوض حكومة أستراليا بغية شراء مدارس خاصة في مقاطعة نيو ساوث ويلز. كان قادرًا على النظر إلى أي مشهد بطريقة تجعله واثقًا من أنه ليس من صنع الرب، بل من صنع أشخاص ليسوا مختلفين عنه كثيرًا. بهذا المعنى، على الأقل، كان الرجل «ناضجًا» حقًا.

بعد فراغ السير بوب من إلقاء كلمته، جاء الوقت المخصص للأسئلة، فاغتنم رجل ذو مظهر جاد الفرصة كي يقف ويسأل عما جعل السير بوب يقرّر أن يترك ثروته لمكتبة الجامعة. احتكامًا إلى إجابة السير بوب التي كانت شديدة الاقتضاب، يمكن القول إن ذلك السؤال أزعجه، أو أضجره. ذكرني هذا بسلوك كثير من البارونات، على امتداد التاريخ، ممن كانوا ينفقون حياتهم العملية كلها في نهب


مكتبة ياسمين

الأرض وفي مراقبة العاملين لديهم، ومضايقتهم. لكنهم لم يلبثوا أن قاربوا موتهم، فوضعوا أسلابهم كلّها، من غير ضجيج، في مؤسسات لا تزال حتى يومنا هذا توزع المال على أرواح مسكينة أصابتها رغبة مفاجئة في كتابة دراسة عن بواكير الشعر الآشوري أو في عزف البوق - وكأن البارونات أحسّوا آخر الأمر بأن ما من خيار أمامهم غير إعادة توجيه طموحاتهم وجشعهم إلى المال، صوب ناحية أخرى رجاء أن يظهروا أشخاصًا طيبين بأكثر الطرق تقليدية.

-5-

غادرت لقاء رواد الأعمال، وقد انتابني مزيج من الألهام والإحساس بالخيبة. أدركت أنني معجب بأصحاب الرؤى الذين كان من بينهم محسن بهماني (مخترع حذاء السير على الماء)، ممن سعت مشاريعهم الوليدة إلى الاستفادة من رغبات أهملتها المشاريع الكبيرة. لكنني أدركت أيضًا مقدار ما كانت أهداف أولئك الرجال والنساء النشطين واقعة تحت خطر سوء فهمهم الواضح لما يفعله الناس، في العالم الواقعي، عندما يتخذون قرارات في أمور، من قبيل اجتياز بحيرة، أو تناول وجبة خفيفة، أو ترتيب منتجات التنظيف في الحمام، أو إطفاء حريق. إن أولئك الناس يكتبون قصصهم المنتمية إلى نوع فرعي من أنواع الأدب المعاصر هو «خطة الأعمال»، ويجعلون تلك القصص ممتلئة أبطالًا لهم شخصيات غير قابلة للتصديق، أو يسهون عن أمور كثيرة يؤدي بهم إغفالها إلى الفشل في تحقيق قدر مقبول من المبيعات، وإلى إغلاق مشاريعهم سريعًا، بدلًا من أن تنال ثناء المعلّقين.

على النقيض من أولئك القوم، لا سبيل إلى القول


مكتبة ياسمين

إن السير بوب لم يحسن معرفة علم النفس. لقد استوعب ما لدى عامة الناس من حب لمواقف السيارات الفسيحة، ولكثرة الإعلان عن صفقات بأسعار مخفضة لشراء مستلزمات الحمامات. أدرك هذا الرجل كم يمكن أن يصيبنا الذعر عندما نحسّ بأن مقاس أفخاذنا قد ازداد، وأدرك كم يمكن أن يستبد بنا الجشع عندما نصادف نقانق معروضة بأسعار منافسة جدًا (منذ سنوات قليلة، استحوذت شركته القابضة على نصيب مجزٍ من سلسلة متاجر للمأكولات السريعة في هامبورغ اسمها «*Goldene Bratwurst*»). مع هذا الفهم العميق لما يُشغل أذهان الناس في هذا العالم، أظهر السير بوب ذلك النوع من الكسل الذي لا يطيق رؤيته عند الآخرين، حين طُلب منه أن يتعمَق قليلًا في المعنى الكامن في نشاطه المحموم. بدا كأن لديه اهتمامًا عابرًا، لا أكثر، بالغاية العامة لمراكمة المال؛ وكان واضحًا أنه لم يهتم بتقصي ما إذا كانت التجارة قادرة، في حدّ ذاتها، على تحقيق أيٍّ من المنافع الاجتماعية التي عزاها ساخرًا إلى الثُقاةِ من الناس وإلى ميدان «الإحسان» الخالي من معاني الرجولة.

مع هذا، يظلّ من شأن اندماج مُتخيَل بين أفضل الجوانب لدى كل من «صاحب الرؤية» و«السير بوب»، أن ينتج شيئًا قد يماثل صورة رائد الأعمال النموذجي. إن شخصية ناشئة عن «انصهار» الطوباوي والعملي معًا تنتج شخصًا ناجحًا لا في تحديد احتياجاتٍ مهمةٍ فحسب، بل أيضًا في التعامل مع تحديات البيروقراطية والتمويل، بغية تجسيد استجابة لتلك الحاجة وإكسابها شكلًا مؤسساتيًا، فتصير قادرة على أن تُحدث أثرًا في حياة الناس لا تستطيعه النظرية وحدها.


مكتبة ياسمين

على أن هذا النموذج لم يكن مقتصرًا على حيز المخيّلة وحده: إن في الحياة الحقيقية جملة كبيرة جدًا من حالات نجح فيها رواد الأعمال في تأسيس مدارس مبتكرة، وتجمعات سياسية تقدمية، وأشكالٍ جديدة من الاجتماع البشري، والتكنولوجيات الجديدة ذات الأثر الكبير في الحياة. أعرف أن لديّ إعجابًا عميقًا بهم لأن كل ما صادفته من قصص نجاحهم عبر وسائل الإعلام، أو عبر ما سمعته من أصدقاء قدامى في الحفلات، كانت له قدرة استثنائية على أن يقذف بي إلى حالة من الحسد والإحساس بالنقص. فهؤلاء الأشخاص الذين يُقدِمون على خوض المشاريع، لم يهربوا عائدين إلى أحلامهم -مثلما فعلتُ- عند أول ذكر لضرائب المبيعات أو سجلّات الموظفين، بل أفلحوا في الاستمرار والبقاء في مواجهة الصعوبات المالية والقانونية؛ وكانوا قادرين، نتيجة ذلك، على جعل تحليق خيالهم يكتسب أبعادًا مهمّة، ويحقّق لهم أرباحًا وفيرة. إن علاقة هذه النماذج المثالية بـ«المثقّف المحض» شبيهة بعلاقة طاهٍ صاحب مطعم بشخص يؤلّف كتب الطبخ.

إن كان ثمة ما يبرّر إظهار هذه الاعترافات البائسة بالحسد على الملأ، فهو أن من المستبعد كثيرًا أن يكون ما أحسّه، في هذا السياق، حالة فريدة مقتصرة عليَّ وحدي. كثيرٌ إلى حدَ مفاجئ عددٌ من يميلون منا (نحن الذين لم نحقّق ذواتنا بعد)، إلى التعبير، في لحظات خاصة، عن إدراكنا الكيفية التي يمكن تغيير العالم بها صوب الأفضل من خلال أن نصوّر لأنفسنا مشاريع كثيرة نحب أن نباشرها. وقد نذهب إلى ما هو أبعد من هذا، فنجرّب الخوض في تأملات تفصيلية في أمور من قبيل: كيف ينبغي أن تكون المظلّة المعلّقة فوق واجهة متجرنا، أو


مكتبة ياسمين

كيف تنبغي صياغة الإعلانات الخاصة بما نعرضه من خدمة جديدة. الظاهر أن أحلام اليقظة الممتعة هذه، الأحلام التي نستغرق فيها استغراقًا تامًا، نابعةً من تلك الجوانب نفسها في شخصياتنا التي كانت تجعلنا -في الطفولة- نستمتع بإقامة متجر للبقالة في زاوية المطبخ، أو بافتتاح فندق في صندوق كبير من الورق المقوى في حديقة البيت. وكأن هناك نوعًا من دافع بشري عميق دائم الوجود يجعلنا نحاول إعطاء بعض الأفكار التي تثير حماسة عميقة في نفوسنا صيغةً ريادة الأعمال.

عقدت العزم إلى أن أعود إلى هذا المعرض في سنة من السنين بـ«حذاء عائم» اخترعه بنفسي.

# الفصل العاشر
# عالم الطيران
## -1-

تمرّ بي أزمان أجد نفسي فيها عاجزًا عن كتابة أي شيء، فأمضي أيامًا بطولها مستلقيًا في سريري متسائلًا عن الغاية من عملي كله. وخلال فترة من هذا النوع، تلقيت مكالمة من صحيفة في سلوفينيا -لم أسمع بها حتى ذلك الوقت- تسألني إن كنت راغبًا في السفر إلى باريس نيابة عنهم بغية كتابة مقالة عن معرض الطيران في لوبورجيه، الذي هو مناسبة تقام كل سنتين، حيث يجتمع صانعو الطائرات بممثلي الخطوط الجوية والقوات الجوية في العالم، ويحاولون إثارة اهتمامهم بعجلات طائراتهم وراداراتها وصواريخها والستائر التي على نوافذها.

كان أمل محرِّر الصحيفة معقودًا على قدرتي على أن أنقل للقراء -نحو مئة ألف شخص في لوبليانا والتلال المحيطة بها- ما أطلَق عليه «بهجة الطيران»؛ وقد حثّني على الانتباه إلى أية «اختراقات تكنولوجية» قد يكون من شأنها إحداث تغيّر في عالم الطيران («دوش في السماء؟»... اقترح هذا كي يكون مثالًا على ما أراد قوله). أبدى الرجل أسفه لقلة الأجر الذي يعرضه، ولتواضع مكان إقامتي في فندق يشرف على الطريق السريعة إلى باريس، لكنه أضاف قائلًا إن لديه تصريحًا بحضور مؤتمرات صحافية مهمّة، من بينها واحد كان من المقرر أن يلقي فيه أحد أفراد الأسرة الحاكمة في أبو ظبي، الشيخ أحمد بن سيف ال نهيان، كلمة يعلن فيها عن شراء اثنتين وعشرين طائرة


مكتبة ياسمين

ايرباص A380، بغية تعزيز مكانة الإمارة في ميدان الطيران حتى تصير نقطة بارزة على خارطة الأسفار الجوية حول العالم.

لما كان المعرض مقصورًا، في اليومين الأولين، على الأقل، على العاملين في صناعة الطيران وعلى الصحافيين، فقد اتسم بجو من الهدوء وروح المودة كتلك التي يلمسها المرء بين الضيوف المدعوّين إلى حفل زفاف. فهناك، يحدث كثيرًا أن يكلّم المرء أشخاصًا واقفين في صف الانتظار للحصول على زجاجة مياه، أو أن يبدأ حديثًا مع شخص غريب يتناول فطيرة بالشوكولا على وقع هدير طائرة التجسس G550 وهي ترقص في سماء إيل دو فرانس، فتنفتح آفاق جديدة أمام عينيه: على سبيل المثال، مغزى الحياة عندما يكون المرء ضابطًا برتبة عقيد في القوات الجوية في الغابون.

كانت صالات المعرض القريبة من مدرج الطائرات موزعة على البلدان، وكانت تنطق بالطبائع الوطنية المختلفة، مثلها مثل أجزاء ومكوّنات الطائرات نفسها. كان السويسريون متخصصين في الأدوات الملاحية، والبرازيليون متميّزين في صناعة مراوح الطائرات؛ وكان الأوكرانيون يحاولون، مع ضآلة


مكتبة ياسمين

فرصهم، إثبات أنفسهم في ميدان السبائك المعدنية وتجهيزات الهبوط.

مع أن السلع المعروضة هناك كان باهظة الأثمان إلى حدَ غير مألوف، فقد تظاهر الآتون بغية «تسوّق» معدات الطيران بأنهم ممن يتأثرون بأساليب البيع في الأسواق الراقية، ومن بينها جاذبية ملكة جمال السويد السابقة التي ظهرت مرتدية بدلة ضيقة من جلد لامع أسود، أو بإغراء التزاحم من أجل الحصول على عطلة نهاية أسبوع مجانية في «يورو ديزني». ثم أتى وقت الغداء، فأفسحت أجنحة شركات كثيرة متسعًا لتقديم مأكولات من بلدانها، أملًا في أن تفلح في جعل مشترٍ محتمل، عَدَل عن اختيار صهريج طائر لإعادة التزود بالوقود جوًا من صنع غاليسيا، على النظر إليه مجددًا بعين أكثر تحبيذًا بعد تناوله شرائح من اللحم المقدَد. أتى ممثلو مصنع قائم عند سفوح جبال الأورال بقالب جبن ضخم مغلَف بالكتان، واستخدموا سكينًا في تقطيعه إلى مكعبات صغيرة رتَبوها من حول علم الاتحاد الروسي، أملًا في استقطاب أنظار الزائرين إلى أهم ما تعرضه شركتهم: حوامل مجموعات عجلات طائرات الشحن العسكرية.

لعل من الطبيعي أن تجتمع مشاعر الإشفاق من حول بعض الأجنحة الأقل استقطابًا للزائرين. لقد كان واضحًا أن ما من جزء من أجزاء قطاع الطيران يستطيع أن يكون في منجى من منافسة مدمَرة. بل إن ميادين متخصَصة إلى أقصى حدَ -مثلًا، الأنظمة المضادة للأكسدة من أجل جنيحات الطائرات- لا تكاد تعثر لها على ما يضمن لها المناعة في مواجهة المنافسين. الظاهر أن ما من سلعة في


مكتبة ياسمين

العالم لم يشرع في إنتاجها، في وقت واحد، ما لا يقل عن خمس شركات. مع هذا، لم تفلح طبيعة العمل في هذا الميدان الذي يسهل فيه الوقوع في هاوية الإفلاس في أن تكون حجة كافية لإقناع الناس بالإقلاع عنه. في الدوائر العليا في حكومة المملكة العربية السعودية، تم اتخاذ قرار بحجز جناح يمثل قطاع الطيران في ذلك البلد، مع أن هذه الصناعة، إن أردنا الحق، لا وجود لها في واقع الأمر. كان حجم الجناح مضاعفًا بالمقارنة مع بقية الأجنحة؛ وكانت فيه ثُريّات، وأرائك جلدية، وجدران مغلفة بمخمل بلون رملي يستحضر إلى الذهن ألوان الجبال من حول مدينة الطائف. لكن مدير الجناح ظل أكثر الوقت جالسًا وحده، لأن ما من أحد يتحدث إليه. كان يرتدي بدلة بنية وربطة عنق وينظر صامتًا إلى البلح الموضوع في طبق من الستانلس ستيل. لو لم يأت إلى باريس، لكان من شأن هذا أن يكون إقرارًا بأن المملكة لا تصنع طائرات؛ وهذا ما قد يعني أنها غير مهتمة بالابتكارات التكنولوجية، وأنها متخلية عن أي مسعى إلى أن تكون في صف الأمم المتطلّعة إلى المستقبل. لكن المشاركة في المعرض -بهذه الطريقة- كانت أشبه بتأكيد غير مباشر على وجود المشكلة التي يحاول هذا الجناح أن يكون ردًا جريئًا عليها.

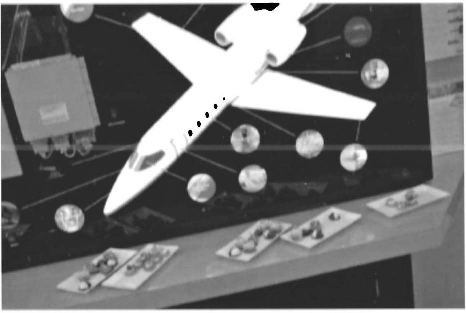

تعاملت أجنحة روسيا وشقيقاتها مع مشكلاتها بقدر أكبر من الحماسة. فالصفقات الجوية التي تتطلَب في الغرب التزامًا بأنظمة وتفاصيل بيروقراطية تفصيلية كانت تجري هنا بسهولة تدعو إلى التفاؤل. لقد كان ممكنًا إيداع دفعة أولية فورية لشراء منظومة صواريخ، أو قمر صناعي سوفييتي، أو أية سلعة من تلك السلع التي أكثروا من الترويج لها عن طريق أفلام قصيرة، لعلها تمثل محاولات المدير الأولى في فن السينما. أفلامٌ تظهر فيها آلات تندفع في الجو ترافقها تعليقات بأصوات رجولية متأثرة بالأسلوب الأميركي. فبعد بقائها زمنًا طويلًا فريسة الإهمال، صارت فنون البيع الآن تُمارس بنشاط غير معتاد من جانب أشخاص اجتهدوا في قراءة كتب من قبيل «*العادات السبع لدى أصحاب الفعالية الكبيرة*». وللأسف، كانت الأسماء التجارية المعروفة وسيلةً من أهم وسائل توفير الطمأنينة اللازمة للمشترين -إنها القاعدة الغالبة في عالمنا الاستهلاكي. مشكلةٌ بدا لي أن شركة «فولغا للطائرات المدنية المتطوِّرة» تجد صعوبة في العثور على وسيلة للالتفاف عليها.


مكتبة ياسمين

في بحثي عن «الاختراقات» التكنولوجية التي طالبتني الصحيفة السلوفينية بالبحث عنها، اتجهت إلى جناح واحدة من شركات صناعة الطائرات اليابانية يعرض طائرة ركاب جديدة ذات سبعين مقعدًا، مع وعد بتكاليف تشغيل متدنية بفضل عدد من التطويرات في تصميم الأجنحة، لكن فهم الطبيعة الدقيقة لتلك التطويرات كان أبعد من قدراتي. لقد جلبوا إلى باريس نموذجًا بالحجم الحقيقي لداخل الطائرة شحنوه من يوكوهاما؛ وكان ممكنًا أن يدخله المرء بموجب موعدٍ محدّدٍ في وقت سابق. قدّمت بطاقتي إليهم، وقدّموا إليّ بطاقاتهم، ثم قادني إلى داخل ذلك المجسّم رجلان مكلّفان بالمبيعات والتسويق، لكن علائم الخجل وقلّة الثقة بادية عليهما. أغلقا باب الطائرة من خلفنا، ثم جلسا في مقعدين إلى جانبي الممر وحدّقا صامتين في حجرة القيادة المتخيّلة أمامهما. تمنّيت لو كان ممكنًا، من خلال خدعة عجيبة، أن تبدو الطائرة كأنها تقلع بنا؛ لكن الظاهر أن تلك الزيارة (التي تقضي اللباقة بأن تستمر بعض الوقت) ليس لها موضوع واضح، فهي مصممة حتى تتيح للمشترين المحتملين إلقاء نظرة فاحصة على


مكتبة ياسمين

المقاعد والممر الذي بينها. فعلت ما يحتمه الواجب، فأثنيت على جودة ما رأيت موجهًا الكلام إلى ذينك المضيفين كأنهما صنعا كل شيء بنفسيهما. خفت ضجيج المعرض بعد إغلاق الباب فجعلنا، ثلاثتنا، منتبهين إلى صعوبات التواصل البشري انتباهًا غير باعث على الارتياح. بدأت أتخيل أننا غادرنا ضواحي باريس، وارتحلنا عبر جزء من الغلاف الجوي يغمره ذلك الضياء البنفسجي الآتي عبر النوافذ من جناح شركة «برات آند ويتني» المجاور لنا. وبعد انقضاء زمن أحسسته طويلًا جدًا، انفتح الباب من جديد وخرجنا. ناولني مدير التسويق مجموعة بطاقات عليها صورة الطائرة، وقال لي إنه يأمل في رؤيتي مرة أخرى - لكني أحسست جوًا من الكآبة يلف المكان، فجعلني ذلك أتساءل إن كانت هذه الشركة ستنجح يومًا في إحراز ما ترجوه من تفوق في سوق الطائرات النفاثة متوسطة الحجم، المخصصة للرحلات القصيرة.

أمضيت بضع دقائق عند جناح ثاني أكبر شركة في العالم لصناعة محركات الطائرات. نظرت إلى مندوبة المبيعات الشابة ذات الجاذبية غير المعتادة، بشعرها الكستنائي المنسدل حتى كتفيها. كانت



مكتبة ياسمين

ترتدي بدلة بلون بني خفيف، وتقضم ظفر سبابة يدها اليسرى وتلف ساقًا على ساق مستندة في وقفتها إلى مروحة محرك ضخمة. لم تكن أول امرأة من نوعها أراها ذلك اليوم، لكني أبصرت فيها ما جعلني أغرق في تفكير عميق. حتى ذلك الوقت، كنت مقتنعًا بأن كثرة اعتماد البائعين على الجاذبية الأنثوية ليست إلَا أسلوبًا سوقيًا يراد منه استقطاب اهتمام مديري شركات النقل الجوي، من خلال إيحاء ضمني أن إبرام صفقة قد يقرَبهم من مندوبة مبيعات جميلة. لكني بدأت أنظر إلى الأمر نظرة مختلفة. بدا واضحًا أن ما من طلب شراء قادر حقًا -مهما يكن مربحًا- على جعل تلك النسوة في متناول المشترين. يعني هذا أن وجودهنَ في أجنحة المعرض بدأ يكتسب، في نظري، أبعادًا أكثر سلامة ونجاعة من الناحية التجارية. وظيفتهنَ الحقيقية هي أن يكنَ تذكرة بأن الجمال غير متاحٍ لمرتادي المعرض المؤلف أكثرهم من رجال في أواسط العمر، تبدو عليهم سيماء الاستعجال والانشغال الشديدَين. كان وجود النساء دعوة إلى أن يزيح الرجال جانبًا كل تطلعات رومانسية كي يركزوا على عملهم وعلى برامجهم التكنولوجية. فبدلًا من كونهنَ «مُغويات»، كانت تلك النسوة أشبه بـ«مهاميز» تحث على السموَ والتهذيب، أو رمزًا لكل ما سيكون عليه المشترون أحسن حالًا إن هم نسوا أمره، بغية حصر اهتمامهم بآلاف من الأجزاء والتجهيزات ذات الهندسة الدقيقة المعروضة في هذه الأجنحة.


مكتبة ياسمين

من ناحيتي، ولمَا كنت محكومًا بأولويات الصحيفة السلوفينية، فقد ذهبت كي أحضر بضع مؤتمرات صحافية. الظاهر أن كل مؤتمر صحافي يبدأ بمشكلة في المايكروفون. رجال جالسون إلى طاولة مزيّنة برايات شركاتهم، يعلنون أمام الصحافيين عن الصفقات التي أبرموها. في أكثر الأحيان كان صعبًا اكتشاف ما قد تنطوي عليه تلك الصفقات من أهمية، لأن كلامهم ظل زاخرًا برموز ومختصرات تنتصب سدًا منيعًا في وجه فضول العقول التي تتغذى على ما تقدمه إليها الصحافة العادية من زاد بسيط خالٍ من هذا الغموض كله. قرأت في نشرة «فلايت ديلي نيوز» أن UPS قد اختارت ADS-B من أجل الجيل التالي من طائراتها؛ في حين ذكرت صحيفة «أڤييشن إنترناشونال» أن شخصًا اسمه كلينوف يضع VK800 في مواجهة P&WC T6. إن من شأن غموض هذه الأمور التي تعتمد عليها معيشة العاملين في مصانع كثيرة على امتداد قارات العالم كلّها، أن يكون تأكيدًا على هامشية القصص التي عادة ما نجدها في الصحف اليومية، تلك القصص التي لا تجد أمامها خيارًا غير أن تصب اهتمامها على جرائم القتل، وعلى


مكتبة ياسمين

الأفلام وحالات الطلاق، لأنها لا تستطيع توقّع أن يتمتع قراءها بالقدرة على متابعة أي من التطورات الحقيقية الجارية في تتابع غامض في ميادين العلم والاقتصاد، مع أن مستقبلنا يعتمد عليها.

أرسلت بلدان كثيرة وفودًا عسكرية لمعاينة معدات جديدة وشرائها. ففي طريق العودة من المعرض إلى الفندق، كان يكثر أن أصادف ضابطًا يشغل منصبًا رفيعًا في القوات الجوية، في أفقر


مكتبة ياسمين

بلدان العالم، جالسًا في القطار وعلى صدره صفوف من أوسمة تشير إلى إنجازاته الحربية البعيدة كل البعد عن مجرى حياة رفاقه من الجالسين في القطار، وهم في طريقهم إلى أعمالهم ومكاتبهم. في واحد من تلك القطارات في صبيحة آخر يوم من أيام المعرض، بدأت الحديث مع ثلاثة من مبعوثي دولة من دول وسط آسيا. كان كل منهم يحمل حقيبة صغيرة فيها منشفة وملابس داخلية، لأن سخان المياه في فندقهم قد أصابه خلل (أرغمني هذا على إعادة التفكير في محاسن فندقي)، ولأن ضباط القوات الجوية أولئك سمعوا بأن في معرض الطيران مرافق يستطيعون الاستحمام فيها.

من حيث المبدأ، كان أولئك الرجال مهتمّين بطائرة مقاتلة هجومية ذات محرّكين. ومع أنهم غير قادرين على دفع المال اللازم لشراء طائرة «تايفون يوروفايتر»، فقد تقدموا صوب الشركة الصانعة بثقة جديرة بمفاوضين مخضرمين وبترفّع يوحي بأنهم لن يجدوا أية صعوبة في التوجه إلى مكان آخر للعثور على طائرات بديلة ذات أجنحة مثلثة، إن تعذّر الوصول، في هذا المكان، إلى شروط مناسبة لهم.

مكتبة ياسين

جعلهم مندوب مبيعات طائرة يوروفايتر يصعدون السلم إلى قمرة الطائرة. وهناك، ظهر بينهم ما بدا أنه تنازع على الزعامة، فضلًا عن تبادل كلمات ذات نبرة عنيفة قبل أن يتوصَلوا إلى الاتفاق على ترتيب تسلسل جلوسهم خلف مقود الطائرة، في حين كان الثالث في الانتظار ينظر إلى زميليه نظرة شك تقول إنه منتبه إلى ما قد يكون إشارة إلى سوء معاملة يستهدفه. ومن خلال الجدران الزجاجية، كان مرئيًا من خلف مدرج المطار صف من بيوت صغيرة لها شرفات امتدت على أكثرها حبال الغسيل. لكن عيون أصدقائي بدت، عندما كانوا ممسكين بمقود الطائرة، كأنها تتخذ وجهة أخرى مختلفة كل الاختلاف. لعلّهم تخيلوا الطائرة منطلقة فوق جبال بامير بسرعة تتجاوز ضعفَي سرعة الصوت، على امتداد جليدية فيدتشينكو، بعد أن أفرغت على العدو حمولتها من صواريخ «ستورم شادو»، فوضعت طيَ الماضي ذكريات الحروب السابقة بما كان فيها من ليالٍ صقيعية في الكهوف مع رائحة أنفاس الجمال في الفجر الندي.

علمت قبيل اختتام الفترة المسائية من آخر يوم من أيام المعرض أن الشيخ أحمد بن سيف آل نهيان ألغى زيارته، وأنه سيُصدر -بدلًا من قدومه شخصيًا- تصريحًا صحافيًا يوضح أهم النقاط في الصفقة التي بلغت قيمتها اثنين وعشرين مليون دولار. ولما كنت راغبًا في تأخير عودتي إلى غرفة الفندق الخالية، إلى أقصى حدَ مستطاع، فقد تجوَلت في جناح «إيرباص» وتفحصت نموذجًا ذا جدران شفافة لطائرة لم يتم صنعها بعد، وتأمَلت معجبًا صف المقاعد الصغيرة داخل النموذج، مفكرًا في الخطط الطموحة الموضوعة من أجل التطوير المستقبلي لدرجة رجال الأعمال. الان، وصلت فرق


مكتبة ياسمين

التنظيف بعد أن انصرف أكثر الموفدين والمندوبين، وبدأت مسح آثار الأصابع عن المحركات، وترتيب البروشورات على الطاولات. بدا الأزيز المتواصل الصادر عن مكانسهم الكهربائية كأنه تشكيك في ما يشير إليه أصحابه باسم «عائلة إيرباص». لأول مرة منذ أيام، وجدت نفسي مفكرًا في أمر لا علاقة له بالطيران.

اتضح لي أن مخاوفي في شأن قضاء هذه الأمسية كانت من غير مبرر لأني عدت إلى الفندق، فاكتشفت أنه أقام احتفالًا بمناسبة انتهاء المعرض. انتبهت إدارة الفندق إلى أن أكثر النزلاء لديها على صلة بالمعرض، فأحبت اغتنام فرصة جني دخل إضافي من خلال إقامة حفلة في البار يدفع فيها المرء بقدر ما يستهلك. إنها فرصة للقاء أشخاص من لحم ودم لم أكن في الأيام الماضية قادرًا إلّا على تخيّلهم، استنادًا إلى أصوات خرخرة آلات ورق المراحيض عندما تعمل في حماماتهم، وإلى نتف من مكالمات هاتفية أسمعها عبر الجدران الرقيقة الواهية الفاصلة بيننا. الظاهر أن نزلاء هذا الفندق لم يكن بينهم أي شخص ممن يستطيعون شراء طائرة، أو بيع طائرة. أغلب الظن أن أشخاصًا من ذلك المستوى الرفيع قد نزلوا في فندق «تريلون» في قلب باريس، ولعلهم ماضون -في هذه اللحظات- في جولة من حول «إيل دو لا سيتي»، يتناولون طعام العشاء على متن زورق سياحي برعاية شركة بوينغ. لعلهم الآن يبحثون عن العبارات المناسب استخدامها تعليقًا على مشهد قباب كاتدرائية نوتردام، التي تبدو كأنها سابحة في الهواء؛ تلك القباب المبنيّة أواسط القرن الثالث عشر. على النقيض من حال تلك الفئة من الناس، كان هذا المكان موقع إقامة مفضلًا لدى من يشير إليهم


مكتبة ياسمين

قطاع الطيران باسم «الموزّدين»، من المستوى الثالث أو الرابع: أشخاص منخرطون في إنتاج أجزاء الطائرات الأصغر حجمًا وتعقيدًا؛ أو لعلهم منخرطون في صنع أشياء ليست من مكوّنات المنتج النهائي نفسه، بل من السلع والأدوات اللازمة لصنعه. تعرفت في مجرى حفلة الكوكتيل، التي كان أساسها نوعًا من شراب البرتقال، على مندوب مبيعات من مدينة فورت وورث في تكساس تنتج شركته الأنابيب المطاطية المسؤولة عن الأوكسجين والوقود والزيت في الطائرات التجارية النفاثة. وصف لي بشاعرية غير متوقَّعة كيف تجري عبر هذه الشرايين الاصطناعية تلك السوائل من تحت مقاعد المسافرين وهم محلقون في السماء، ماضون صوب وجهاتهم من فوق بحار تلفُّها الغيوم. رأى الرجل أنني مهتم بالأمر، فانحنى وأخرج من حقيبته الشبيهة بحقائب المحاسبين بروشورًا فيه صورة لثلاثة مستودعات رمادية على سقوفها خطوط حمراء. هذه المستودعات تقع في منطقة صناعية قريبة من مطار دالاس - فورت وورث. قرأت ما يعلنه البروشور: «لا تستطيع أية شركة أخرى مضاهاة سجلّنا المتميّز في توفير حلول الوقود الأفقية المتكاملة» - لكن اختيار مندوب المبيعات هذا الفندق البسيط بدا لي برهانًا على أن المشترين المرجوّين غير مستعدين لتأييد هذا الإعلان الناضح بثقة مبالغ فيها.

بصرف النظر عن حقيقة أن هذه المناسبة أتت في نهاية بضعة أيام من العمل الدؤوب، فقد كان القلق باديًا على كثير ممن أتوا إلى الحفلة، سواء أكان ذلك قلقًا في شأن طلبات الشراء، أو أسعار الأسهم، أو أنظمة سلطة الطيران المدني، أو أسعار صرف الدولار التي لا تستقر على حال. كان لديهم توتر


مكتبة ياسين

خاص إزاء أنباء قالت إن شركة «نورثروب غرومان» تضع خططًا لإعادة تنظيم عمليات الشراء لديها. باح لي رجل لديه شركة متخصصة في إجراء اختبارات التآكل بخوفه من أن يكون قد اختار مع زوجته، أسوأ توقيت لتجديد بيتهما الواقع على مقربة من تشيين في ولاية وايومينغ. تشيين. اسم استحضر من موضع عميق في ذهني صورة كوخ عتيق من جذوع خشبية، يشبه كوخًا آخر رأيته منذ فترة قريبة في لوحة ذات مقاس كبير، لرسام المناظر الطبيعية الأميركي توماس كول، الذي عاش في القرن التاسع عشر.

كان الأمر المزعج هو قلّة ما يستطيع المرء الحصول عليه من طعام حقيقي. هذا ما جعلنا مضطرين، أنا ومحدثِي، إلى الاعتماد أكثر مما ينبغي على شرائح البطاطس المقرمشة والمكسّرات المملحة. وأيضًا، جربنا تناول بضع كؤوس من الكوكتيل، لإدراكنا أننا لن نستطيع حلّ مشكلاتنا كلها تلك الليلة، وأن من الأفضل لنا أن نحاول نسيانها بضع ساعات مستعينين على ذلك بالشراب.

في طريق عودتي من البار إلى طاولتنا حاملًا الكأسين اللتين كانتا جولة الشراب الثالثة، فاجأني ما بدا لي أشبه بإدراك عميق لحقيقة أن المعرض الجوي لم يكن إلّا واحدًا من مئات المعارض والمناسبات المتخصّصة الجارية الآن في أرجاء العالم، مالئةً صالات المطارات بالموفدين إليها، موفِّرةً سوقًا نشطة لصانعي حقائب السفر ذات العجلات، واهبةً الحياة للموتيلات على الطرقات السريعة، معززةً أعمال صناعة الأفلام الإباحية. مؤتمرات مكرّسة للشقق الفندقية على الشواطئ، ولمعدات طب الأسنان، وإدارة النفايات والمنتجات


مكتبة ياسمين

الصيدلانية، وحفلات الزفاف وقوافل الرحلات. ومن خلف هذه المعارض، رسوم تأكيد الحجز المرسلة إلى فنادق «شيراتون» و«بست وسترن»، وصواني خدمة الغرف المزيّن بعضها بشرائح الخيار المخلل في طريقها من المطابخ إلى غرف النزلاء عبر ممرات حزينة المظهر في فنادق «كراون بلازا» و«فيرفيلد إنز & سويتس».

بدأت حفلة الديسكو، ومعها فرقة «ABBA». بعد ذلك اليوم الطويل، ولأن من المستبعد أن يرى أي منا الآخر بعد الآن، لم يبذ الرقص أمرًا غير مستحسن، خاصة عندما بدأت نغمات أغنية «سوبر تروبر» تصدح عبر مكبرات الصوت: أغنية كانت كلماتها غير الواضحة توحي بالصلات الدولية التي تزيدها سهولة كل طائرة من تلك الطائرات التي كانت سببًا في اجتماعنا في هذا المكان.

رقص الموفدون إلى المعرض كي ينسوا ما يقلقهم، وكي ينسوا أمور البيع وينفضوا عنهم ذلك الترقّب القلق الناجم عما يشيع في هذا القطاع من دسائس كثيرة. رقصوا كي يتوقّفوا عن التفكير في ديناميات مستقبل الطيران، وما سيأتي به الجيل الجديد من المحركات وأجهزة الملاحة الإلكتروميكانيكية، وما تعدنا به من محركات ذات استهلاك أقل للوقود وأجنحة مستفيدة من تكنولوجيا النانو. بعون من صالة الديسكو هذه، نجحنا في استعادة أنفسنا رجوعًا إلى حاضرنا، الذي تشوبه نواقص كثيرة كان من شواهدها هذا البار ذو الإنارة الخافتة على مقربة من طريق سريعة في مكان من الأماكن، وسط جمع كبير من المصانع ومراكز المؤتمرات. تشابكت أكفنا الرطبة وتمايلنا فوق الأرض المبلّطة مستمدّين راحة من بشريتنا المشتركة - بطوننا منتفخة


مكتبة ياسمين

لإفراطنا في أكل المكسرات، وخصورنا قد ازدادت عرضًا، وأمعاؤنا في حالة غير صحية، ونومنا غير مستقر، ونفقاتنا متزايدة تزايدًا عبثيًا- مخلوقات ترفع رؤوسها وتنظر إلى النجوم أحيانًا، لكنها تظل متمسّكة بالأرض.

-2-

لم تفارقني تجربة المعرض الجوي. بدأت أفكر في الطائرات بطريقة مختلفة. أسافر جوًا، فأتفحص قماش المقاعد وجنيحات الطائرة ومصابيحها، وأتأمل في ما اقتضاه وجودها من جهد: تبادل البطاقات، والمستودعات الرمادية، وحقائب مندوبي المبيعات، ومكعّبات الجبن المصفوفة على أطباق في أجنحة المعارض. لم أعد أنظر إلى الإطار المصنوع من البلاستيك المحيط بالنافذة فأراه شيئًا طبيعيًا أو محتومًا، بل نتيجة جهد صبور اشتملت عليه عملية صناعية كانت موضع اتفاق بين رجلَين جالسَين خلف منبر، أعلامٌ أمامهما، وصور ملتقطة من أجل صحيفة «*فلايت ديلي نيوز*».

بعد زهاء نصف سنة، تلقيت دعوة إلى إلقاء محاضرة في جامعة كاليفورنيا الحكومية في بيكرزفيلد، التي تبعد ساعتين بالسيارة عن حيث كنت مقيمًا في لوس أنجلوس. قررت الذهاب والعودة في اليوم نفسه، لكني خرجت من بيكرزفيلد بعد الظهر، بعد محاضرة متميِّزة بشبه انعدام حضور المستمعين -فاتخذت وجهة خاطئة ووجدت نفسي في طريق سريعة ذات اتجاهين لم تترك لي خيارًا غير المضي صوب صحراء موجافي الواقعة في الجنوب الشرقي-.

بدأت معالم الحضارة تختفي سريعًا مخلية المكان أمام تكرار متواصل لوديان قمرية قاحلة -مع أن


مكتبة ياسمين

تشبيه هذا المشهد بسطح القمر غير منصف لأنه يخفي المسؤولية عن وحشة المكان التي لا يصح اعتبار ذلك الكوكب الجار سببًا لها-. طيور جارحة تدور محلَقة في الأعالي. ومن وقت إلى وقت، بعد بضعة أميال من أرض لم يتغير مظهرها منذ نهاية عصر الجليد الأخير، بدأت تبينُ لي علائم متجدِّدة على حضور البشر، وتبينُ معها فرص جديدة للتساؤل عن مدى غرابة جنسنا، ومنها خاصّة ميله إلى وضع لوحات إعلانية حتى في أكثر المناطق إقفارًا من الناس، لوحات عليها عبارات من قبيل «شطائر ممتازة؛ أسعار منخفضة». كانت في المكان أيضًا أطلال متناثرة: أكواخ حجرية فقدت سقوفها ونوافذها وبدأت تتهاوى بطيئًا عائدةً إلى الصحراء؛ أكواخ ذات مظهر عتيق جدًا بدا معه أمرًا غير قابل للتصديق أن تكون من صنع المنقّبين عن الذهب أواخر القرن التاسع عشر. كان مظهر تلك الأكواخ يوحي بأن الفرق الرومانية الجوّالة بنتها قبل قرون من مولد المسيح.

بعد ساعة، أو ساعتين، من القيادة في دوائر لم أجد منها مخرجًا، وبعد أن استبد بي الغضب لقلة حيلتي، تخلّيت عن أي أمل في أن أتمكن ذلك اليوم من العودة إلى لوس أنجلوس، فتوقفت في فندق صغير في بلدة صغيرة اسمها موجافي. وهناك، في ممر معتم، بعد بضع عبارات تمهيدية تناولت أحوال الطقس، عرضت عليّ كمبرلي الاختيار بين غرفة «ديلوكس» مطلّة على بركة السباحة وبين غرفة عادية أقل منها ثمنًا، لكنها مطلة على موقف السيارات. قالت لي إنني قد أميل إلى تفضيل الأخيرة بالنظر إلى حركة القطارات النشطة.

لم يسنح لنا وقت لمتابعة الحديث قبل يُغرق


مكتبة ياسمين

الفندق كله ضجيج مفاجئ شديد، جعل أي كلام مستحيلًا طيلة أربع دقائق تلت ذلك. تردَد الصوت في جنبات الوادي منعكسًا على الجروف الصخرية في جبال تيهاتشابي فاتضح لي مدى اتساع ذلك «الطبق» الرملي الذي تقع فيه البلدة. موجافي تقع على واحد من أكثر الخطوط الحديدية ازدحامًا في تلك البلاد. قطارات شحن يضم كثير منها مئة عربة، تأتي في الليل وفي النهار حاملة المواد الكيميائية والصخور والفاكهة المعلَبة وأجهزة التلفزيون ولحوم الماشية ودقيق الذرة. كانت القطارات تأتي من ميناء لونغ بيتش، وتمضي في طريقها صوب الشمال وصوب الشرق، صوب مستودعات في دنفر وشيكاغو. وكانت أحمالها شديدة الثقل لا تسمح لها -إلَا في حالات نادرة- ببلوغ سرعة تتجاوز خمسين كيلومترًا في الساعة، مع أن الواحد منها تجره ثماني قاطرات معًا. في الليالي الغائمة، في وديان ضيقة بين موجافي وبيتسرفيلد، كثيرًا ما تنجح عصابات من لصوص مكسيكيين في القفز على تلك القطارات البطيئة فتفتح الحاويات التي فيها سلع قيّمة. وفي كل شهر، يتم العثور على واحد أو اثنين من أولئك اللصوص ميتًا في الصحراء وحوله أكياس من أحذية رياضية مصنوعة في فيتنام. يحدث هذا عندما يضلَ اللص طريقه بين الصخور والوديان الصغيرة. جعلتني كمبرلي أرى مقالة عن واحد من ذوي الحظ العاثر أولئك، نشرتها صحيفة محلية. وجدت المقالة خالية من أية شفقة، بل كانت ذات نبرة انتقامية غاضبة جعلتها تبدو لي أكثر انحيازًا إلى جانب الأحذية.

قصة القطارات هذه جعلتني أجد صعوبة في ترك المكان. كان سماعي بها أشبه بأن يفلح المرء في إغواء امرأة في البار، ثم يكتشف عندما تنهض


مكتبة ياسمين

كي تراقصه، أو كي تذهب إلى الحمام، أن لها ساقًا واحدةً فقط. استلمت المفتاح من كمبرلي ومضيت إلى غرفتي، حيث أدركت سريعًا أنه لا بد لي من الفرار منها إلى أن أكون مستعدًا للنوم. نزلت السلم من جديد وخرجت إلى بركة السباحة. فتاة في سن المراهقة رأيتها جالسة على مقعد طويل عند البركة تقلّم أظافر قدميها، فتتطاير القصاصات مجتازة مسافات غير قليلة على الأرض الإسمنتية ذات اللون التركوازي. مما يؤسف له أن القسم الأكبر من الموازنة المخصّصة لبركة السباحة قد أنفق على الإعلان عن وجودها -لوحة منارة ضخمة أمام الفندق من ناحية الطريق- فلم يبق من الموارد ما يمكّنها من أن توجد فعلًا. كانت من أصغر مقاس ممكن يجوز معه اعتبارها بركة سباحة قبل أن تصير حوض استحمام مستطيل.

عدت إلى السيارة كي أتجوّل في البلدة. إلّا أن هذه البلدة، على غرار بلدات صغيرة كثيرة في الغرب الأميركي، بدت من غير مركز يستطيع فيه المواطنون أن يجتمعوا لتجاذب أطراف الحديث، وممارسة الألعاب، والخوض في مناقشات فلسفية مثلما كان الناس يفعلون في أثينا أيام بيركليس - هذا ما يقوله معظم الروايات التاريخية. ليس في تلك البلدة حتى متجر «وول مارت». واحتكامًا إلى عدد اللافتات المخصّصة له، كان المطار نقطة الجذب الرئيسية في ذلك المكان. مطار يقع قبالة المدينة فيه بضعة أكواخ ومستودع، وطائرتان صغيرتان من نوع «سيسنا» ومدرج للهبوط. وفي سماء بعد الظهر المتأخر التي صارت شاحبة اللون، كانت طائرة خفيفة جدًا تقترب اقترابًا بطيئًا سابحة فوق الوادي من غير أن تحرز تقدمًا أستطيع تمييزه. لكني تابعت القيادة من حول المطار،


مكتبة ياسمين

فتبدَى لي مشهد أكثر أهمية: في الأفق، عند آخر مدرج المطار، مجموعة كبيرة من طائرات دولية ضخمة بدا لي أنها هبطت هنا ثم توقَفت متقاربة كثيرًا تكاد حافة جانح الواحدة منها تمسَ حافة جانح الأخرى، وكأن كارثة لم أسمع بها حتى الآن أدت إلى هجرة جماعية لهذه الطائرات من كل قارة في الأرض، قاصدة هذه الزاوية بعينها في جنوب كاليفورنيا. كان في هذا المكان ممثلون عن هولندا وأستراليا وكوريا الجنوبية وزيمبامبوي وسويسرا. طائرات إيرباص قصيرة المدى، وطائرات بوينغ 747 العملاقة. وحتى تزداد غرابة المشهد، كانت الطائرات هناك من غير شيء من المعدات التي ترافقها -لا سلالم، ولا باصات، ولا عربات لنقل الأمتعة، ولا صهاريج لإعادة التزود بالوقود-. طائرات جاثمة وسط نباتات الصحراء من غير أحد من حولها، وكأن مسافريها لا يزالون داخلها منتظرين أن تفتح أبوابها.

لم أدرك إلَا بعد أن اقتربت من الطائرات أن كل واحدة منها قد لحقت بها إصابة. طائرات كثيرة من غير أنوف، وأخرى كانت فوّهات محركتها ومواضع أجهزتها الحساسة مغلَفة بورق معدني فضي اللون. بعضها فقد عجلاته وبات واقفًا على أكوام من الأخشاب. طائرة بوينغ 737 عليها شارة الخطوط الجوية الهندية كانت مقسومة عند وسطها المنغرس في الرمل، في حين صارت قمرة القيادة فيها مرتفعة صوب السماء؛ وما من أثر يشير إلى النصف الخلفي من هيكلها.

كان يحيط بالطائرات سياج من أسلاك شائكة، إلى جواره مبنى إداري بدائي المظهر مكوَن من طابق واحد. رجوت أن أستطيع الحصول على إذن


مكتبة ياسمين

بأن ألقي نظرة عن كثب، ففتحت الباب المصنوع من لوح حديدي مموّج لأجد نفسي وسط غرفة مكتب. كان شاغلُ ذلك المكتب منحنٍ تحت طاولته يحاول حلَّ مشكلة أصابت الآلة الطابعة، وجعلته غارقًا في ذلك النوع من المزاج الكارثي الغاضب الذي يحدث كثيرًا أن يرافق مشكلات من هذا النوع. صاح بي: «لا!»، حتى من غير أن يرفع رأسه. شرحت له أنني كنت مارًا بهذا المطار، فشدّني الجمال الفريد المنعزل الذي رأيته في هذه الآلات العملاقة المتروكة هنا وحدها حتى تتآكل وتفنى في الصحراء.

أجابني بنبرة حاسمة: «انصرف! نحن لا نسمح بالزيارات».

كنت واثقًا من أن منطق هذا الرجل يمكن أن يستفيد من إلقائه نظرة أعمق على منابع فضولي، فتابعت الكلام مقدمًا مونولوجًا طويلًا أورد هنا نسخة تقريبية عنه، منمقة أيضًا، لأنني لم أرَ منصفًا أن أحرم القارئ منه:

«مع أن رغبتي في إلقاء نظرة قريبة على هذه الطائرات نصف البالية تظل رغبة شخصية من حيث


مكتبة ياسمين

طبيعتها، إلَا أنها متفقة مع التقليد الغربي القديم المتمثل في الاهتمام بالآثار الباقية من حضارات اندثرت. وهذا ما يمكن تتبّعه رجوعًا في الزمن حتى القرن الثامن عشر، على أقل تقدير. فمنذ ذلك الوقت، كانت جماعات كبيرة من محبّي رؤية الآثار -الشاعر غوته واحد منهم- ترتحل إلى شبه الجزيرة الإيطالية حتى تتأمَل معجبة أطلال روما القديمة، في ضوء القمر أكثر الأحيان، وتستمد السلوى من مشهد تلك القصور والمسارح التي كانت عظيمة في ما مضى، ثم كستها الأعشاب البرية، وصارت مأوى للذئاب والكلاب الشاردة. لقد اخترع الألمان الذين كانوا دائمًا قومًا على قدر كبير من المهارة في صوغ كلمات مركبة، مصطلحَ 'شهوة الخرائب' كي يصفوا هذا الهوى الجديد. في واقع الأمر، يبدو أنه مع مزيد من تطور المجتمع يتطوَر لديه اهتمام أكبر بالأشياء الخربة، لأنه يرى فيها تذكرة حكيمة بهشاشة كل ما أنجزه. تمثَل الخرائب تحدّيًا مباشرًا لاهتمامنا بالسلطة أو بالمكانة، بالصخب أو بالشهرة، كأنها تثقب تلك الفقاعة من الخيلاء التي يتسم بها سعينا إلى الثروة، ذلك السعي الذي يستنفدنا. من المنطقي، والحال كهذه، أن يكون لدى من يزور الولايات المتحدة، هذا المجتمع الأكثر تطورًا بين المجتمعات الحديثة كلها، اهتمام خاص برؤية هذا الوجه الآخر لتقدَم الأمة. إن طائرة بوينغ 747 لشركة كونتيننتال إيرلاينز التي أراها الآن تبلى في الخارج قبالة نافذتك، تبدو لي مكافئًا لما ينبغي أن يكون إدوارد جيبون في شبابه قد رآه في الكولوسيوم في روما».

مرَت فترة صمت ريثما استوعب الرجل ما كان في كلمتي البليغة هذه من فصاحةٍ وعمقٍ وأبعاد ثقافية. كان الأزيز الصادر عن الآلة الطابعة لا يزال


مكتبة ياسمين

مسموعًا. إلّا أنه كان واضحًا أن ذلك الرجل غير ميّال، بطبيعته، إلى إبداء إعجابه بأي شيء مما يسمعه: فعندما فتح فمه أخيرًا كي يتكلّم، كان ما قاله «انقلع» من جديد؛ لكنه قالها هذه المرة بقدر من العزم والتأكيد، لعلهما كانا غير كافيين في المرة الأولى. وحتى لا يبقى في الأمر أي مجال لعدم الوضوح، أضاف قائلًا: «انقلع من هنا قبل أن أطلق النار على مؤخرتك».

لحسن الطالع، لم يكن الرجل بعيدًا عن أية إمكانية للتفاهم المنطقي بيننا بالقدر الذي قد تكون كلماته موحيةً به. كان لديه فهم ممتاز لقيمة المال، فوافق بعد قليل، عندما استلم مني بضع أوراق نقدية من فئة عشرين دولارًا، على أن يسمح لي بالتجول في الموقع، طيلة الوقت الباقي حتى انصرافه من عمله مع حلول الليل. على أنه كان لا بد لي من توقيع وثيقة قانونية مطوّلة أقر فيها بأنني (وبأن أي شخص من أقاربي، في حال موتي) لن أحاول أبدًا مقاضاته أو مقاضاة ورثته نتيجة أية إصابات قد تلحقها بي الأخطار الكثيرة في الخارج التي من بينها قطع حادة جدًا من أجنحة الطائرات المحطَمة، وهياكل الطائرات غير المستقرة، والأفاعي المجلجلة ذات الرؤوس المثلثة التي اتخذت لها مساكن في ممرات الطائرات ومحركاتها ومقاعدها، فضلًا عن مخاطر كثيرة أخرى. رافقني ذلك الرجل الحريص إلى الخارج مختتمًا الكلام بأن حذرني تحذيرًا لطيفًا إلى حد مفاجئ من السلاحف الصحراوية التي تتجول في المنطقة. قال لي إن من بينها سلاحف كثيرة تجاوزت أعمارها مئة سنة -يعني هذا أنها كانت في العشرينيات أو في الثلاثينيات عندما قهرت طائرة «روح سان لويس» المحيط الأطلسي- لكنها تخشى الغرباء، ومن


مكتبة ياسمين

الممكن أن تطلق الواحدة منها محتويات مثانتها كلها، إذا فوجئت، فتخسر كل ما لديها من مؤونة مائية لهذا الفصل. أي إنها تفقد الماء الذي يعتمد عليه بقاؤها نفسه.

خرجت إلى حيث الطائرات، فوجدت أن ما ألمَّ بها من أضرار أكثر كثيرًا مما ظننت. ففي حين كان بعضها لا يزال قطعة واحدة، اكتشفت أن أكثرها قد أفرغ مما فيه إفراغًا تامًا بغية الحصول على قطع التبديل، حتى صار أشبه بهيكل عظمي. محركات ومجموعات عجلات متناثرة على الأرض، ومعها مقاعد الطائرات وصناديق الحمولات والسلالم والمصاعد. آلات أمضت الجزء الأكبر من حياتها العاملة متمتعة برعاية المهندسين والميكانيكيين المؤهلين تأهيلًا رفيعًا، لكنها ماتت آخر الأمر، فوقعت فريسة المناشير الكهربائية.

وأيضًا، كانت في المكان أصوات فاجأتني. أبواب عربات الطعام، وأحزمة المقاعد، وكراسي المراحيض التالفة، كانت كلها تتمايل وتتصادم في الريح، فتصدر عنها أصوات تجعل المكان يبدو مثل مرسى زوارق وقت العاصفة. طائرات كثيرة عليها علامات شركات طيران معروفة: ميدواي، برانيف، نوفير، آفريكان إير إكسبرس، سويس إير، وتي دبليو إيه. كانت من بينها طائرات بدأت خدمتها في أساطيل شركات نقل جوية تتمتع بأموال طائلة، ثم تدهورت بها الحال مع مرور الزمن، فنزلت درجات سلم قطاع الطيران، وأمضت أيام عملها الأخيرة في رحلات شحن جوي ليلية تذهب وتعود بين ميامي وسان خوان، أو تسافر جيئة وذهابًا بين أديس أبابا وهراري بعد أن تمزّق جلد مقاعد الدرجة الأولى فيها، فأصلحوه بقطع من شريط لاصق ذي لون


مكتبة ياسمين

فضي.

وجدث طائرة للخطوط الجوية الصومالية من طراز بوينغ 707 منقلبة على جنبها، ولم يعد متصلًا بها غير جناح واحد. اشترت شركة «كانتاس» هذه الطائرة سنة 1966 ووضعتها على خط لندن - سيدني، حيث ظلّت ثماني سنوات قبل أن تشتريها شركة الطيران الماليزية. وفي كوالالامبور، أبدل مالكو الطائرة الجدد بالكنغر المرسوم على ذيلها بصورة طائر أنيقة (شعار شركتهم)، وألغوا مقصورة الدرجة الأولى. وبعد إنهائها عشر سنوات من رحلات بين كوالالامبور وهونغ كونغ، انتقلت الطائرة إلى شركة الطيران الصومالية (الآن، صارت عليها بقع كبيرة من حول الجزء الخلفي من هيكلها). تدبَروا أمرها مستخدمين قطع تبديل غير مرخصة. فظلّت طائرة البوينغ 707 هذه تنقل الجنود والمهرّبين وعمال الإغاثة والسائحين بين مقديشو


مكتبة ياسمين

وجوهانسبورغ وفرانكفورت. ثم وقعت حادثة في مطار مقديشو حيث اصطدمت بشاحنة صغيرة، ثم أصابت ذيلها قذيفة أثناء هبوط اضطراري في مطار نيروبي حيث كانت تدور معركة مع المتمرّدين، واندلعت النار في واحد من محركاتها. أفلست الشركة، وقُتل مديرها في حادثة سطو مسلح، وتم التوصل إلى اتفاق يقضي بنقل الطائرة التي انتهى أمرها إلى مثواها الأخير في هذا المكان النائي.

كانت مفاجئةً رؤية سرعة التدهور الذي أصاب هذه الطائرات: مع أن أقدمها لم يمض على مغادرته خط الإنتاج أكثر من نصف قرن، فهي تبدو الآن عتيقة أكثر من معبد إغريقي. وفي أجواف هياكلها بقايا من تكنولوجيا صارت الآن عتيقة جدًا. أجهزة هاتف ضخمة مصنوعة من الباكليت، ولفافات من كابلات كهربائية ثخينة، وصناديق كبيرة مثبتة إلى السقوف كانت فيها أجهزة العرض السينمائي. وجدت في مقصورات القيادة مقاعد لمهندسي الطيران الذين صارت تقوم بمهماتهم الآن كومبيوترات لا يتجاوز حجم الواحد منها مقاس كتاب كبير. لا تزال على بعض الطائرات محركات «Pratt & Whitney JT3D»، تلك المحركات الشهيرة التي كانت «دواب العمل» في السبعينيات، وكانت تنتج قوة دفع تبلغ 17500 باوند، رقم لا يستهان به، تلك الأيام. لم تكن تلك المحركات مدركةً أن الأجيال التي ستظهر بعد عقود قليلة ستكون قادرة على إنتاج خمسة أضعاف قوة الدفع هذه، مستخدمة قدرًا أقل من الوقود ومطلقة قدرًا أدنى من الضجيج.

يظهر أفق الموت شديد الوضوح في زماننا الحديث على خلفية التكنولوجيا والتطورات الاجتماعية المتواصلة التي تجرّدنا من أية إمكانية لأن نؤمن بخلود منجزات عملنا. كان أسلافنا قادرين على أن يؤمنوا بأن منجزاتهم تتمتّع بفرصة البقاء في مواجهة صروف الزمان. لكننا صرنا مدركين أن الزمن أشبه بإعصار. مبانينا، وأذواقنا، وأفكارنا، هذه كلها لن تلبث أن تصير غير منتمية إلى زمانها؛ وسرعان ما تغدو الآلات التي نفخر بها الآن موضع رثاء مثلها مثل الجمجمة التي حملها هاملت.


مكتبة ياسمين

وجدث طائرة لشركة تي دبليو إيه وقد فقدت مقصورة القيادة، فضلًا عن مجموعات العجلات. صعدت إلى متنها وجلست في المقعد رقم «1C»، مقعد وثير ذو لون أزرق داكن، إنما عليه بقعة كبيرة. صارت الساعة السابعة مساء، لكن ضوء النهار لا يزال ساطعًا، ولا يزال الجو دافئًا. وددت أن أضغط الجرس كي أطلب زجاجة كوكا كولا من المضيفة التي قد تكون الآن ميتة. لاحظت أن أقنعة الأوكسجين التي تستخدم في الحالات الطارئة قد صارت الآن متدلية من السقف فوق المقاعد. لم تفعل الأقنعة هذه استجابة لواحدة من حالات الحوادث الطارئة التي هي مصمَمة من أجلها عندما تشبّ النار في المحركات، ويمتد مزلق النجاة المنفوخ عند الباب، وينتاب السيدات ذعر شديد، فلا تتذكّرن نزع أحذيتهن ذات الكعوب العالية. لكن الأقنعة متدلية الآن لأن النوابض التي تثبتها في أماكنها قد نال منها تاكل بطيء. أظن من المرجح


مكتبة ياسمين

دائمًا أن يكون موتنا هكذا: من غير أية حوادث درامية مفاجئة، ومن غير رجال إطفاء بخوذاتهم الواقية ومعداتهم على مدرج المطار، ومن غير أن نحظى بموت جماعي وتعاطف في الصحف، بل عبر عملية تدهور بطيئة لا نكهة لها مثلنا مثل هذه الأقنعة التي انفكت من أماكنها، وصارت الآن متأرجحة في ريح الصحراء، لا يراها أحد غير الأفاعي المجلجلة وسلاحف الصحراء الوجلة التي لا تقوى على ضبط مثاناتها.

ارتحلت أفكاري إلى الناس الذين بنوا هذه الآلات وجعلوا الحياة تدبّ فيها، إلى الموظفين الذين تبادلوا بطاقاتهم في معرض الطيران في لو بورجيه سنة 1968، وإلى أولئك الذين صنعوا هواتف الباكليت في ترنتون بولاية نيوجيرسي بعد التوسّع الذي عرفته شركته إيسترن إيرلاينز، وإلى من أنتجوا البطانيات في مصنع قريب من كالغاري، تلك البطانيات التي صارت الآن غارقة في رمال الصحراء. فكَرت أيضًا في قائد الطائرة، وفي العبارات اللطيفة التي أظنه كان يتبادلها مع المضيفات اللواتي تجلبن له وجبة العشاء في طبق مغلّف بورق معدني أثناء رحلة إلى الكاريبي سنة 1971، السنة نفسها التي وصل فيها عيدي أمين إلى السلطة وفاز فيها جون نيوكومب ببطولة ويمبلدون. تخيّلت قبعته ذات الشريط الذهبي، ونظارة الطيران، وذراعيه المشعرتين اللتين لوحتهما الشمس، ونزوله إلى مدرج المطار في كينغستون، وغرفته ذات اللون القرمزي المشرفة على بركة السباحة في فندق «سنسيكر كلب» الذي أنشئ قبل فترة قصيرة على مقربة من المطار.


مكتبة ياسمين

كم كانت فكرة موته تبدو له بعيدة الاحتمال. وكم كانت فكرة غير متناسبة مع جسده الرياضي وذهنه الوقاد. أظنه لم يكن يجد علامات كثيرة تذكّره بقصر المدة التي ستظل فيها ركبتاه قادرتين على الانثناء، من غير مشقة حتى ينحني ويحمل حقيبته. لسوف يجد آخر المطاف مشقة كبيرة حتى في ترتيب أبسط الأفكار. لقد كان ماضيًا إلى إتمام عشرة آلاف يوم بقيت من حياته، ولا تزال أمامه مرات كثيرة يعيش فيها لحظات قلق يومية كلما صادفه ازدحام في مطار أوهير، أو كلما ساءت الأحوال الجوية فوق خليج المكسيك. لم يكن هذا الرجل يحسب أنه سيصل، ذات صباح، لحظة حاسمة تأتيه في صورة ضيق في الصدر وهو خلف مقود سيارته في ضاحية من ضواحي فينيكس.

يصعب أن يظل الموت ماثلًا في أذهاننا عندما يكون أمامنا عمل لا بد من إنجازه: لا يبدو لنا الموت «محرَمًا» بقدر ما نراه مستبعدًا. فالعمل بطبيعته، لا يسمح لنا بأن نأخذ موتنا على محمل الجدّ التام. لا بد أنه يودي بما لدينا من حسّ بالمستقبل. ولنا أن نكون شاكرين له لأنه يفعل هذا بنا، ولأنه يسمح لنا بأن ننخرط في مجريات حياتنا من غير مشقة، ولأنه


مكتبة ياسين

يتركنا نتعامل مع التفكير في موتنا وخراب مساعينا كلّها بخفّة جميلة، كأن تلك الأفكار ليست إلّا وليدة مخيّلاتنا ونحن مسافرون إلى باريس حتى نبيع زيت المحركات. نحن نمضي في حياتنا استنادًا إلى قصر نظر لا بدّ منه كي نستطيع أن نعيش. ها هنا مكمن طاقة الوجود نفسها، الإرادة العمياء التي هي ليست بأقل إثارة للمشاعر من تلك الإرادة العمياء التي نراها في حشرة صغيرة تبذل غاية الجهد كي تعبر إطار النافذة، وتسير ملتفة من حول نقطة طلاء جامدة تركتها فرشاة متعجّلة، تسير رافضةً أن تتأمل الصورة الأكبر التي تقضي بأن تكون ميتة مع حلول الليل.

كثيرة جدّا هي الحجج التي تبرهن على تفاهة شأننا وسهولة فنائنا؛ وهي حجج معروفة جيدًا ولا محل لاستعراضها كلّها. ما يدعو إلى العجب هو أننا قد نحمّل أنفسنا مهمة مباشرة أعمالنا بكل جدية وتصميم، حتى عندما يكون واضحًا لنا، ضمن صورة أكثر اتساعًا، أنها من غير معنى. فالدافع الذي يجعلنا نبالغ في أهمية ما نفعله -بصرف النظر عن كونه غلطة يقع فيها العقل- هو الحياة نفسها، الحياة التي تجري فينا. تشجعنا العافية على أن نرى أنفسنا في كل تجربة إنسانية في كل أرض، وعلى أن نشهق أسفًا إزاء جريمة قتل تقع في بلد بعيد، وعلى أن


مكتبة ياسمين

نرجو نموًا اقتصاديًا وتقدمًا تقنيًا يتجاوزان حدود أعمارنا، ناسين أن ما يفصلنا عن الموت ليس أكثر من بضع خلايا تشذّ عن مجرى نشاطها السليم.

أن نرى أنفسنا مركز الكون وزماننا الحاضر ذروة التاريخ، وأن نرى أهمية بالغة للقاءاتنا واجتماعاتنا المقبلة، وأن نتجاهل ما تعرضه علينا المقابر من دروس، وأن لا نقرأ إلّا في ما ندر، وأن نشعر بضغط المواعيد النهائية الموضوعة لإنجاز أعمالنا، وأن نخاطب زملاءنا بنبرة غاضبة، وأن نمضي عبر برامج المؤتمرات المكتوب فيها «من الحادية عشرة حتى الحادية عشرة وخمس عشرة دقيقة، استراحة القهوة»، وأن نسلك مسلك الطيش والجشع، وأن نفنى في المعركة... لعل هذا كلّه، آخر الأمر، هو الحكمة عينها. إن الاستعداد للموت استعدادًا واعيًا فيه احترام مبالغ إزاءه. فلنتركه يفاجئنا ونحن نشحن عجينة الورق عبر بحر البلطيق، أو نفصل رؤوس أسماك التونة عن أجسادها، أو ننتج أنواعًا كثيرة من البسكويت، أو ننصح عميلًا لنا بأن يغيِّر


مكتبة ياسمين

مهنته، أو نطلق قمرًا صناعيًا كي يحمل التسلية إلى جيل من بنات المدرسة في اليابان، أو نرسم شجرة بلوط في حقل، أو ننشئ خطًا للطاقة الكهربائية، أو نُجري حسابات، أو نخترع مزيلًا للرائحة، أو نصنع أنبوبًا ملتفًا مقوًى من أجل استخدامه في طائرة. فلنترك الموت يصادفنا كما نحن. فلنتركه يصادفنا ونحن نقيم في مواجهة أمواجه القادمة احتجاجاتنا الواهية كأعواد الكبريت.

لو كان في مستطاعنا أن نشهد الهلاك النهائي لكل واحد من مساعينا ومشاريعنا، لما كان لنا محيد عن الاستسلام والوقوع في شلل فوري. فهل كان أي شخص ممن وقفوا ينظرون إلى جيوش كسرى ماضية إلى هزيمة الإغريق، أو ممن سمعوا ملك المايا «تاي تشان أهك» يصدر أوامره ببناء المعابد الذهبية في عاصمته كانكوين، أو ممن كانوا حاضرين يوم دشنت الإدارة الاستعمارية البريطانية نظام البريد الهندي، أن يجد في قلبه ما يسمح له بأن ينبئ أولئك المتحمّسين بالمصير الأخير الذي ستنتهي إليه مساعيهم؟

على الأقل، عملنا يلهينا ويوفِّر لنا «فقاعة» ممتازة نعلّق عليها أملًا في حمايتنا. وهو يركِّز مخاوفنا وأسباب قلقنا الكبيرة على أهداف صغيرة نسبيًا، قابلة لأن تتحقق، فينعم علينا هذا بحسّ الإتقان والسيطرة. يجعلنا عملنا نعيش إرهاقًا محترمًا، ويضع طعامًا على الطاولة. إنه يقينا شرَ الوقوع في مشكلات أعظم شأنًا.

# شكر وتقدير

في الأصل، كان هذا المشروع مصمَمًا كي يكون ريبورتاجًا مصوّرًا بقدر ما هو مقالة مكتوبة. وقد كان لي شرف العمل، منذ البداية، مع المصور ريتشارد بيكر (www.bakerpictures.com)، الذي أجد نفسي مدينًا له كثيرًا لما له من عين بصيرة وروح مرحة دائمًا، حتى في لحظات الأزمات. يمكن الاطلاع على مجموعة الصور كاملة في: (www.alaindebotton.com).

أوجه الشكر أيضًا إلى الفصل الثالث: إدوارد روبر، «فيلم في نيويورك»، متحف الفن الحديث، نيويورك. الفصل السادس: صور ستيفن تايلر؛ كين أدلارد، «نيو مون فوتوغرافي»، نورفولك؛ صورة جويّة للشجرة، ستيفن تايلر (www.stephentaylorpaintings.com).

بإذن من نادي الطيران الشراعي في إيسكس وسوفولك؛ الصورة داخل المعرض، فيرتيغو، 62 غريت إيسترن ستريت، لندن، بإذن من الفنان نفسه.

أنا ممتن لمؤسسات كثيرة وأشخاص كثيرين ممن سمحوا لي بدخول مواقع عملهم، وأمضوا معي ساعات في الحديث عن مهنهم ووظائفهم. أوجّه شكرًا خاصًا إلى: مارتن غارسايد وغلينيز داوسون وفريد ستروبان ولوسي بيلهام بورن وماريام سيينا وسارا ماهير وياسر وحيد ومدوح و. وناليم محمد وسلمى أحمد وإبراهيم ريان وفرانكو بوناسينا وخوسيه روسي وبريجيت كولنسي وجيسون أورتون وإيان ماكاولي.

جرى تغيير بعض الأسماء في الكتاب بغية حماية خصوصية أصحابها.

أود أيضًا توجيه الشكر إلى كل من: توم ويلدون


مكتبة ياسمين

وهيلين فريزر وجون ماكسون ودوروثي ستريت وجوانا نيمير ودان فرانك ونيكول أراغاي وسايمون بروسر وكارولين داونايا وشارلوت دو بوتون. أشكر «فيبر اند فيبر» و«راندوم هاوس» في نيويورك للموافقة على السماح لي بإيراد مقتطف من قصيدة و. هـ. أودين «المديرون» في الفصل الثامن من هذا الكتاب.

(1) أي باللغة الفرنسية كما جاءت في النص.

(2)Prestigious، القوى التي تمتلك برستيج ولها تأثير في الرأي العام.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل الأول مراقبة سفن الشحن 3

الفصل الثاني الخدمات اللوجستية 22

أ: مركز لوجستي 23

ب: رحلة لوجستية 37

الفصل الثالث صنع البسكويت 57

الفصل الرابع الاستشارة المهنية 90

الفصل الخامس علم الصواريخ 114

الفصل السادس فنَ الرسم 150

الفصل السابع خطوط نقل الطاقة الكهربائية 170

الفصل الثامن عالم المحاسبة 197

الفصل التاسع ريادة الأعمال 237

الفصل العاشر عالم الطيران 258

شكر وتقدير 292

t.me/yasmeenbook



مكتبة ياسمين